JALAL BARJAS
جلال برجس
مقصلة الحالم
رواية
الأهلية

مقصلة الحالم

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7855 عمّان 11118 ، الأردنّ
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،
بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ ، مكتب القاصة ، بناية 34

◆

مقصلة الحالم
تأليف: جلال برجس

الطبعة الأولى 2013
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: ديمو برس

الصف الضوئي: إيمان زكريا، عمان هاتف: 097/534156

All rights reserved.*No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة *. لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، بأيّ شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطّيّ مسبق من الناشر .*

جلال برجس

مقصلة الحالم

إلى امرأة بيني وبينها قمر، كلما أطلّ من جبين السماء، نراه بعين القلب فينير عتمة المسافات.

أكتبُني لعلني أولد مرّة ثانية

سجين الصدى

عندما تكره المرأة رجلاً لدرجة الموت؛ فاعلموا أنها كانت تحبه لدرجة الموت.

«مارك توين»

سرير افتراضي

عندما أغلقتُ باب سيارتي ورائي، كانت آثار الصقيع، الذي بدا قاسياً في ذلك الصباح، ما تزال

باقية على زجاجها، فبقيتُ لدقائق أتأمل وجه الزجاج وقد استحال إلى لوحة بيضاء، تتقاطع فيها

الخطوط، والوجوه، والأجساد، موحية بمزاج سوريالي ضارب في المعنى. فالطبيعة يد رسام أولى، تمارس هوايتها بلا خوف، أو تردد.

راح محرك السيارة، وأنا أجهزها للانطلاق، يئن متأثراً بموجة الصقيع التي عصفت بالقرية. أرخيت رأسي على مسند الكرسي وأخذتني سنة من التفكير:

«ما الذي يحدث لك يا خالد؟ إنه الجنون بعينه أن تذهب إلى معتقل أمضيت فيه عشرين عاماً، ليس ثمناً لموقفك السياسي؛ بل بتهمة، لم تقترفها، ستبقى تقلب بصرك بين الوجوه باحثاً عن أي دليل يشير إلى من ألصقها بك. ما إن غابت «سعاد» ذلك الغياب الخاطف المفاجئ؛ حتى رحت تتحسس شكل سجن جديد يشرع أبوابه في صدرك. كأن كل تلك الكلمات، والتأوهات، والوعود، وأنين الجسد في سرير الحب، أمست مجرد مشهد في فيلم تحولت

شاشة السينما إلى سوادٍ مخيفٍ، بعد انتهائه. حنين جارف لمعتقل ستذهب إليه مدفوعاً بشغف غريب ومرَضيّ، بات يلح عليك منذ أن وجدت نفسك عاجزاً عن فهم ما يجري حولك. حتى أن صديقك الدكتور ويلسون الذي راقت له عوالم الشرق فأقام في عَمان، لم ينجح بطرده منك رغم شرحه المستفيض لأسبابه، وطرق التخلص منه، وأنت ممدد على سرير يشبه كرسي اعتراف بكل ما يحدث في داخلك، وتسرد له ما حدث عبر عشرين عاماً صارت أثارها كآثار شوك حوليّ في قدم سقطت فجأة بحقل ملغم بالحشائش الشوكية الضارة.»

تلاشت لوحة الصقيع البيضاء، وتراجع أنين محرك السيارة، فانطلقت في الطريق التي تشق القرية إلى نصفين متساويين، في صباح ارتفعت فيه أدخنة المدافئ، كأنها أياد تضرع إلى الله، قاصداً الطريق الصحراوية الممتدة كلسان كبير يهزأ بالكائنات.

ثلاث ساعات من مسير تحولت حياتي عبره إلى مشاهد تتوالى أمام عيني مشهداً، مشهداً، لأجدني في نهاية الطريق قبالة معتقل، جاثم على صدر الرمال ببدنه الحجري الأصفر، بأسلاكه الشائكة الصدئة، بأسواره العالية كالصرخات، وبصوت الرياح وهي تحوم حوله كنادبات استمرأن النواح.

أطفأت محرك السيارة، وأشرعت باب الذاكرة على مصراعيه لأغرق بكل ما حدث منذ الليلة التي اعتقلتُ بها، ليلة كان عليّ أن أؤمن فيها بالإشارات، والنذر وهي تخرج لي حتى من الهواء. انتهاء بذلك الصباح الذي غادرتُ به المعتقل وأنا أتبين عبر نافذة العربة

العسكرية، نواح ذئب بقي كحكايات الأمهات قبيل النوم في المعتقل، ينحدر إلى مسامعي برتمه الموسيقي الموحش قادماً من ليل الصحراء، إلى أن تحل سطوة الإغفاء حاملة معها الكوابيس، والهلوسات، والنوم المتقطع.

بدت لي الصحراء وهي تحاصر المعتقل، قد اتسعت أكثر من ذي قبل، فاغرورق البصر ببدن المسافات وهي تركض للبعيد ثم تلتحم بالأفق. فجأة ثارت عاصفة في المكان، جلبت معها ذرات الرمل الدقيقة، وبقايا الحشائش اليابسة، ومزق أوراق مصفرة ذابلة. إنها مزاجية الصحراء التي مثلما تمنحك المساحة الهادئة في صباحاتها، ولياليها الصيفية؛ تمنحك غضبها دونما مقدمات. ما هي إلا لحظات، وكأن المساء قد حلّ؛ حتى طفقت على المكان عتمة حمراء، وراحت الرياح تعوي وهي تعزف على وتر موغل بالوحشة.

أغلقت نوافذ السيارة وأرحت بدني على الكرسي مستسلماً لإحساس سادي غريب من التلذذ بالوحشة. من مخبأ الذكريات كان عواء الذئب يجيء متقاطعاً مع عواء الرياح، في مقطوعة صارت خلفية لمشاهد تطل من عتمة الذاكرة، وقطرات ساخنة تتساقط في مكان خفي في دواخلي. وصوت الدكتور ويلسون يأتيني محرضاً على الرحيل:

«لا تستسلم لهذا الإحساس. إنه إحساس زائف وخطير. خطورته في أن يسيطر عليك الحنين للمعتقل. وكأنك ترفع الراية البيضاء أمام خصمك السجن، الذي اكتشفت أنك تحمله معك. عليك أن تهزمه يا خالد»

نقرات يد جندي كان يغطي وجهه برداء صوفي اتقاء للبرد، والعاصفة الرملية، على زجاج السيارة أيقظتني من استغراق موحش، لطالما استغربته:

- هل تريد شيئاً، هذه منطقة عسكرية لا يسمح لك بالاقتراب منها؟

لم يكن من السهل أن أقول له أنني جئت إلى هذا المكان على جناحيّ حنين عجيب، شدني للمعتقل. لكنني رحت أتذرع بالتيه:

- لا. كل ما هناك أنني تهت، لأجدني هنا، فتوقفت لأستريح منتظراً تراجع العاصفة فأعود للدرب الصحيحة.

قبل أن أغلق نافذة السيارة اتقاء لرمال بدأت تتدفق للداخل، وأتهيأ للانطلاق، سألت الجندي:

- أما من أحد في هذا المعتقل. فأنا لا أرى حرّاساً ينتشرون حوله؟

- لا. تحول هذا المعتقل إلى مخفر، في هذه الصحراء التي تخلو حتى من المتخاصمين.

شكرته بعد أن دلني على طريق العودة، ثم انطلقت وأنا أقاسي مشاعرَ غرائبية.

* * *

من مرآة السيارة كان المعتقل يتلاشى في جنون العاصفة شيئاً، فشيئاً. وأنا أسلك الطريق التي كان علي أن أبدد عبرها ثلاث ساعات من مسير متواصل لأصل القرية، كنت أعي جيداً أنني لم أكن يوماً بحاجة لسعاد، كما كنت أحتاجها في ذلك اليوم الذي استشاطت به الرمال تصفع كل شيء، فتخلق شعوراً مليئاً بالوحشة. كنت أتبين وجهها عبر عواصف حزن تجتاحني، كوجه طفل يلعب (الاستغماية). يطل مرة، ويغيب مرات خلال طريق بدت كيدٍ تسحب حبلاً طويلاً لا ينتهي من جوفي.

كنت أحتاجها، كحاجة يدٍ في طقسٍ باردٍ لجيبٍ تخلد فيه . فلم تكن في حياتي مجرد امرأة تمرّ مروراً عابراً، أبقى بعده أقتات على ذكريات بدت قصيرة الأجل منذ البدء. بل أغلقتُ عليها جفنيّ القلب كحياة أبدية، لا يمكنني التنازل عنها بسهولة كما يفعل الرجل الشرقي حين تدير امرأة ظهر قلبها له، مقابل حبه الجارف.

❊ ❊ ❊

ما إن وصلت البيت عائداً من مرمى حنين سادي للمعتقل، حتى وقفت تحت صنبور الماء في الحمام، لا لأغتسل من تراكم الرمال التي تسللت إلى كل أنحاء جسدي، بل لأتخلص من ذلك الألم الخاطف الذي كان يزداد صحواً بي كلما توغلت فيما حدث بيننا.

خرجت من الحمام لأرى جدتي تتجاوز باب المطبخ، تتوكأ بيمينها على عصاها، وتحمل بيسراها صينية، استقر عليها إبريق شاي، وكأسان. قالت بصوت متعب:

- تعال يا خويلد اشرب شاي.

أخذت الصينية من يدها، ودخلنا غرفة المعيشة. أرخت عصاها واستعانت بيديها وراحت على مهل تهبط فوق فرشة صوفية، إلى أن جلست متعبة في مكانها وهي تهلل، وتبسمل.

جلست قريباً منها ثم سكبت الشاي ورحت أنفخ فيه، ثم أشربه. التفت إليها، فغادرت شرودها بي وقالت:

- وين كنت اليوم؟

- رحت أزور صاحب.

من كيس بجانبها تناولت غليونها الذي تمتد من حجره عصا دفلى طويلة، وراحت تملأه بتبغ (الهيشي) :

- ما ظني انك كنت عند صاحب يا خويلد. إنت مالك خوي غير رداد.

بولاعتها التي تعمل بالكاز، أشعلت النار بالتبغ، ثم أخذت نفساً عميقاً، وتبعته بآخر فارتخت:

- انت رحت عسجنك يا خويلد؟

- وكيف عرفتِ؟

بمسمار مثبت بحجر الغليون عبر سلسلة معدنية قصيرة، نكشت التبغ وأشعلته مرة أخرى:

- سمعتك تسولف مبارح وانت نايم، مرة تنادي على سعاد، ومرة تنادي على خوياك بالسجن.

ارتشفت من كأس الشاي، ثم وضعت يدها على رأسي:

- يا جديدتي أنا دايمن أسمعك وانت نايم تقول منهو اللي اتهمني هالتهمة وراحن عشرين سنه من عمري. يا خويلد لازم تنسى. في شغلات بحياتنا لزوم ماندري بيها. موتها أحسن يا جديدتي.

بقيت جدتي تتحدث إلي دون أن أنطق بكلمة واحدة، إلى أن قررت الذهاب إلى غرفتي:

- أنا رايح أنام. تصبحي على خير يا جدة.

* * *

في السرير لذت بعزلتي، وأنا أحدق بسقف الغرفة، محتاراً بحكايتي مع سعاد كأنها كانت حلماً طويلاً تلاشى مرة واحدة، كما تتلاشى قطعة شوكلاته في فم بقي يتتبع إيقاع السكرّ الذي راح طعمه يرحل شيئاً فشيئاً إلى أن حل الفراغ.

كأن غيابها المفاجئ سرّ استعصى على قلبي فهمه دونما تلك المفاتيح، أو الإشارات التي ترميها الحياة عادة في طريقنا، لنوغل بالأسئلة وهي تفضي إلى إجابات، مثلما تمنح الواحد منا ذلك السلام الداخلي الذي ننشده دوماً، تمنحه وجعاً ليس لأي مبضع قدرة على استئصاله. فنحن حينما نحبّ نبثُّ الحياة في كل الأشياء؛ لتنهض مرة واحدة من كسلها، فحقيقة الأشياء، هي التي تُرى بعينيّ العاشق المطلق. إذ أن هنالك فارق بين المطر في الغياب، وبينه في الحضور.

ما إن غابت دونها أي مبرر، أو عبارة تودع بها كل ذلك الكم الهائل من الذكريات العالقة كصوف برمش العين؛ حتى بت أسيرَ شكلٍ جديدٍ من أشكال السجن. فوقعتُ صريعاً لمكابدات حنين غريبٍ يأخذني نحو معتقل أمضيت فيه نصف عمري، تماماً كما يمضي سكين مهترئ بجسد فتي. حنين بقي يستبيحني بعد ليلة أنفقت فيها ساعات كثيرة في محاولات يائسة لسماع صوتها عبر الهاتف. لكنني لم أحظ سوى بصوت إلكتروني يخبرني أن الرقم المطلوب لا يمكن الاتصال به.

* * *

من بين شقيّ ستارة النافذة، سقط خيط الضوء في بؤبؤ عيني وأنا ما أزال في سرير النوم، فدب بي أول الصحو. تذكرت وقوفي أمام المعتقل يوم أمس، كنعجة حزت رقبتها ثم عادت بعد زمن تقف أمام قصابها. حاولت أن أتناسى، فرحت استشعر رعشة لذيذة تدغدغ بدني، اكتشفت إثرها أنني تركت ورائي مناماً، فائضاً بالحياة. بعد رشقة الصحو الخفيفة تلك، أخذت أتتبع بقايا المنام الذي فاض من الذاكرة، واندلق على جبين السرير.

ليلة البارحة!

ليلة البارحة تلك، لم تختلف عن كل الليالي التي توالت منذ أن عدت للبيت قبل سنين، مخلفاً ورائي زمن المعتقل، وحاملاً معي زمن سجن آخر، جذوره هناك في معتقل صحراوي تزعق الرياح حول بدنه الأصفر الذي إن منح أول عطاياه؛ إنما يمنح الرائي وحشة تثير بكاء مريراً، يتصاعد من مكان خفي في أغوار النفس.

كنت معتقلاً!

لم تختلف ليلة البارحة عن سابقاتها، حتى بعد أن استفحلت بي سطوة الحنين الغريبة.

هل يمكن لسجين أن يحن لسجنه؟

ليلة البارحة استلقيت على السرير أراقب سقف الغرفة بعينين لا ترمشان. ودونما حركة، إلا حركة يدي وهي تدفن جثث السجائر، واحدة تلو الأخرى في تراب المنفضة. مستلق كأي شيء مهمل. وثمة صوت يتساءل في دواخلي، تلك التي باتت تشبه كهفاً فعلت به ألسنة النار سواداً لا يغّير فقط لون الحجارة بنتوءاتها الهندسية العشوائية التي ارتهنت لصدفة الطبيعة، بل يشوّه معنى الدفء الذي يمكن حتى للكهوف الباردة أيضاً أن تحفل به.

يتساءل ذلك الصوت وبحّة حزينة تركب ذبذباته اللحوحة:

«كيف حدث ما حدث؟ ما الذي كنت أفعله قبل تلك الليلة التي لُفقت لي فيها تهمة لا يمكن تجاوز تطرف وجعها؟ هل كانت هنالك أمارات، كان عليّ أن أتفحصها جيداً فيمكنني أن أتوجس من شيء قادم كالذي حدث لي. إن وجع عشرين عاماً أكلها غول المعتقل من عمري، يبدو أخف وطأة مما اكتشفته في زمن ما عاد بإمكاني فيه أن أتراجع ولو خطوة واحدة إلى الوراء. تلك العذابات سببها حبي لتلك المرأة .. سعاد. حبها الذي أعطاني أيضاً بعدل فريد لذاذات، لا تساوي شيئاً أمام هول مفاجأة جعلتني في تلك الليلة التي كشفتُ فيها سرّها، أبقى كنصب حجري تصفعه البروق، والرعود والمطر، وهو لا يعي أنه بات في غيبوبة أبدية.»

مستلق أحدق بالسقف، حيث تتدلى أزمنة، تتماهى، وتتنافر. زمن المعتقل الصحراوي يتقاطع بسجن عزلتي الجديدة. زمن الحلم في زمن النزق قبل المعتقل ونحن نعتقد بأن بياناً، أو منشوراً، أو قصيدة يمكنها أن تغير شكل العالم، ليصبح أكثر هدوءاً مما هو عليه. زمن الحلم ذاك، يتداخل بزمن حلمي بسعاد. فيتماهى الزمنان؛ فأنهض إزاء حلم بوطن حبيبة، وبحبيبة وطن. إذ لا تختلف الخيبة في الحب، عن الخيبة في الوطن؛ كلاهما وطن وأنت وحدك الشريد بعد خسارة أي منهما.

ليلة البارحة!

لم تختلف ليلة البارحة عما قبلها، لكنني كما أنام في كل ليلة نمت، ربما أغمى عليّ، فبانت سعاد لي في منامي، بسطوة يتعطل كل شيء أمامها إلا من دهشة توردت على فم القلب، هذا الكائن الحالم الذي يأكل المسافة الواقعة ما بين الحلم والمقصلة بمقص شغفه بالحياة.

* * *

خارج البيت، انتشر الضوء أكثر، يسقي عطش الكائنات للحياة، ثم تدفق عبر النافذة وأنا ما أزال مستلقياً في السرير. إنه الصباح، وطعم المنام اللذيذ الساطع في دمي، ذلك الكون الذي يشهق بعمق، وأنامل روحي تتسلق وجهها الذي رغم كل ذلك الغياب ينير عتمتي بالمسرات.

وكأن خصلات شعرها متناثرة على خد الوسادة، كنت أمرر يدي على وجهها الناعم. الوسادة تلك السحابة التي شهدت في الليلة المعهودة، حين التقينا فيها على أرض الشغف للمرة الأولى،

كثيراً من كلام رمى عن كاهليه كل كائنات التلعثم، وانساب كنهر في سهل كانت الطبيعة فيه هادئة يوم تشكلت النهنهات الأولى للجغرافيا.

الليلة التي منذ أن التقينا فيها في عَمان، وضعت في سريري بعد رحيلها، وسادة أخرى كي تؤنس قلبي الذي منذ أن عرفها رتب شؤون الأجنحة عند شهوته العميقة بالتحليق.

فارق كبير بين صباح كذلك الصباح الذي صحوت فيه على صوتها وهي تقول (صباح الخير حبيبي) ، وصباح يأتي بعد الإيقاع المؤلم لكوابيس راحت تهاجمني وأنا أترك ورائي المعتقل وأعيش في غرفتي التي أصبحت سجني الثاني . كأن يداً شجّت رأسي في ذلك الوقت ودلقت تلك الكوابيس به ثم خاطته واختفت وكأن شيئاً لم يحدث.

إذن رأيت سعاد في المنام كأنها حقيقة. تمطيت في سريري وأنا ما زلت أكابد طعم قبلتها المحمومة في المنام ، وأغالب صدى اختلاط الرضاب بالرضاب. ذلك الصدى لكيمياء الجسد حين يداهمه حب كحبها الذي رتبّ فوضاي، وبعثر ترتيبي. قبلة صنعتها بهجة كونية في حالة عناق بين ذكورة، وأنوثة تحلم بأن تنتصر على العطش، في زمن يمنحك الجفاف دون أن تعي فداحة ما يحدث. وأنا أضع شفتي على شفتيها، ثمة سحاب فاجأ العينين. فخلدت الأصوات لحظتها للصمت. إلا صدى أنفاسٍ تتصاعد من صدرينا راحت تعلو وتهبط معاندة رغبة الارتواء. تلاشت المسافات أمام حرارة أنفاس تجيء من أماكن قصية في جسدينا . يدها اليسرى تغور

في شعري، واليمنى تلتف حول ظهري وقد احتضنت شفتاي شفتها السفلى. كانت أناملي تعزف لحناً غمامياً قرب أذنها، ويدي اليمني تلتف حول خصرها الذي اختصر رشاقة الكون في صباح يوم ربيعي يقظ. ونحن نتنفس هواء واحداً مجراه شفتان تطبقان على بعضهما بكل حميمية. كان الكون ونحن نغمض أعيننا، يسرح طيوره، وموسيقاه، وماءه، وسحابه، واخضرار أشجاره في مدى فسيح أكثر من ذي قبل.

* * *

استدرت في سريري وأنا ما أزال تحت سطوة بقايا المنام، وتكورت على نفسي لتصبح النافذة قبالتي، ونسمة هواء خفيفة تهز بدن الستارة. ثمة مداعبة كانت تحدث على مهل تفضي إلى عناق حميم بين الستارة والهواء. تسلل طعم المنام إلى دمي أكثر، لأرى سعاد وقد استعادتها ذاكرتي، تطرد بنعومة كانت تفيض بها، خشونة عمر بأكمله. نتعانق عاريين إلا من تقاليد البهجة عند نافذة كانت ترحب بهواء طريّ كخدّ لهفتها، وهي تنداح خدراً لذيذاً ينهر عصافير غافية في أعشاشها التي تلوذ بكهوف نفوسنا الجوانية.

استدرت إلى الجهة اليمنى قبالة باب الغرفة المغلق بمفتاح يلج فتحة القفل بهوادة، ولا يرغب بأن يفارق مكانه. وكأن الباب أنثى شجرة تحتفي بأصولها الشجرية من قبيلة الأدغال المترعة بالنشوة، والشبق لأصل الأنسان الذي ما زال يخجل من وهج اللذة.

وكأن المفتاح إحالة إلى ذكورة شبقة تشتهي أن تبوح دون توقف بحضرة عالم، دون سقوف تكتم نفس الانعتاق، تسللت إليّ

بقايا المنام، واستقرت في كف تلك الحالة الصباحية التي تقع ما بين صحو خفيف، وبين بقايا الإغفاءة:

«ثمة مسجلة تفر من جسدها نقرات البيانو، يرافقها اهتزاز جسدينا وجها لوجه مع نسمة هواء كانت تعمّد مساماتنا بما لم يقله الماء وقت هطل المطر. اهتزاز موسيقي ألفته الطبيعة، وعزفه القلب على مرأى من رغبة كورها حبّ لا يحدث دائماً كما تشتهي المخيلات صانعة الحياة. إنه الالتحام الذي يغادر فيه الجسد صفته المادية، وينتصر للروح التي ما إن تتحقق الرعشة وينتفض الجسدان، حتى تعلن لحظة اللقيا الحقيقية وموسيقى الوصال. كل ما يحدث في السرير من تأوهات وملامسات واحتكاكات واستخدمات لكل امكانات الجسد ما هو إلا مقدمات للوصول إلى تلك النقطة التي تتلاشى فيها الجاذبية حتى يتسنى لكل واحد أن يدرك ما معنى أن تسكن روح روحاً أخرى» .

* * *

نهضت أمشي متثاقلاً بعد أن رأيت تفاصيل المنام تهرب من النافذة تماماً كخيط دخان أغرته الريح فغادر دونما تلويحة وداع. لأرى غيمة سهو خفيفة تجتاحني فأتساءل كيف أشرعتُ نوافذ القلب أمام رياح حبها. وهل كان علي أن أصمت إزاء برق أضاء سواحل روحي المعتمة، يوم ولدت الكلمات الأولى بيننا. ربما كان علي أن أتمثل مقولة «برناردشو» وهو يردد أن «الحب يستأذن المرأة في أن يدخل قلبها، وأما الرجل فإنه يقتحم قلبه دون استئذان، وهذه هي مصيبتنا.»

لكن مصيبتي في أن الذي اقتحم قلبي حدث يصعب تصديقه.

في المرآة التي تنزلق على الجدار كحياة ساكنة تضمر ضجيجاً أخرس، كنت مليئاً بصمت يشبه صمت ثلج صيّرته الريح جليداً في ليال موحشة. تراءت لي قضبان صدئة تنزلق على مرأى من وجهي في المرآة، ورياح صحرواية نائحة لا تتوقف وهي تشج رأس ذلك الصمت. عواء ذئب يكاد يضج من وجه الزجاج وهو يصرخ بالوحشة. سنين السجن تسيل على زجاج المرآة كبخار الماء الذي ما إن نزل منبعثاً من الصبنور؛ حتى تكاثف على الزجاج، فأخذت أمسحه بيديّ لعلي أرى صورة غير التي أراها كل صباح. لكنها الصورة ذاتها إلى جانب صورة «رداد» وهو يوشوشني، دون أن يكمل ما قال، من وراء قضبان المعتقل يوم جاءني زائراً:

- هنالك من لفق لك التهمة يا خالد، فصرت مجرماً سياسياً ينوي الخراب للبلاد في مخيلات الكثيرين.

حينها رحت أنادي من وراء القضبان ورداد يغيب بين الزوار، بعد أن انتهى وقت الزيارة:

- من يا رداد؟ من وراء تلك التهمة؟

* * *

أمشي بخطوات مريضة بالكسل، وسؤال كتكات الساعة يهاجمني مثلما تهاجمني القضبان في المرآة، وفي السرير، (لماذا كل هذه التهمة؟) وأنا الذي لم تغضب مني حتى الحشرات التي كانت تهاجم فراشي في غرفة رطبة أمضيت فيها أربعة أعوام في عمان قبل الاعتقال، قادم من قرية يصير ترابها، وسماؤها بيتاً لي إن شئت. وقلوب ساكنيها المترعة بالطيبة صدراً حنوناً يبدد قامات التعب. لماذا هذه المكيدة ؟ وأنا الذي حملت الحلم على كاهل القلب حتى بات كطريدة مثخنة بالجراح تترنح وهي تفر من مدى رصاص الصيادين؟

وكأني غريب عن نفسي، رحت أتحسس شيباً استوطن رأسي على غير موعد، وأنا ألوح في المرآة، التي ما إن نهضتُ من سريري حتى بدوت لنفسي عبرها، وقد كبرت مائة عام إضافية في ذلك الصباح. ليغدو سؤال العمر في هكذا مرحلة، طافت الخسارات بها على سطح لهاثنا اليومي نحو الحياة، بلا زوجة وأولاد، ولا بيت تحتسي فيه كأس سكينتك؛ سؤال يشبه خنجراً يغرس نفسه في الخاصرة مع كل تكة من تكات عقارب الساعة.

ثمة أشياء في هذا العالم تعنينا أكثر من غيرها، خصوصاً في اللحظات التي نراها تخصنا وحدنا. أشياء تخطر بالبال مع أول انفراجة لجفني العينين، وأنت تترك نومك وراءك في طيات السرير، كأن يكون لديك حبيبة تمسك بيدها فيولد ذلك الألق وهو يتبختر في جسدك، حينها تطبع قبلة على خدها وهي تقدم لك فنجان قهوة تثير فيك رائحتها معنى من معاني الصباح، وأنت ما تزال تتمطى في السرير، تجتر بقايا تأوهات كانت تحدث بينكما ليلة البارحة حين

يصير الجسدان قصيدة تتماهى مفرداتها بعضها ببعض. كل ذلك يحدث لك ومن ثم تفكر في شكل النهار كيف سيكون.

جاءت أصوات طلبة المدارس متقطعة من عمق شارع حاذى بيتنا الذي مرّ عليه زمن حافل بالحركة والأصوات، وهم يطلقون عبارات غزلية حارقة، صاغتها خيالاتهم الليلية، وهي ترسم صوراً شتى للفتيات اللواتي يتغاوين بارتعاشة نهودهن، في ذلك العمر كحبات تفاح نضجت للتو على أمومة الأشجار. وحيث يتغاوى الشبان بارتسامٍ أول لعضلاتهم، وبحة الصوت، وشعر ذقن نما للتو مبشراً بعمر سيكون عليهم الكثير، ليبقى متوازناً إزاء صهد دفقات اللذة التي ستذرع أجسادهم، إلى أن يلوذوا بابتكارات تداوي قلقاً جسديّاً سيبقى متهماً بتحيزه لمعنى اللذة وما وراءها.

تلاشى ضجيج الطلبة شيئاً فشيئاً، فاستحال البيت إلى هالة من صمت لم يكن طاغياً كما كان يحدث في ذلك الصباح لبيت حفل بالحياة ذات زمن يبهج القلب. لا شيء سوى هسيس موجودات البيت، وصمتي الذي يشبه حلكة كهف عميق، لا يملؤه سوى الإحساس بالظلمة، إحدى هدايا سنين تلاشت في المعتقل، وصمت جدتي التي ما عادت صحتها تسعفها على سرد حكايات يتداخل فيها الخيال بالواقع، عبر تقنيات سرد فطرية تجعل أي مستمع لها يعيش الحكاية كفيلمٍ سينمائي، لفرط قدرتها العجيبة على تصوير الواقع.

ثمة أصوات أتت من طرف القرية لباعة متجولين، يبيعون بضاعة لا رواج لها في المدينة، وأصوات لتجار «الخردوات». لاحقني طيف كابوس لم أحاول أن أتذكر من ملامحه شيئاً. فقد تعبت من فرط احتلال الكوابيس لي في تلك الأعوام التي أمضيتها

في المعتقل، وصولاً إلى السنين التي تلت خروجي منه، وأنا أعيش عزلة اختيارية مؤلمة. كوابيس كان الدكتور ويلسون يرى أنها حدث طبيعي رغم بشاعتها. حدث يشي بأن القضبان وهي توغل في صدئها، لم تنتصر عليّ كما كانت تتمنى.

في المطبخ بينما كانت غلاية القهوة تمنح اللحظة عبقاً صباحياً يشيع شيئاً من الاسترخاء. أدرت مفتاح المذياع، واجتاح صوت فيروز المكان، فبدت الأشياء مألوفة أكثر. فالموسيقى تجعلنا نألف الأشياء، ونرى ما وراءها من عوالم حرِية بمراقبتها. إنها عادة الإستماع للراديو التي حملتها معي من زمن معتقلٍ رأيته طيفَ عجوزٍ تائهٍ في صحراء بلا جهات. وكان عليّ أن أراه كطيف وحش يلتهم كل من يقترب منه. لكن الذي حدث عكس ذلك تماماً. ربما هي تلك الألفة التي تحدث للواحد منا حيال أمكنة رغم كرهنا لها، إلا أننا نحس بشيء من حنين قسري نحوها. بل أحياناً ربما نذرف بضع دمعات تنبع من جهة الرحيل الذي يبدو قاسياً على النفس. هذا ما حدث لي وأنا انظر من نافذة العربة العسكرية وهي تركض بي نحو العاصمة، لأركض معها بطيف جديد لسجن تحسست وجوده والعربة تعب هواء المسافة نحو زمن مختلف.

عندما أخبرت الدكتور ويلسون الذي أحب عمّان وأقام بها هارباً على حدّ قوله من برد داخلي، عما أحس به، راح يبتسم وعيناه الزرقاوان تتسعان بفعل ابتسامته العريضة:

– ثمة أشياء تنهار في الغياب، تفقدنا الثقة بالبيئة التي غبنا عنها طويلاً.

* * *

وأنا أمرّ للمرة الثانية بقرب مرآة تتكىء إلى الجدار، تفرّست بوجهي، من وراء ضباب يخلفه النوم غير المريح للبصر. ثمة تجاعيد نمت في الجبين، وأخرى تحت العينين. وشعر أبيض ضج من منتصف ذقني، كأمارةٍ لمنتصف العمر، ولمؤشرٍ بات يعود للوراء. إنه الإحساس بالذهاب نحو الموت، وبياضه الأبدي.

يا إلهي لم أكن أحس بكل تلك الأشياء، وسعاد معي!

«كأن الحب عقارٌ لا يعالج تجاعيد الوجه فقط، بل يذيب تجاعيد الروح أيضاً!»

ما إن عبرت الممر الذي يفضي إلى الساحة الخارجية للبيت والتي تنتصب فيها شجرة سرو ضخمة، ودالية عنب، وشجرة فلفل بقطوفها الحمراء الجذّابة، وأشجار زيتون معمرة، وأشجار لوز، ورمان إضافة إلى حظيرة ماعز، وقن دجاج، وحمام، حتى تناهى إلى مسامعي صوت جدتي وهي تجلس عند حفرة نار وُضعت عليها دلال القهوة، وإبريق شاي، ووعاء حليب الماعز. كانت تغني أغنية تتعربش بأطرافها اللوعة، والحنين لزمن غير هذا الزمن الذي ما عاد يقنعها، وهو يتبدل سريعاً غير مستقر على حال واحدة. حين رأتني توقفت، وسكبت لي كأساً من حليب الماعز الممزوج بالشاي المطعم بالزعتر البري، وهي تستزيد من تحيات الصباح وتهليلاتها الكثار.

- كيف أصبحت اليوم يا وليدي؟

- الحمد لله يا جدة.

رأتني ألوذ بصمتي منذ خرجت من معتقل اختطف عشرين عاماً من عمري دون وجه حق. سنين هيأت تربة الروح لنباتات

ضارة، بحاجة لمبيد يمتلك قدرة فائقة على قتلها فلا تعود. إذ وجدتُني بعدها أعود لبيت كان يضج بحياة هزمها صمت خلفه غياب ساكنيه.

قالت وهي تضغط الجمرة الصغيرة على تبغ الهيشي الذي حشرته في حجر الغليون، وتسحب منه نفساً فيجيء دخان التبغ غزيراً:

- وين صاحبك رداد. صارلو وكت ما جاك.

قلت بعد أن أشعلت سيجارة ثم نفثت دخانها في الهواء، ومسحت ببصري الجبال الغربية للقرية التي انتشرت فيها بنايات الحجر، وارتفعت بها أعمدة إعلانات لمحال تجارية بماركات عالمية:

- مسافر.

اقتربت مني قليلاً، وهي تزحف ببطء دون أن تنهض، ثم همست لي بما يشبه التوسل:

- يا جديدتي خليني اشوفلك بنية ثانية. بلكي ترجع خالد، خالد اللي ظحكتو كان أهل القرية يسمعوها يومنك تظحك.

بقيت جدتي إلى أن ماتت لا ترى في القرية غير قرية تعيش في ذاكرتها، وكأنها لا تلاحظ ما طرأ عليها من تبدلات، وعلى أناسها من تحولات. لا تقبل بتحول صورة القرية من زمن البداوة في حله وترحاله إلى مجتمع فيه يزرع الناس، ويحصدون، ويذهب أولادهم إلى المدارس، صارت شيئاً آخر. فكيف لها أن تقتنع بحياة جديدة باتت إلكترونية أكثر من اللازم.

قلت متعجباً، وأنا أراقب وجهها الذي لم تغير السنين ابتسامة الطفولة فيه:

- بنية؟ كمان مرة ثانية يا جدة؟ ما يكفي البنية اللي خطبتها وأنا طالب بالجامعة، وبعد شهور لقيتها بحظن صاحبي؟ وبعدين يا جدة، أنا جربت حظي بالقرية وما نفع. ولا نسيتي يا جدة !

التقطت من حفرة النار جمرة ووضعتها في حجر الغليون، فأخذت نفساً عميقاً من التبغ، ورمت ببصرها نحو التلال التي تترامى حول القرية، غير فاقدة ذلك البريق من أمل من شأنه أن يبدد عزلتي التي ترى أن أنجح وسائل مكافحتها بالزواج.

وبعد محاولات حثيثة منها رضخت ذات يوم لتوسلاتها بعد خروجي من المعتقل، ووافقت كحلّ للخروج مما أنا فيه بأن أتزوج، فاختارت لي بنتاً من القرية أنهت دراستها الجامعية في عمان، جلست معها دقائق معدودة. وبعد أيام أخبرني أحدهم من طرف أهلها بأنهم تراجعوا عن رغبتهم في تزويجي ابنتهم لأن قريباً لهم أمضى زمناً في أفغانستان يقاتل السوفييت نصحهم بأن لا يوافقوا.

قلت له متسائلاً لمجرد الفضول:

- ليش؟

- بيقولوا إنك حزبي. وإن الحزبيين يشربون الخمر، وينامون مع النسوان كأنهن زوجاتهم. بيقولوا أن الحزبيين كمان يمكن يناموا مع محارمهم.

- آه...وانت شو رايك؟

- ها؟

أخذ دون أن يجيب، يراقب ملامح وجهي بشيء من الفضول المتقاطع بشيء من الشفقة:

- بعدك حزبي ولا بطلت؟

- ما في فرق.

شيء ما أعاد عليّ طرح السؤال نفسه، بعدما غاب الرجل وراء جدار البيت في طريقه إلى الطرف الآخر من القرية:

- بعدك حزبي؟

شيء آخر من داخلي نطق بالإجابة:

- لا.

* * *

بدت القرية، إلى جانب سمائها الموشاة بقليل من غيوم الشتاء المتناقصة في ذلك الصباح، ملفعة بصمت، لم تطله الوحشة بهذا الشكل في أيامها العامرة بأصوات تأتي من الحقول، والبيادر، والمراعي، والبيوت، والطرقات صيفاً، وشتاء. صمت معدني يلفها رغم ملامح الحداثة التي طرأت عليها، وكأن مسامعي لم تألف تلك الأصوات الجديدة، فلم أكد أسمعها البتة، مسامعي التي هي جزء من تكويني الذي بقي لزمن غير مستوعب لما يحدث:

أغنيات فارغة، لحى، وجلابيب قصيرة كأنك تعيش زمناً غير هذا الزمن. نساء يمشين في الشارع يقلدن مشية عارضات الأزياء. رجال يعيشون حالة جوع جنسي متوحش. نساء سافرات، نساء بوجوه مغطاة بالأسود. سيارات تطلق كوابحها صريراً حاداً لاستعراضات في الطرقات. أمزجة متوترة ما أن يولد خلاف بسيط؛ حتى تنشب معركة ضارية تسيل فها الدماء، وتنوح النائحات. حمى اقتناء كل ما تنتجه الدول الصناعية من آخر صرعات الهواتف، والحواسيب النقالة، وأجهزة استقبال المحطات الفضائية. ألوان جديدة. موضات ملابس جديدة. ولكنات جديدة.

أشعلت سيجارة وجلست متكئاً على الجدار. كانت شجرة الفلفل تضرب جذورها في التراب كأنها كهل صلب يقاوم الريح. الشجرة التي تراءت لي الأرجوحة فيها تهتز أماماً ووراء. أرجوحة شهدت طفولة ما يزال قلبها ينبض في صدر الذكريات ولا يتوقف.

كانت جدتي تتجه إلى قن الدجاج، تنثر حبات الشعير، تتمتم والشمس تعلو في المدى، ترسل أشعتها بخجل. لم يكن ذلك الصباح الشتائي نهاراً لعطلة نهاية الأسبوع، لكنني لم أذهب للعمل. كنت قد هاتفت مديري، وتعذرت لغيابي. راح مديري يبدي تعاطفاً معي في الأيام الأخيرة لفرط ما رأى من هواجس غمامة سوداء تنزّ من روحي القلقة.

في أيام العطلة من العمل، وبعد انتهاء أي يوم في عملي الذي تدبره لي صديقي «رداد» بعد زمن المعتقل؛ ليس هناك أي شيء يمكنني أن أفعله، وسط عزلة منحها لي زمن المعتقل ذاته، سوى

الكتابة ومراسلة الصحف عبر البريد الإلكتروني وذلك (الفيس بوك) الذي منحني «رداد» عبره فرصة أن ألوذ بعالم افتراضي كعالم مثل هذا، يجعلني أبدد كثيراً من الوقت، ويمنحني فرصة لنشر قصائدي وكتاباتي القديمة، والجديدة، وقول ما أريد، إلى جانب إمكانية أن أصادق من شئت بكبسة زر، أنهي الصداقة بكبسة أخرى. هذا العالم الذي صار بديلاً لي، عن عالم لم أستطع أن أعيش فيه، على عكس ما كانت تتمنى جدتي، بعد أن استنفذت كل وسائلها وهي تزيل الغبار عن روحي المعتمة. عالم أهداه لي رداد بنيّة مبيّتة، فأهدى لي معه وجهاً آخر لطالما تمنيت لو أن الصورة اكتملت فيه، يوم صف القدر مزقها، حينها افتقدت قدرتي على قتل الذكريات برصاصة النسيان.

تذكرت في تلك اللحظة يوم حللت على القرية بعد زمن من الغياب معتقلاً. حينها بدأ الناس يتهافتون على زيارتي في «البيت الكبير»، الذي ما تبقى من حجمه إلا اسم اعتاد الناس عليه. على رأس التلة، شيّده جدي حين فكر أن الحل والترحال وراء الكلأ والماء، لا يجدي نفعاً بما أن هناك بلاد تمنحك شجراً، وبيوتاً تستريح بها من عناء الرحيل وعذاباته. كان بيت جدي أول من ينقل عدوى الاستقرار لباقي العشيرة، والتخلي عن مكابدات الترحال، التي لا يتخلى عنها البدوي بسهولة.

امتلأت المضافة بعدد كبير من الرجال، والشبان، الذين كان جلهم ينظر إلي باستغراب. وبين الفينة والأخرى كانوا يسألون بخجل تارة، وبخوف تارة أخرى عن سنين المعتقل التي أمضيتها. وكلمات تأتي من هنا وهناك :

- بيقولوا انو كان بدو يقلب نظام الحكم.

ثم يقول آخر:

- لا يا عمي ما في من هالحكي بس الحزب تبعو كان قبل الديمقراطية ممنوع.

أتى صوت آخر تخلله شيء من التوتر:

- يا ناس أصلاً ما كان حدا بهذيك الأيام مسموحلو يشتغل بالسياسة، غير الإسلاميين اللي كانت الحكومة غاضة الطرف عنهم. والآن قاموا عليها.

من زاوية المضافة جاء صوت ضاحك:

- تزرع عود تشلعو. تزرع بني آدم يشلعك.

نغمات مختلفة لهواتف نقالة كانت تخالط الأحاديث التي كانت تجري في المضافة. الهواتف التي كان يمكن للتفكير بشأنها أن يكون ضرباً من الجنون، أو الهرطقة حين الحديث عن إمكانية ابتكارها قبل عشرين عاماً. ثمة أحاديث عابرة عن قنوات فضائية تبث برامج تتاجر بعواطف البشر. وأنا أمسح المكان بنظرة واسعة، تيقنت من أن الوجوه ليست كالوجوه التي غبت عنها في رحم صحراء قادرة على التهام أي شيء.

بعد لحظات تحولت دفة الحديث باتجاه انتخابات أجمعت العشيرة قبل موعدها على أن تقوم بترشيح الدكتور عناد، حيث تنادت وهي تشهر بنادقها، وعدد أفرادها انتصاراً له.

من باب المضافة دخل كهل بخطوات بطيئة، ألقى السلام، ووقف لبرهة أمام صورة والدي بزيه العسكري، ثم عانقني بحرارة وجلس قربي. عرفت فيما بعد أنه «محمود النشمي» أحد أصدقاء والدي أيام كانوا في الجيش. في غيابي سكن القرية قادماً من شمال البلاد. محمود النشمي هذا الاسم الذي أطلقه عليه رفاقه العسكر لبسالته في الحروب، التي خاضها مع الاسرائيلين. بدا غير معني بالحديث الذي كان يدور، فنظر إلى وجهي مبتسماً تلك الابتسامة التي تشي بكثير من الحزن:

- الدنيا خربانة يا وليدي.

أشعلت له سيجارة ورحت أتجاذب معه أطراف الحديث. عبَّ نفساً عميقاً ثم تنهد ، قائلاً:

- لو ظلينا بدو كل يوم ببلاد أحسن إلنا يا وليدي. اليوم سعر البني آدم صار بالمصاري. اليوم الأخو ما يطل على أخوه. راحن البيادر، وموارس القمح، والخير راح. النسوان بطلن يخبزن. وكل شي صرنا نشتريه من السوق. والسوق يوم طالع ويوم نازل. وبطلنا نعرف مين الصادق ومين الكذاب. يا وليدي صار الواحد يحس حاله حاجة تنشرا وتنباع.

كانت المضافة ممتلئة بأحاديث كضجيج ينقر أذن أصم. أخذت أراقبهم واحداً، واحداً وأنا أراهم أناساً غير اللذين تركتهم. بينما محمود النشمي يسرد لي أوجاعه الكثار.

في صباح ذلك اليوم وعندما وقفت في حوش الدار المطلّ على البستان الذي زرعه جدّي، رأيت القرية بوجهٍ شاحبٍ غير ذلك

الذي تركته قبل غيابي الطويل. كل شيء تغير سوى عقول أغلب من التقيت بهم. عندما توجهت إلى الداخل بفعل يد خفية كانت تدفعني، سمعت صوت جدتي تولول وهي تنادي عليّ تتجاوز بوابة «الحوش» تتعكز على عصا من شجر التين.

- محمود النشمي مات. جهز حالك علشان تروح تعزي وتوقف مع جماعته.

عبرت إلى الداخل مصاباً بحزن متوازن، ثم قلت لها بصوت خفيض:

- ماني رايح. الله يرحمه.

* * *

ناولتني فنجان قهوة ثم راحت تنادي وأنا شارد الذهن:

- خويلد، يا خويلد بأيش سرحان يا جديدتي صارلي زمان أنادي عليك؟

- ما في شي يا جدة.

اقتربت مني أكثر وهي تأخذ الفنجان من يدي:

- يا جديدتي كمان مره أقوللك. ما ودك تتجوز؟

- لا يا جدتي.

قلت ذلك، ثم نهضت عائداً إلى غرفتي التي ولدت بيني وبينها ألفة سببها العزلة. حينها بقي صوت جدتي ورائي يعلو شيئاً

فشيئاً وهي تغني إحدى أغنياتها الحزينة، التي عادة ما تنتهي ببكاء رآه البعض سبباً في تجاوزها المئة عام من عمرها.

❊ ❊ ❊

قبالة النافذة التي تشرف على «مادبا» وهي جاثمة ببنايات بدت كأطفال يلهون بتسلق المرتفعات العالية على ذلك الجبل، أرخيت بدني على كرسي هزاز عتيق كنت قد جلبته معي من عَمان قبل أن أعتقل. حركة خفيفة من قدميّ دفعت الكرسي إلى الوراء فراح يهتز بي وكأنه يحولني إلى عين تجوب مكنونات الذاكرة، فرُحت أتبختر بين مشاهدها كأبٍ يتبختر بين أطفاله النيام؛ حتى أقعيت على مرتفع بها وأغمضت عينيّ كمن يتأمل فيلماً طويلاً، أتذكر ما حدث قبل عام:

كان «رداد» صديقي الوحيد، والذي أقلع عن السياسة مع أول صفعة على وجهه من المحقق وقت الجامعة، وما عاد يحتفي بشيء سوى ولعه بالنساء، قد قرع باب البيت، ثم عبَره مبدداً بصوته العالي مزاج الصمت. همست له جدتي التي بقيت تضع يدها فوق حاجبيها سنيناً، وهي ترقب طريق عودتي كل يوم إلى أن عدت لها مهزوماً ومنكسراً كولد بقي يطارد شمساً غابت وراء التلال:

- قاعد جوّا، إنت عارف إنو من يوم ما طلع من المعتقل وهو ساجن حالو، يا ميمتي إنتا خَويّه القريب، شوفلك حل معاه.

كان رداد قد زارني بعد يومين من عودته من عمله كمهندس للطيران يرافق رحلة إلى فرنسا. كعادته راح يزمجر ويكيل السباب،

والكلمات النابية بأسلوب كوميدي ساخر، يستهدف تسطيح أي أزمة، وعادة ما ينجح أسلوبه هذا. ركن حقيبته جانباً، وخلع سترته، ثم ترك الغرفة وهو ينادي جدتي:

- وينك يا حجة. والله إني مشتهي كاسة شاي.

جاء صوت جدتي من الداخل، ممزوجاً بحماسة مردها حضور رداد الذي ظنتْ أن بإمكانه فعل شيء يمنحني بعضاً من البهجة:

- ابشر يا ميمتي، هالساع أساويلكو بريق شاي.

ارتمى في سريري الذي تناثرت على أطرافه مجموعة من كتبي القديمة، التي كنت قد قلبت عدداً قليلاً من صفحاتها ليلة البارحة. أشعل سيجارة ورمقني بنظرة تختلط فيها الشفقة بالغضب لما وصلت إليه:

- بعدين معك يا رجل! إنت ما بدك تطلع من حالتك هاي!! في الجامعة كنا دايماً نحكي إنو خالد (بقلب عربي وعقل أوروبي) يعني بيحب الحياة ويتفهمها رغم مصاعبها. يعني واحد منفتح على الثقافة الغربية مثلك، وصاحب قلب عربي طيب وصادق هيك يعمل بحاله!

- ما في شي أساويه غير الصمت يا رداد.

نهض من مكانه وأزاح ستارة النافذة، ثم قال وهو يحاول ابتكار ابتسامة على وجهه:

- تعال وانظر. لك مفاجأة.

راح يصرخ، بعد أن رآني متكاسلاً في مكاني. عندما اقتربت من النافذة همس بأذني:

- خالد. هذه السيارة التي تقف بباب البيت لك.

ترك النافذة متجهاً لحقيبته التي ركنها قرب الجدار، ثم فتحها وأخرج منها حاسوباً، وهاتفاً نقالين، وزجاجات عطر، وسجائر، وكتب.

قال وأنا ما أزال قرب النافذة أراقبه دون أن أفهم شيئاً:

- هذه الاشياء يمكنها أن تخرجك من عزلتك يا خالد. بما أنك ترفض الخروج من البيت.

مد يده في جيبه ثم أخرج منها ورقة وضعها على طاولة قرب السرير:

- هذه توصية لشركة معنية بهندسة الطائرات.ستُعيّن فيها براتب جيّد ان قررت العمل.

كانت كل تلك الأشياء مفاجأة لي، أثارت شكوكي، واستغرابي. لقد كانت هدايا ثمينة لم يكن بمقدوري أن أردها. بقيت صامتاً لدقائق وأنا أدرك أن رداد ليس ثرياً ليغدق عليّ كل تلك الأشياء، حينما همس لي :

- ذات يوم سأتقاضى ثمنها منك يا صديقي. لا تقلق.

حقاً كانت مفاجأة لي. فرداد لا يدخر من راتبه شيئاً. ما يتقاضاه ينفد في منتصف الشهر لفرط لهوه مع النساء، وتفضيله

الفنادق والمرافق ذات النجوم الخمس. حينها اعتذرت عما قدمه لي قائلاً:

– لا يا رداد لا أستطيع أن أقبل هذه الأشياء. فكيف يمكن لك أن تؤمنها لي وأنا أدرك جيداً أنك ممن يعيشون اللحظة ولا تدخر شيئاً من نقودك.

– لا تستغرب يا صديقي. إنك لا تعلم عن حياتي شيئاً. فقد غبت لزمن طويل. وفي غيابك تدبرت أمري. وتغير الحال.

بقينا لساعة من الزمن نتجادل في أمر تلك الأشياء. فقبلتها أخيراً وأنا أدرك أن رداد ليس مصدرها. لكن ما كنت محتاراً بشأنه ذلك التساؤل الذي مفاده، من هو ذلك الشخص الذي يهمه أن أخرج من عزلتي وهو يقدم لي كل تلك الأشياء.

راح رداد يفتعل حركات بهلوانية مرحة، ثم شرع عن المدن التي يتنقل بينها بسبب عمله الذي يتطلب مرافقته للطائرات، يسرد لي سيرة كل مدينة عبر النساء اللائي عرفهن هناك:

– في كل مدينة عرفت امرأة وأكثر. ما إن ألمس يد المرأة حتى أخبرها بأنني أحبها. تكاد تلك الكلمة أن تكون من أسهل الكلمات في جعبتي. ما يهمني هي تلك الرعشة التي أحظى بها وأنا أحاور جسداً بين يدي. لكنني عندما ألوذ بنفسي أدرك جيداً أنني ناقص شيئاً. مؤلم ذلك الإحساس الذي يجتاح الواحد منا قبيل نومه، وهو يدرك أن ما من امرأة يحبها في هذا العالم.

فجأة توقف رداد عن سرد حكايته تلك، أشعل سيجارة ثانية وارتشف من كأس الشاي بعصبية، ثم بدا لي يغالب نفسه وهو يحاول أن يخبرني بشيء ما. حتى قال تحت إلحاح شديد مني:

- في مقهى (البيغال) رأيت امرأة تعرفك ولكنك لا تعرفها.

- من هي ؟

انتشرت على وجهه ملامح الكدر ثم قال بشيء من الإرتباك:

- سأخبرك عنها فيما بعد. فيما بعد يا خالد.

قال ذلك ثم عاد يخبرني بحكاياته مع النساء اللواتي عرفهن بداعي سفره لبلدان كثيرة. بينما كانت المشاهد التي تولد بفعل حكاياته تلك تتقاطع في مخيلتي، بالسؤال الذي ألح علي منذ اليوم الأول في المعتقل:

(لماذا لم تعد لنفسك امرأة تحملها في دواخلك. امرأة كان بإمكان سطوتها أن تكون لك عالماً يقاوم عالم المعتقل؟)

بقي رداد يسرد لي حكاياته إلى ما بعد منتصف الليل ، بينما شبح الخديعة يجوس في مخيلتي، وأنا أراقبه وأتذكر أين كان في تلك الليلة التي اعتقلوني فيها.

قبل أن يغادر ذكرني بضرورة مراجعة الشركة التي أعطاني توصية للعمل فيها، وبهداياه وبالحاسوب المتنقل الذي بقي فيما بعد يعلمني لشهور كيفية استخدامه واستخدام الإنترنت. إلى أن أصبحت قادراً على دخول هذا العالم الجديد الذي ألغى الحدود،

وجعل أي شيء مرهون بكبسة زر. حينها التقيت بسعاد، على سرير اللغة الوثير.

يا إلهي، هل تتذكرين يا سعاد؟

في صباح ذلك اليوم انطلقت للشركة أحمل توصية للعمل فيها موقعة باسم رجل لا أعرفه. قدمت الورقة للسكرتيرة فنهضت مسرعة إلى مكتب المدير بعد أن رحبت بي بحفاوة. ما هي إلا دقائق حتى عادت تشير إلى مكتب المدير وهي تمشي أمامي، وقرعت الباب:

- تفضل استاز.

من وراء طاولة فخمة نهض شاب في أواخر الثلاثينات من العمر. صافحني بشدة وأشار إلى عدد من المقاعد اصطفت قريباً من طاولته:

- تفضل استاز خالد هون.

عاد إلى طاولته وقرع جرساً فعادت السكرتيرة مرة أخرى. قال لها بلهجة آمرة:

- ضيفي الأستاز.

قالت:

- شو تشرب حضرتك؟

- قهوة.

من صندوق خشبي فاخر قدم لي المدير سيجاراً، ثم جلس بعد أن أشعله لي. قال وهو يتفرس وجهي:

- أنت من طرف أصدقاء صعب نفشلهم.

- أشكر حضرتك.

قلت ذلك وأنا استغرب كل تلك الحفاوة التي حظيت بها. وأستغرب جانباً جديداً من رداد لم أعرفه من قبل.

قال وهو يضع ساقاً على ساق:

- استاز خالد معك سيرة ذاتية.

- لا ما معي.

أمسك بقلمه وتهيأ للكتابة في ورقة أمامه على منضدة صغيرة:

- طيب شو تخصصك بالضبط؟

- هندسة طيران.

دون تلك المعلومة وقال:

- وين اشتغلت قبل هيك؟

حينها دخلت السكرتيرة تحمل صينية عليها فتجان قهوة وكأس ماء وضعتهما أمامي. قلت وأنا أكابد طعم السيجار الذي لم أعتد تدخينه:

- اعتقلوني في آخر أيام الدراسة بالجامعة. قدمت كل امتحاناتي ونجحت لكن ما أخذت شهادتي. وما سجلت بالنقابة.

ورجعت بعد عشرين سنه. يعني كنت أشتغل بالمعتقل اللي ربحت منو القراءة والكتابة وأصدقاء صعب نسيانهم. يعني بإمكانك تحكي كاتب ما عندو كتب.

بضع علامات استغراب بدت على وجه السكرتيرة، في الوقت الذي وضع المدير القلم على الطاولة، وصمت لوقت قصير. ثم قال للسكرتيرة قبل أن تغادر:

- افتحي ملف توظيف باسم الاستاز خالد.

ثم نظر إلي مبتسماً:

- معتقل سياسي؟

- من وجهة نظرهم نعم. ومن وجهة نظري لأ. لأني انظلمت. لو اعتقلوني بسبب نشاطي السياسي بهذيك الأيام كان على الأقل لقيت إلهم عذر. لكنهم أخذوني بسبب تهمة أنا ما عملتها. بيقولو إني بدي أدمر البلد.

ربت على كتفي:

- لا تقلق كل شيء ينحل. مش مشكلة.

قُرع هاتفه فأجاب. كان يتحدث لأمرأة جلب الهاتف لي صوتها. كان ينظر إلي لأدرك لحظتها أن موضوع المكالمة هو قرار تعييني في الشركة. من جانبه كان المدير مستمعاً إلا أن عبارته التي ختم بها المكالمة جعلتني أتأكد أنني موضوع الحديث وهو يقول:

(ولا يهمِك مدام كل شي ينحل)

قلت له:

- مين كان معك على التلفون؟

- لا لا. هاي مكالمة بخصوص الشغل.

ثم أضاف:

- خلال أسابيع بننتظر منك باقي أوراقك وراح نساعدك في تحصيلها، وراح نحضرلك مجموعه من الدورات داخل البلد وخارجه حتى تستعيد اندماجك في مهنتك.

كنت وهو يتحدث أفكر مستغرباً ذلك الإهتمام. ومشككاً بحقيقة أن رداد قادر على تهيئة كل تلك الظروف لي.

- اتفقنا استاز خالد.

قال ذلك وهو يرى علامات الشرود على وجهي.

- اتفقنا.

عند الباب ذكرني بضرورة تحصيل باقي أوراقي لمباشرة العمل. عندما غادرت الشركة بصعوبة بالغة استطعت أن أجد اسم رداد في هاتفي المتنقل لأنني لم أكن قد اعتدت عليه بعد. فهاتفته أتبين حقيقة ما جرى معي. لكن دون أن يقنعني أكد لي أن صداقة تربطه بإدارة تلك الشركة فلبوا رغبته بتعييني بها. بعد إسبوعين عدت للشركة أحمل باقي اوراقي وباشرت العمل.

* * *

من حوش البيت، بقي صوت جدتي يصلني كنسمات متتالية، تردد أغنياتها الحزينة دونما توقف، وهي تعلف الدجاجات والماعز، وتتبع حركة الظل حول البيت فتغير فراشها تبعاً لحركته. نهضت من الكرسي متجهاً إلى الحاسوب. ضغطت على زره ثم أطلقت العنان لموسيقى خفيفة يعزفها إسباني عبر روح غجرية على آلة الغيتار، ومن ثم فتحت صفحتي في «الفيس بوك» كعادتي اليومية الجديدة منذ أن عرف رجل مثلي، هذا الفضاء الإلكتروني. رجل غاب زمناً طويلاً في المعتقل، وزج مرة واحدة في حياة تغيرت كثيراً، وتغير أهلها. رحت أقرأ الرسائل التي تردني، وأرد عليها بدبلوماسية الكاتب الذي يحاول أن يحافظ على رصيده من القراء. حينها تذكرت تلك الشرارة التي أشعلت في هشيم صدري نارَ حبها، دون أن أتنبّه إلى الإشارات التي أنبأتني لما يمكن أن يحدث.

كان لقاء افتراضياً.

كنت قد نشرت إحدى قصائدي في صفحتي على (الفيس بوك) هذا العالم الذي كنت أعتقد أن رداد وحده دفعني إليه ليؤنس روحي المتعبة، كقطعة حلوى انتهكت طزاجتها شموس تموز وهاجمها النمل، وليبدد شيئاً من عزلة شوكية تتحول الجدران فيها إلى كائنات حية تزحف نحوي، وتطبق على جسدي لأشعر بالإختناق. كنت في ذلك الحين أشرع أبواب صفحتي حتى لغير الأصدقاء الافتراضيين، فيمكنهم رؤية وقراءة ما أكتب. ما أكتبه خليط من سرد وشعر، سال من فم القلب في زمنين يتقاطعان. فيولد الهذيان من فم اللحظة. جاءني من سعاد طلب لإضافتها

كصديقة وعلى الفور قبلته، حيث لم أكن أدقق بالأسماء كما ينبغي. يكفي أن أدرك عبر ذلك الرقم الذي يشير إلى عدد الصديقات، أو الأصدقاء المشتركين بيني وبين من يطلب صداقتي، لأقبل أي طلب من ذلك النوع. وذلك ما حدث لأعلم فيما بعد بأنها تقرأ لي بشغف كل يوم، وتحفظ عن ظهر قلب ما أكتب. إلى أن جاءتني الرسالة الأولى:

(أنت رائع يا رجل)

لم أتوقف كثيراً عند تلك الرسالة، فكمٌّ الرسائل الذي يسقط في بريدي كل يوم يجعلني أمر مرور الكرام متخذاً ردوداً دبلوماسية يمكنها أن تحافظ على تواصلي بقارئات، وبقراء معجبين ومعجبات يربطني بهم البوح عبر الكلمات. فكتبت ردّاً عادياً اعتدت عليه:

(مرور لطيف)

فرأيتها ترد في اللحظة نفسها قائلة :

(كأن الكلام الذي يرشح من أنامل قلبك؛ ماء. وقلبي أرض بور يقتلها العطش)

كمن كان يتأمل نجمة فاجأته وهي تتعربش يده؛ كتبت لها:

(حقاً، هذه الكلمات أنامل تلامس جبين القلب)

ليتني كنت أمتلك القدرة على استشراف ما يمكن أن يحدث لي في لحظة كانت شحنات ذلك العالم الإلكتروني، تهيئني لمصير جديد. مصير فيه من المتعة ما يجعل الواحد منا يصاب بجنون

عاطفي من شأنه أن يهشم كل شيء، وهو يمضي بكل قواه نحو حب يأتي مصادفة في الغالب. لأدرك فيما بعد أن أجمل لحظات الحب هي التي تأتي صادمة، مفاجئة، وغريبة. تأتيك وأنت لم تفكر ولو للحظة واحدة بشأنها. كأن تكون في طريقك نحو موعد مع امرأة، فتلتقي بامرأة أخرى ليهيئ لكما سرير اللغة عبر كلمة وحيدة، برقاً أول. فتلوذان بشجرة تطل على البحر، وهناك يحدث لكما ما لم تتوقعاه. فاللحظات الاستثنائية المفاجئة دوماً هي التي تصنع الحياة ، بمعزل عما نعمل من أجل الحصول عليه.

كانت الإشارة الإلكترونية تشير إلى أنها تكتب شيئاً، فتمهلت قليلاً قبل أن أغادر، وإذا بها تقول:

(منذ زمن بعيد اقرأ لك بصمت يتحول أحياناً إلى شوكة تنهر خاصرة البوح، فكتبت عبارة لك وحدك. كي لا يقرأها الآخرون. فبعض الكلمات تصير مرايا لما نهجس به)

بعد أن فرغت من قراءة الرسالة، أرسلتْ. رابطاً إلكترونياً للكونشيرتو الخامس لموزارت. وقد ذيّلتْ الإهداء بعبارة تقول:

(لك وحدك، غيمات موسيقى تمسح جبينك بالقبلات)

حينها جاءني صوت الموسيقى الذي يأسرني دوماً، تماماً كغبطتنا بطلاء أبيض يمحو ما علق بالغرفة من سواد على جدرانها. صوت يفعل بي كما تفعل الريح بأجنحة الطائر حينما يفردها مزهواً في أعالي الهواء. إنها عوالم موزارت، ترتقي بك إلى مصاف المجرّة. كتبت، دون أن أعي أنني أفسح لي طريقاً بين حشائش يابسة في حقل سوف أرمي عقب سيجارتي فيه دون أن أنتبه حولي:

- الموسيقى تفعل بي ما يفعل الشعر تماماً. لقد عرفتِ أي الهدايا تفرح القلب. عباراتكِ بحق أماطت اللثام عن وجه الفرح؛ فصار لهذا المساء طعم ارتطام شمس بوجه ليل طويل.

ما هي إلا لحظات حتى جاءني الرد، استثنائياً:

- تماما كحبات مطر تتقاطر من خصلات بنت تعانق المطر؛ أمست وقع كلماتك على قلبي ليلة أن قرأت بوحاً صادقاً في صفحتك في الفيس بوك. في تلك الليلة التي عرفتك فيها عبر حزنك الشفيف وأنت تكتب ذاتك، رحت أحلم بأن أكون غيمة يمكنها أن تمر في سمائك، كما مرت غيمتك في سمائي.

قالت ذلك، ثم أنهت حديثنا الذي بدا خاطفاً رغم كل تلك الكلمات:

- يشارف الليل على أن يحتضن الصباح. لنا لقاء آخر.

- سعاد. هل هذا اسمك الحقيقي؟

- نعم. سعاد مروان.

- وهل حقاً تقيمين خارج الأردن؟

- نعم. تفصلني عنك بحار ماء، وبحار رمل كثيرة. لكنني قريبة منك كالمسافة بين شفتين تنطقان حرف الباء في كلمة «أحبك».

كانت موسيقى «موزارت» تعبث بشعر القلب، وأنا أعيد قراءة ما كتبته سعاد، بعد أن أنهيتُ الحديث بعبارة لا أدري لماذا قلتها:

- تصبحين على وطن.

ترى، ما الذي دفعني لأن أقول شيئا عن الوطن الخفي المختلف عن البلاد.؟ الوطن الذي تصير حدوده عيناها، قلبها، حضنها، صدرها، وصباح جميل يبتدئ بكلمة موسيقية هلامية منها (صباح الخير حبيبي)

هل هو الإحساس بأننا كائنان بلا ذلك الوطن الذي نحلم به.؟

غادرت الفيس بوك في ذلك الصباح، ولم أكن أعي أنني سأعود بعد زمن لأرشيف الرسائل وأتوقف ملياً عند تلك الكلمات التي أشارت فيما بعد لأشياء كنت قد غفلت عنها.

بعد تلك الرسالة غابت سعاد شهوراً، وبقيت كما أنا ذلك الكائن الذي يبحث عن لحظة تجعله يسترد ملامحه في حياة لا تمنح الملامح بسهولة كنت أتوقعها وأنا احلم بحزب يأخذ أفكاري على محمل الجد، وبوطن عليه أن يمنحني الدفء مثلما أمنحه محبتي. ولو أن الوطن لا يمكن اختصاره فقط بالساسة الذين يعبد نصفهم الدولار أكثر مما يعبدون الله.

خلال تلك الشهور، لم أنس رسالتها التي خلطت كل عناصري، ثم يسرت لي درباً فيما بعد لكل المتناقضات التي يمكنها أن تقض مضجع أي رجل ذاهب للحب بكل قواه. متناقضات بحجم حب بدا لي كنيزك كوني، شق سماء روحي ومنحها الضوء.

(أنت رائع يا رجل)

يا إلهي. ثلاث كلمات جعلت كل حياتي تتبدل، كحجر على سفح جبل كانت بحاجة فقط لحركة بسيطة من إصبع لتتدحرج نحو واد سحيق، وعبر تلك المسافة ستتهشم، لكنها بناء على مفهوم قانون المادة الشهير لا تفنى، إنما ستتحول إلى شيء، بل أشياء أخرى جديدة.

أتذكر قبل أن أرد على رسالتها التي تأملتها ملياً ذات صباح، ما كان إلا حتفي المنتظر ، أنني أعدت قراءة ما نشرته مؤخراً على صفحتي. فلمست أثرها هناك وقد ضغطتْ زر الإعجاب الإلكتروني بما كتبتُ. رحت أتخيل وقع الكلمات على قلبها، وأستعير شفاهها وهي تهمس بالكلمات. وإذا بي أفاجأ بوقع كلماتها على قلبي، كوخزات خفيفة في خاصرة شخص نائم.

قبل أن أقفل شاشة الحاسوب؛ رحت أتمتم بكلمتين ، وكأنني أشك بحقيقة ما يحدث:

- شكراً لك سعاد.

أحببتها سريعاً، ربما لأنني كنت آيلاً للسقوط وجاءت لتسندني. كانت أول امرأة ارتعش القلب بفعل كلماتها وهي تجيء لي عبر رسائل إلكترونية، أصبحت حقيقة وهمية في زمن واقعي وهمي. الرسائل الخاصة التي أدمنت قراءتها يوماً بعد يوم وأنا أرى أن أغصاناً خضراء تتمدد في حقل جسدي من جديد، محدثة تلك الطقطقة، وذلك الحفيف الذي يُحدثه تلاشي الجفاف. امرأةٌ راحت تبدد بي شبح معتقل ما قادني إليه حلمي ببلاد تعدل بين الوزير

والخفير. بل يد لفقت لي تهمة سياسية اختطفتني من زمن غض، لم أكن أحلم أن يعود بكل ذلك الوهج الذي أتمناه؛ إلا بعد أن عرفتها.

يا إلهي كيف ليد واحدة أن تمتلك القدرة على أن تمنح الموت والحياة في آن واحد!

إذن أرض لقائنا كانت رسائل إلكترونية عبر ذلك «الفيس البوك» الذي اتخذته كمكان، لا سلطة فيه إلا سلطة مستخدمه، لنشر هواجسَ رحّب بها صدر الورق. هواجس ومكابدات ولد جزء منها بين جدران المعتقل، وجزء منها في غرفتي التي شهدت رجلاً مثلي حمل سجنه معه عنوة، رغم اشتهائه للحياة وسط الضوء، لا في حضن العتمة.

كانت تقرع نافذة القلب يوماً بعد يوم، وأنا أسمع همسها يستشيط الحنين عبر الكلمات، بينما شيء خفي في دواخلي يومئ بإشارةٍ تحذيرية، تنبئني بأن خطراً ما سيداهمني. خطراً يشي بطيف خفي، لحدث مستتر سوف يحزّ نياط القلب ويصيبها ويصيبه باللوعة بعد نقرات أناملها التي ستجعلني أشرع فيما بعد نوافذ القلب على مصراعيها لتعبر الشمس صارخة بالذهب، وورائها ريح تقتلع حتى الحجارة.

* * *

بسبب رسالتها التي بدت لي كقمر ولد فجأة في ليلة مظلمة؛ صار الحديث بيني وبينها عادة يومية منحتني بهجة لم أحلم بها، وأنا أرزح تحت نير كوابيس ما إن أطبق جفنيّ؛ حتى تهاجمني ككلاب ضالة عثرت بجثة ملقاة في العراء. لقد منحتني البهجة، حتى أن جدتي ما توقفت عن الدعاء لرداد. لقد اعتقدت أن الحاسوب بحد ذاته هو السبب بما يحدث لي، إذ رأيتها ذات مرة تبخّره وتتمتم بأدعيتها الخاصة التي تشبه التعاويذ، أملاً منها أن أتقدم في ذلك الحال التي عادت لي عبره بعض عاداتي القديمة من الاحتفاء بالحياة. فالنساء مهما تقدمن في العمر يبقين محتفظات بذلك المجس الخفي الذي يمكنه أن يتتبع إيقاع الحب وتوهجاته.

هل كان عليّ أن أفكر قليلاً بما يمكن أن يحدث لي؟ هل كان علي أن أصمت عن تلك النداءات الخفية التي كانت تسحبني نحو سعاد من ياقة روحي؟ وأنا أعي أن الصمت فن عظيم من فنون الكلام كما قال «وليم هينريت». لكن هذا لم يحدث، لم يحدث كما يلوح الآن في شرفة التمني. فالحب من وراء المسافات البعيدة يشبه جسداً عارياً ينتظر الشمس تحت وابل من البرّد، والبَرَد.

فنحن نفتقد القدرة التي يمكن أن تحدد مصائرنا. القدرة لا تخص سوى الآلهة. لهذا هنالك أبوابٌ بعينها في حياتنا نلجها دون أن نفكر بما يمكن أن يخبئه لنا القدر وراءها. ولهذا السبب بعينه هي هنا الآن، هنا في حياتي. إذ أصبحتْ شمساً يومية، تشرق في سماء روحي، وتغيب في سماء الذاكرة، هناك في حضن أمنيات يستلقين على سرير من سهو الانتظار.

* * *

ذات صباح لذت بصفحتها في الفيس بوك، وأنا ما أزال في سريري، وهي تراوحني ما بين بقايا سطوة النعاس، وما بين نداءات الصحو. في صفحتها لم تكن هناك أي صورة لها. كانت تضع صورة رمزية لامرأة تجلس عند شاطئ وتتأمل البحر. صورة كلما رأيتها رحت انتظر أن تلتفت لي عبر شاشة الحاسوب. فقد استشاطت بي حاجة ملحة لصورة تجعلني أختبر المخيلة التي رسمت لها عدداً من الصور عبر أبعاد مختلفة. الصورة التي عادة ما ترسمها المخيلة وهي تستخدم فرشاة الكلمات، وألواناً جديدة عبر الساعات التي كانت تمضي مسرعة، بينما ذلك العالم الافتراضي يمنحنا فرصة للقاءات متكررة في سرير اللغة.

كانت الإشارة الخضراء في خانة الدردشة قبالة اسمها، تشير إلى أنها متواجده، فكتبت لها:

- **تعطش روحي ملامحك. أريد صورة لك.**

- ملامحي فيك منذ زمن، فتش الذاكرة عنها ستجدها.

- **أخاف أن تخفق الذاكرة بما أريد.**

- ذاكرة العاشق الحقيقي لا تعرف الإخفاق

- **هل تؤمنين بعشقٍ فِراشُهُ الأثير؟**

- ألا ترى أن الروح أبقى؟

- **أؤمن بذلك فأنا أحببتك قبل أن التقيكِ.**

- وأنا عشقتك منذ عمر.

- البارحة غفوت وبين ذراعي الوسادة. مخيلتي تعاطفت معي بحيث استحضرت لي عطرك وأنفاسك، وخصلات شعرك وآهة الحضن .

-أغبطها تلك الوسادة التي لها أن تفيق منتشية وقد أمضت ليلتها في ذلك النعيم.

- أجمل الصباحات هو ذلك الصباح الذي يفتح كل منا عينيه ليتماهى وجهانا بكلمة أحبك.

-المهم عندي أن تكون في الصباح صباحاً لي وحدي.

- أجمل الصباحات وسادة واحدة، ونفس واحد وآهة واحدة، أجمل الصباحات أنت.

- لن تكون الآهة آهة الا معك.

- يستبد بي الصهيل يا حبيبتي.

- اعتقدت كثيراً أن القلب يعطش والروح تعطش. أنا الآن أجربها، ومعها عطش جديد لم أعرفه قبلك، عطش الجسد.

- تتغلغلين بدمي، بقسوة لذيذة. أجدني أريدك الآن بحضني، قريبة كما أحلم.

- وأنا يا حبيبي أريدك جداً، فأسمح لنفسي الان بتقبيل جبينك. أمرر أصابعي فوق عروق يدك، أرفعها أحاذيها وجهي، أقبل باطنها العميق. أنظر بلا أمرٍ بالتوقف إلى عينيك الجميلتين.

لا يمنعني أحد من أن أتحسس بوجهي وجهك، اقترب أكثر. أناجي صدرك، أقيم فيه فرحي الأول.. أسكنه. أجلس فيه على أول

مقعد يصادفني. أنهض. أغني أنثر شَعري. أرقص.. أرقص كما لم أفعل من قبل. ستكون الأنثى فيّ الآن أكثر جرأة مما مضى من سنين القمع. أراني الآن أسمح لنفسي بالجلوس على فخذك الأيمن. تلف بذراعك ظهري المكشوف. نتقابل بوجهينا إلا أن وجهي يرتفع ليحاذي صدري وجهك. سيكون صدري اللحوح مكشوفاً، مستديراً أبيض، محمر يقترب اليك ويبتعد وفق اهتزازي في حضنك. أرغب في ان ألمسك بأصابعي. أعبث بشعرك، أحتضن وجهك المتعب بين كفيّ.

- أنت تبثين بي الحياة. سينير وجهي.

- سأداعب بقلبي أزرار قميصك. أتحدث اليك بدلال يزيد كلما اشتدت ذراعك حول خصري. تمرر يديك على ظهري بلطف، وتجعل أصابعك حينها في شعري. تقترب مني أكثر تخبرني بأنك تحبني. تقرر شفتاي حينها أن موعد القبلة الأولى قد حان. اقترب من شفتيك الداكنتين برقة. ألمسهما بخفة وأُبقي شفتي بين شفتيك دون حراك. ستندفع شفاهنا بإيقاع تتبادل الحب بطريقتها، مرة اختطف شفتك ومرة تفعل انت، وتتسارع الحركة، فتشدني اليك اكثر. استقر في حضنك، اشعر بمحراثك يستعد للانطلاق تحتي. أتجاهله ليشتعل أكثر. تضمني كلما زادت حرارة القبلة. لم تعد قبلة باتت انصهاراً. أمسك وجهك بين يدي. أجذبك نحوي بقوة. ابدأ الآن طور العنف في التقبيل. لن أسمح لها ان تفلت من بين شفتي. أسألك هل أعجبك. فتخبرني بأني بارعة وأجيد تقبيل حبيبي. أزهو بنفسي. اطلب منك أن تنتظر. أريدك ان تراني ارقص. أصر على

الوقوف. أقف.. تشدني إليك. سأرقص بين فخذيك في فسحة صغيرة. لأقترب من مكمن الرغبة فيك. وعلى موسيقى تثير فينا الرغبة أكثر أتمايل. أرقص بمحاذاة وجهك وصدرك. أعلو انخفض. أميل. أتلوى. أمارس سلطة الدلع والغنج التي لا أتقن سواها أنخفض نحوك أتجرأ. أقبلك ثانية بهدوء.

- أنت تشعلينني على نار هادئة. حينها يا حبيبتي سأقبلك بتمهل. ثمة كلمات لا تقولها سوى الشفاه. أحبك. وأشتهيك بلا حدود. فأنت معي الآن بكل سطوتك.

- وأنا أحبك بلا حدود. وأريدك بلا حدود. وأعلم أن اشتهاء رجل مثلك يجب أن يُعلن عنه في الصحف، لتصطف النساء طابوراً، يمتثلن لأمر الرغبة فيك. ستعرف يا حبيبي يوماً أن حضني يليق بك. وأنني قادرة على ارضائك.

- أريدك بجنون.

- انت بين ذراعي ألا تشعر بهذا. أعتصرك ألا تتألم. حرارة تلفني من كل مكان تحشوني فيك استوطنك.

- وأنا بكل حرائقي أريد أن أرضع نهدك. أتذوق طعمه برأس لساني. ثم أهبط إلى بطنك حيث أترك لفمي حرية أن يطوف بسرتك كراقص مجوسي يطوف حول النار. حينها سنصاب بالجنون، فيهبط فمي إلى وردتك أتذوقها . اترك للساني أن يقرأها كقصيدة لا نحس بنكهتها حين نغمض أعيننا. ثم ألجك يا حبيبتي. هل تحسين بذكورتي تلمس وردتك. تفركها على مهل فتبتل؟

– نعم يا حبيبي أحس بها. اجعل كل طقوسك بطيئة. أحب الأشياء على مهل، كبدايات موسيقى رعاة الماعز في الجبال. تنطلق هادئة ثم تنتهي صارخة كالرعود. سأضمك حينها نحوي بقوة. أريدك بجنون. ضاجعني كما لم يضاجع رجل امرأة. ألا تشعر بالاهتزاز؟

– أحس به عميقاً، يستنفر كل خلاياي. أنا أقترب من الذروة يا حبيبتي

– أنا أتدفق الآن يا حبيبي، وأنت تتدفق بي ماء حياة وأمنية.

* * *

بعد أيام جاءتني صورتها، فوجدت مخيلتي قد نجحت نجاحاً غريباً في رسم صورة ربما حلمت عبرها في أن يكون وجهها بذلك الدفء الذي أشاع بي دفقات حانية كانت تركب صهوة الريح، وتيمم شطر سريرها الذي شهد فيها بعد ليال استمرت حتى الصباح ونحن نصل الكلام بالكلام. نجاح باهر في موهبة الرسم عبر ذلك المزاج الذي عادة ما تخلقه بعض الكلمات، وبعض العبارات المتوارية في حديث طويل. كنت أغالب الفكرة التي لعجت فجأة، وهي تشير إلى أننا التقينا ذات يوم في مكان ما، مكان ربما يكون قصياً عن هذا العالم.

يا الله، كيف خانتني الذاكرة بكل تلك القسوة، ولم تسعفني بمزيد من الاشارات!

نجحت ذاكرتي إذن برسم صورة بفعل كلمات كانت تنزلق على شاشات حواسيبنا المتنقلة، وهي تصير كقلادة على عنق جميل. ثمة كلمات كانت تفضح عطشي لرؤيا ملامح وجهها قبالتي، بينما أناملي تتفرس بجغرافيته الذي كان طقسها على الدوام مشوباً بالدفء.

عندما أطلت عليّ الصورة عبر شاشة الحاسوب كشمس تطل من وراء صفحة البحر في صباح هادئ؛ كتبت لها:

– ثمة همسة أحس بها تتهادى من فضاء الصورة. همسة آلفها. ربما سمعتها ذات يوم وأنا أعبر شارعاً، أو أغلق نافذة أمام شمس الظهيرة. ربما انحدرت لمسامع القلب ذات منام، أو ذات مشي في عصاري القرى.

التفاتتها في الصورة كانت تشي بفرس، تحاور موجة تروح إلى منتصف البحر ثم تعود مفترشة الرمال. تأملتها لمرات ثم كتبت:

– هل كتبتك في تلك الليلة، كما كنت تحلمين؟

– ما قرأته من فقرة منشورة لك من روايتك قيد الكتابة جعلني أقول أن هذه الرواية تجسد أحلام أي قلب متعطش للحياة، إلى جانب قوة السرد فيها، وتداخل البوح، والوصف في نسيج سردي فسيفسائي شديد الغرابة. لقد كنت يا خالد مثل نحات فطري معاصر، بدأت مغامرته الفنية حين وقعت عيناه أول مرة على منحوتات فانبهر بجمالها وهرع الى النهر ليشكّل من طميه تمثالاً بعفوية وتلقائية.

– اكملي أرجوك.

- من الممكن أن تقول في نفسك ماذا تريد هذه المرأة. خفت كثيراً قبل أن أبادر بالحديث إليك؛ خفت فعلا صدقني كنت أشعر أنني أريد أن أتحدث معك. لا أدري، كان عندي رغبة عالية في اقتحام كل شيء يخصك. أريد ان أعرفك أكثر ولكن أعذرني، فعلا خفت من تفكيرك.

آه لو تعرف ما الذي حل بي. منذ أول مرة قرأت لك. شعرت أنني أبحث عن هذا الرجل منذ زمن بعيد. كل الذي أشعر به الآن. أنني أريد أن أتحدث إليك. أريد ان أشعر بالأمان. سأقول لك شيئاً ربما يبدو متطرفاً. هنالك دهشة غريبة أفضت بي إلى رغبة جامحة كانت تدعوك إلى أن تضاجعني. ثمة تيار كان يسري بجسدي الذي أحسست به يتفتق عن رغبة لم أحتملها.

- ليس هنالك تفسيرٌ واضحٌ حول سبب حب رجل لامرأة، وامرأة لرجل. ليست الأرواح هي التي تلتقي فقط. ثمة مسارات أثيرية تمنح كيمياء الجسد أيضاً حق اللقاء.

- سأقول لك شيئاً. ما الذي يحدث حينما يفاجئ المطر راعي الأغنام في أرض ممحلة؟

- يبتل جسده بالماء، ويصاب قلبه برعشة تشبه رعشة الكهرباء وهو يودع العطش.

- هذا ما حدث لي منذ قرأت لك للمرة الأولى. شعرت أن مطراً فاجأ رأسي المكشوف، وأن رياحاً أصابتني بالجنون. لقد بللني مطر كلماتك، وسرت رعشة كهربائية ببدني. لقد امتدت يدك إلى

عالمي الداخلي وخلطت كل شيء فانتعشت. لهذا رحت سعياً إليك أقفز فوق المسافات، كحلمنا ونحن نتقافز على الغيوم.

- وها نحن منذ الكلمات الأولى نوغل فيما لم نكن نتوقع أن نراه. هذه المسافات بيني وبينك تصير دون قيمة ونحن نصنع لحظتنا الخاصة. سأقول لك شيئاً، هذا العالم الذي نراه يسير وفق قوانين وضوابط يطلقون عليها صفة الشرعية ما هو إلا وجه غير حقيقي لما يمكنه أن يحدث. والذي يحدث هو حالة يصير الواحد منا عبرها رهن لحظة يختطفه الفرح فيها من ياقة قلبه. الأنهار تلك التي نراها عبر لغاتها الجغرافية توحي لنا بأنها لا تلتقي دوماً . فيتساءل البعض؛ هل يلتقي الدانوب مثلاً بنهر الأردن رغم شساعة المسافات. سيجيب عالم الجغرافيا بأنهما لا يلتقيان. لكن سيجيب عاشق، شاعر ربما بأن هناك علاقة خفية خارج لغة الجغرافيا تشي بأن علاقة ما، علاقة خفية هي الشرعية بحد ذاته، او نبضها الفرح. تلتقي الأنهار من تحت التراب خفية. ويلتقي العاشقان من وراء قامة الوقت خفية. لحظات مسروقة عندما نضعها في ميزان الوقت ترجح كفتها. فنبتسم ونحن نمارس طقوس حياتنا اليومية الاعتيادية فرحين بذلك الماء السري الذي يروي تراب القلب.

نحن يا سعاد أبناء تلك اللحظات المسروقة بعينها. تركنا كل شيء وراءنا لأجل زمن قصير يصير هو الزمن الحقيقي بعينه.

- أخطر ما حدث لي يا خالد أنكَ اخترقت عالمي الخاص بعد وهج الليالي التي أمضيناها في سرير اللغة، نتأوه، نتبادل القبل عبر الكلمات، نتعرى، نمارس الحب عبر أثير كان لنا وحدنا، ثم نرتعش

كحصان وفرس. على طاولة الكلمات رفعتُ ستائر الممنوع عن رغباتي الجامحة، تعريت قبالتك بكل فخامة جسدي وبذخه على الرغم من الاغتصابات الليلية من رجل باسم الزواج كان يقتلني، جسدي الذي رغم كل ذلك العناء إلا أنه كان يحتضن في روحه أنثى ما زالت عذراء. لكل منا عالمه الخاص يا خالد؛ ذلك الذي لا يراه ولا يحس به أحد سوى صاحبه. أنا الآن عارية أمامَكَ فدثرني كي لا أتجمّد. واحتفظ بي كي لا أتوه.

- أجمل ما حدث لي يا سعاد أنكِ بنيت عالمي الخاص، فسترتِ عريي. لسنا عاريين الآن يا حبيبتي. نحن اكتمال النّقص. انظري، هناك شجر على جبينك. انظري هناك غمام على يدي.

- إذن كن كما أريدك كي يحسدني كل من رآني على لغة الاخضرار وهي تلعج في جبيني كنجم في سماء صباحية.

-سأكون ذلك الذي تشيعه البروق، ذلك المطر الذي يبتكر الأغنيات إلى أن يذوب في البياض. متى تأتين إلى عمّان؟

- سأبدد قامة المسافات وأجيء لتكتشف أنك تلمس حقيقة، وليس مجرد امرأة وهماً في واقع افتراضي. حينها سأفرد ذراعي لتغفو عليه، فلا ذراع بعدكَ.

- لا صدر بعدكِ.

- ويحكَ زلزلتَني.

-إذن سنولد من جديد.

* * *

انتصفت الشمس في السماء، وراحت تطل من وراء الغيوم، ما بين الفينة والأخرى مانحة بدن القرية مزاجاً متبدلاً يخلق شيئاً من الوحشة، بينما بدأ صفير الرياح يجوب الأزقة مبشراً بليلة أخرى عاصفة. أقفلت جدتي أبواب أقنان الدجاج، وحظيرة الماعز، ونوافذ البيت المشرعة لشمس الصباح التي لم تقف أمام أشعتها غيوم كتلك التي لبّدت السماء في تلك الظهيرة. أشعلت المدفأة البترولية، وسحبت الكرسي الهزاز ليواجه النافذة، بعد أن أدرت مفتاح المسجلة فراحت تبث لي موسيقى كلاسيكية لعازفي تشيللو وبيانو. ثم دفعت الكرسي إلى الوراء فراح يهزّ بدني لأغرق في تخوم ذاكرة أعادت لي ذلك اليوم الذي أتى بعد عام من حياة على ورق إلكتروني كان شاهداً على حُبّ لم يأت بسهولة حتى أتقبل فكرة ضياعه بسهولة. عام شهد مكابدات سطوة صوتها عبر أثير ما عاد بحاجة لكوابل ضيقة، وانتظار طويل ومفجع لقلب يحلم بالحنوّ؛ حيث وصلت سعاد عمّان.

كانت ليلة الثلاثاء، وكنت أعرف موعد هبوط الطائرة، كأنه موعد مع عملية جراحية تعيد إلى شرفة الروح أملاً بالحياة أنتظره، وأنا أراقب السماء من نافذة البيت، فالمطار قريبٌ من مسقط الرأس، فرأيت الطائرة تحوم انتظاراً لإذن لها بالهبوط، فرحت أهجس بها وأنا أخمن كم تحليقة ستنفذ الطائرة، ومتى ستهبط بناء على ما لدي من خبرة. بينما قلبي كان يحوم بمعية الطائرة، تماماً كتلك الطائرات الحربية التي ترافق طائرة تقل شخصاً ما على درجة من الأهمية. منذ أن هبطت تلك العنقاء التي أقلّت امرأة استحوذت على قلبي، من

وراء بحار الرمل، لحقل قلبي المخضر بعشقي لها، وبالتأوهات التي كانت تطلقها روحي؛ تلبستني مرحلة الانتظار الثانية. وهو يصير تَبَخْتُراً على طريق معبدة بالشوك والورود معاً، بينما صوت خفي ينصحني (عليك أن تضبط خطواتك جيداً وأنت تتمايل في الطريق كي تحمي قدميك قدر ما تستطيع من وخزات الشوك، حتى تصل بأقل الخسائر) .

باستمرار كنت أراقب شاشة هاتفي النقال منتظراً منها اتصالاً من عمان التي كانت تنتظرها مثلما أترقبها بكل حرقة واحتراق. لأن مدينة مثل عَمان لا يمكن فهمها من دون حب مجنون كالذي حدث بيننا. فلا تاريخ حقيقي تدونه ذاكرتك للمدن بلا امرأة تحبها إلى درجة الذوبان الذي يجعلك تتماهى بالريح وأنت ترى كل الاشياء عبر عيني القلب كأنك تراها للمرة الأولى.

انتظرت طوال الليل، لكن صوتها لم يأت كما أردته مشبعاً بذلك الإيقاع الأنثوي الذي ينتشل قلبي من مكابداته لوجع الانتظار:

(أنا هنا يا حبيبي؛ أتنفس ذات الهواء الذي تتنفسه)

عبر الفيس بوك رحت أكتب لها، بلوعة عاشق يريد الحياة بكل شغفه:

«عندما تأتين

سألثمُ ثغَر الطّريق التي أفسَحت مساحتها للنّغم

سأقول للدّرَج الذي شَدّ جلده لإيقاع كعبك العالي:

سلمتَ من كلّ نشاز

وسلمَ الإيقاع الذي شَدَّني لرقصة عند خصر الباب

بعيداً عن كلّ خطأ في التجلّي

قريباً من كلّ نشوى يجود بها وتر الرّخام

عندما تأتين سنتبادل الأدوار

مرّة أصير عازف تشيللو يحبّ التراخي عند أوتار القرار

ومرّة تصيرين أوتار جواب في شهيق التشيللو»

كان وجع الانتظار أشبه بمشي بلا حذاء على حافة سكين حادة. كلما أوغلت في الانتظار، سطا بي ذلك الوجع أكثر، فأكثر، فأصبت بالخدر. ففي الانتظار تصير الأشياء؛ كل الأشياء ثقيلة ولها لون واحد. ونصبح غير قادرين على فعل شيء، كأننا فقدنا حواسنا كاملة، فيصير الدماغ والقلب رهينين للحظة لم تأت بعد.

في تلك الليلة كانت كل حياتي متوقفة على وجودها أمامي، وأنا الذي لم تتوقف حياتي على أي شيء، منذ تلك الأيام التي أعقبت خروجي من معتقل يمكن له قتل ذلك الشكل من الحياة وهو يتغلغل بداخلنا. كانت حياتي خلال ذلك الانتظار القاسي، متوقفة على حضورها الذي كلما أغمضت عيني؛ أحس به طاغياً أكثر مما يمكنني احتماله. إحساس مفرط بوجع انتظارها، وهو يقترن بذلك الألم الخرافي لمعتقل يتمدد داخلي؛ فيقف في شريان القلب يهدد عمري الذي ما عرفت له قيمة إلا منذ أن عرفتها. إنها الحقيقة التي

عليّ أن لا أنكرها ما دمت أحس بنبض هذا القلب وهو يترافق مع دقات ساعة أسمعها أينما حللتُ. إنها الحقيقة التي تفيد بأن لا معنى حقيقياً لحياتي من دونها.

نمت في تلك الليلة كما ينام الموجوع وهو يعاني ضرباً من الهذيان، والهلوسة. أخبرتني جدتي أنني كنت أنادي لمرات عديدة، وأهذي باسمها، كما لو أن حمى أصابتني فأشرعت كل شيء فيّ على مصراعيه، كطفل يهذي بأمه في غيابها. فأخذتْ في الصباح وأنا متوجه إلى عملي، تتحسس وجهي بأناملها وتنظر في عينيّ دون أن تنطق كلمة واحدة.

مضت ثلاثة أيام دون مكالمة تخبرني بأن سعاد هنا، وأنها أتت لأجلي حتى يصبح الخيال الذي كان بيننا كأغنية رقيقة في عوالم الفيس بوك، واقعاً يقدم لي تفاصيله التي يمكن أن تنهر الروح وتمنحها شهوة أكثر للتحليق.

لم تمض تلك الليالي بسهولة يمكن لأي أحد أن يتخيلها، في خضم حالة مركبة من عناصر شتى سيدها القلق؛ القلق عليها، وعلى قلبي الذي يدرك أنه سيصبح كراية، تمزقها رياح شرسة، في غيابها.

ثلاثة أيام طرقت خلالها كل الأبواب التي يمكنها أن توصل سؤالي وأنا أردد (أينك)؟

الفيس بوك، بريدها الإلكتروني، جوالها الدولي، كل الوسائل التي يمكنها أن تسمعني صوتها وهو يأتيني كيدٍ تهدهد بي كتف

القلق. بقيت دونها إجابة تجعلني أواصل يومي كأي آدمي. وما كان أمامي سوى الريح التي شيّعتُ معها مكاتيب قلبي المحملة بالحب، والوجع، والخوف من خسارات جديدة. لكنها عادت لتختزل مني ذلك الإحساس بأنها في الأصل لم تكن حقيقة ماثلة أمام قلبي.

كنت في مكتبي في العمل أعكف على بضع أوراق دون قدرة على انجاز عملي كما ينبغي، عندما جاءني اتصالها عبر رقم جديد:

- حبيبي أعلم أني تأخرت كثيراً. لكن عليك أن تعلم أن أشياء كثيرة حالت بيني وبينك. حتى استطعت الحصول على شريحة هاتف محلية تمكنني من التواصل معك.

عندما تغلغل صوتها في مسامعي وبت أدرك أنها حقيقة ماثلة على بعد بضعة كيلو مترات مني؛ لم أستطع أن أداري أصداء ذلك البركان الذي كان يتفجر في قلبي قاذفاً حممه، ونيرانه التي تحرق الجوف وتحيلني إلى أقصى درجات التعب، فقلت بما يشبه الأنين، دون أن أدرك أنها كانت تتردد في لقائي، وأنها تقع ضحية لصراع بين امرأة بيد واحدة منحت الظلمة، وأتت من جديد لتمنح الضياء:

- رسالة قصيرة عبر ما وفرته لنا التكنولوجيا؛ لن تكلفك سوى قليل من الوقت.

راحت تأخذني نحو جهة تجعلني أهدأ:

- حبيبي عليك تعذرني. ما حدث لي كان أقسى مما يمكنني أن أحتمله.

بقيت تتحدث، وتسرد لي ما حدث لها، بينما كنت أهدهد ارتعاشة الانتظار التي كانت تقتلني منذ أن بدأت أحس بحاجة لحذف تلك المسافات الجغرافية الشاسعة بيني وبينها.

انتهى القلق الذي كان مرده الخوف عليها. وعلى حياتها التي تعنيني كثيراً. تماماً كما تهتم شجرة تقف في منتصف صحراء بأمر غيمة عالقة في المدى. لكن ثمة خدش حدث في مكان قصي في القلب. يحدث أحياناً أن نتجاهل الحديث علانية في مثل هكذا أحوال، لكن تبقى الأحاسيس غائرة في الأعماق، خصوصاً ونحن ندرك أن ثمة خيارات متوفرة كان يمكنها أن تجعل الأمر أهون. بعد أن أقفلتُ سماعة الهاتف وغاب صوتها في صوف الأثير الوافر بالحكايات، بقيتُ مسترخياً على مسند الكرسي أحاول أن أتبين ذلك الإحساس الذي كان يفتك بي. فمرة أراني مصاباً بذلك الإيقاع الذي يأتي كنتيجة لكل تيارات الشوق والانتظار، مكللاً بتخيل وهج اللقاء الأول. ومرة أطرد ذلك السؤال الذي يكبر في تربة الأيام الثلاثة التي لم أسمع صوتها فيها وهو يعيدني إلى شرفة الحلم الذي بت أخاف من أن يفتك بي. رحت أتذكر ما كتبته لي قبل مجيئها بأيام:

«ما إن تطأ قدمي أرض المطار حتى أشتري شريحة إلكترونية جديدة ثم أهاتفك، لأخبركَ أني هنا لأجلك. هل تعرف ما معنى أن أسمع صوتك وأنا أحتفي بالدقائق الأولى لي في عَمان؟

صوتك يدوخني، تماماً كتأثير نبيذ معتق. صوت لمجرد سماعه منذ حروف الكلام الأول، يخلق بي حالة اشتهاء لم أحس بها على مدار عشرين عاماً من زواجي برجل لا أحبه ولا أكرهه.

كنتُ أعتقد أنني مجرد امرأة محقت عمرها في لهاث وراء رقم في حساب بنكي في بلاد تستغلك إلى أقصى درجة يمكنك أن تتخيلها. امرأة نسيت أن لها أنوثة لا تنتهي حتى وجسدها يغور في التراب ميمماً شطر الموت. امرأة لم تحفل بالرعشة الأنثوية ولو مرة واحدة على مدار عشرين عاماً من زواج ما هو إلا صفقة تمت بهدوء بيني وبين رجل كان البوابة لي على عالم مثلما يمنحك المال؛ يأخذ منك إنسانيتك. عالم كان هروباً من واقع لا يقدم لك حتى فكرة العيش ببساطة حتى تقاوم وقع الخسارات. امرأة رغم تأنقها المفرط في كل التفاصيل، وعبارات الإعجاب التي تطرق باب أذن من أذنيها وتخرج من الأخرى دون أن تترك أثراً في القلب، إلا أنني مقابل كلمة واحدة منك بت أتلمس شجرة حواء تنمو داخلي بسرعة مذهلة، كالجسد الذي ينتعش بسبب حقنة يسري سائلها في الوريد ومع سريانها تجيء الحياة. في البدء كانت كلماتك عبر حواراتنا المكتوبة، ومن ثم أتى صوتكَ الذي ما إن أسمعه حتى أصاب بالدوخان الذي يقودني إلى تلك الرغبة الجامحة للمضاجعة على سرير وثير. في ذلك اليوم الذي تجرأت فيه وقرعت باب هاتفك فسمعت صوتك وأنت تحاول أن تعرف من المتصل بك، كنت قد تيقنتُ أن لا مسافة بينك وبين عالم الكتابة، وهذه نادرة قلما تحدث يا خالد. تحدث فقط لمن يكتبون بقلم الحلم وحبرهم الصدق، فيبدعون كتابة صادقة مهما جنحت للخيال، الذي هو اجترار لشكل آخر أكثر صدقاً للحياة.

بعد أن أقفلت سماعة الهاتف وتلاشى صوتك؛ رحت أتلوى بسبب ذلك الإحساس الذي يشبه تأثير موسيقى مليئة بالدهشة.

إحساس داهم قلبي ومن ثم انتشر في مسام جسدي كله. وقفت أمام مرآتي وتعريت، فرأيتني بجسد آخر غير الذي بقي رهينة للغة الجليد سنين طويلة. ثمة نجوم وأقمار كانت تسحّ من مسامه وتنزّ من نهدي اللذين رأيتهما قد تخلصا من ذلك الذبول فصارا كوكبين مليئين بالحياة. ثمة نيزك ارتطم بجسدي وسحّ رذاذه على سرّتي وغفى بين فخذي، في مكمن الآهة التي تأخذ الجسد نحو ذُرى الرعشة. رحت وأنا أقف أمام مرآتي، امرأة كأنها ترى أنوثتها للمرة الأولى، أصرخ من أعماقي:

– أريدك أن تضاجعني الآن. أنا محتاجة لك جداً. ههنا الآن أستعيد ثقة كنت أظن أنها تاهت في زحام هذه الحياة.

سأهاتفك يا خالد لأقول لك أنا هنا، تعال نترجم كل كلمات الانتظار إلى لغة جديدة لا يعرفها سوانا. لغة قلمها أنت وورقتها أنا. أنا ورقة بيضاء بكر لم تحفل بالحبر، انتظرتك طوال كل تلك السنين. وأنت القلم الذي يجيد أسرار الكتابة التي حتماً ستعيد لي ثقتي بنفسي التي أهدرتها سنين أكلت لحم روحي وشربت عليها نخب الخسارة. عليك أن تصدق يا حبيبي أنني وأنا أوغل في السنوات الأولى من عمر الأربعين؛ أنني ما زلت امرأة عذراء لم يفض بكارتها رجل. العذرية يا خالد ليست محصورة بذلك الغشاء الذي لا يتعدى مساحة ضئيلة تقاس بالسنتميتر. يمكن للمرأة أن تفضها بنفسها لو أرادت. العذرية يا حبيبي هي تلك الحالة في الروح والقلب والتي لا يمكن حصرها بمساحة معينة. سأقول لك شيئاً يا خالد؛ لم تكن الرجل الأول في حياتي. أنت الرجل الثالث، لكنك الوحيد الذي

منحني ذاتي التي أستعدتها كما لو لم تغادرني قط. أنا امرأة عذارء على يديكَ هشمت كل تلك الحواجز والعقبات بين حوائي وآدمك. كنت وما زلت أسمي الأشياء بمسمياتها. كأن أقول لك عندما آتي إلى عمان أريدك أن تضاجعني دون مقدمات. ما إن تعبر الباب حتى تحملني وتضعني على الصوفة الطرية، وتضاجعني كما تضاجع الغيمة الغيمة فيحدث المطر. كأن أقول لك أن حلمتي نهديّ في هذه الساعة يدفعان بالقميص إلى جهة الإنعتاق، فتعال يا حبيبي لتصير طفلاً في حضني ونثمل بالشهيق. أنا امرأة عذراء يا خالد. امرأة ما إن تسمع صوتك، ثم تغمض عينيها، قليلاً تدب الرعشة في الجسد، ذلك الصهيل الذي يهطل جسدي بضياء المجرة الفضي. سأقول لك شيئاً ربما تجده غريباً. ما إن أقرأ شيئاً لك حتى تبدأ النشوة تتصاعد في جسدي إلى أن أرتعش. ما إن أقرأ لك حتى أصاب برغبة متطرفة بأن تضاجعني. عندما أصل سنحظى بلغة سوف نكتبها في السرير كما ينبغي لعاشقين ينحتان الحياة في أواسط عمريهما، دون مزيد من الخسارات، والوجع. لغة سوف نحيكها من جديد في كل الأمكنة، على الأريكة، في المقهى، وفي السيارة التي سوف تأخذنا إلى أماكن سنبقى تذكرنا في الأيام القادمة أننا كنا نبلور قامة الوقت كيفما نريد ما دمنا شيئاً واحداً. أتفهم يا حبيبي ما معنى أن نكون شيئاً واحداً. لن أنسى أنني قلت لكَ منذ البدء «أنت رائع يا رجل» حدث ذلك منذ أن قرأت لك للمرة الأولى، وجاش بي ذلك الإحساس الغريب بأنني أعرفك منذ أمد بعيد وأنني بحاجة أن أتماهى بك جسداً لجسد)

* * *

أتذكر كل ما قالته، وأغرق في لجة هذا التناقض الذي يشبه رمحاً مصوباً باتجاه عيني ويهددها بالعمى. لا أدري يا سعاد لماذا شعرت بأنك قد تغيرت كثيراً، قبل أن نلتقي، وبعد مضي أسبوع على وجودك في «عمان» دون لقاء يترجم كل تلك الأيام التي مضت إلى لغة كنا نحلم بها خلال تلك الليالي التي كانت الكلمات فيها ليست مجرد سفير للقلب، إنما كانت هي القلب ذاته بكل تجلياته. وكأن ما يحدث في الواقع الافتراضي شيء، وما يحدث في الواقع اليومي شيء آخر.

أخفيت عنك الألم الخاطف الذي ما انفكَ يستبيح روحي بسبب ما يجري. لأنني كنت في وقت انشغالك مع عائلتك، وأصدقائك، وتعبكِ في عمان، أشعر بحالة تشبه إحساس مضيف نحو ضيفه، مع أنك لست بحاجة لي في هذا الجانب، لكنني كنت أحاول جاهداً أن لا ألومك، على الرغم من الحمم التي تخرج من فوهة بركان القلب، الذي كان يغلي، وأنا مندهش من كل ما يحدث من تبدلات، وأتساءل بكل وجع:

(هل ما كان يحدث بيننا مجرد كتابة. مجرد وهم. ربما؟ وأنت تعلمين أن الكتابة هي الحقيقة بعينها)

وقعتُ في تلك الأيام ضحية لقلق يجيء بفعل الإحساس بالتناقض. فأكثر البشر خسارة؛ هم ضحايا التناقضات. ليس فقط تناقضاتهم الداخلية؛ إنما تناقضات الذين يعيشون معهم تلك اللحظات التي يحلمون عبرها بالحياة. كان تناقضاً قاسياً يدفعني مرات كثيرة نحو شرفة شك يمكنني عبرها أن أطل على كرنفال من الإجابات لأسئلتي القلقة. كنا نتحدث عبر الهاتف كل يوم، وأنا

أحس بأن المسافة تمد لي لسانها هازئة بقلبي، وكأنها ما ما زالت بعيدة، تفصلني عنها مسافات هائلة، طالما أشاعت بي ذلك النوع الغريب من الوحشة. كنت أتعجب على مسمعها وأنا أردد:

– يا الله، لقد بقيت أحلم بنار تأكل شوك المسافة، وأنا أكابد شهوة الوصال. وها أنت على بعد نصف ساعة، ولا أستطيع أن أراكِ. تسهرين حتى الصباح. تخرجين. تلتقين الأصدقاء. الأقارب. تمشين في الشوارع. وأنا قابع في غرفتي، التي تطل على مدينة، باتت أضواؤها باهتة من فرط ما راقبتها بعين الحالم. وأنت تقولين (عليك أن تصبر يا حبيبي. ليس من السهل أن أراك هذه الأيام. المشاكل التي حدثت لي أتعبتني جداً، وخطواتي مراقبة. أرجوك يا خالد أنا متعبة جداً، فلا تكن تعباً جديداً يضاف إلى قائمة الوجع الذي أعاني منه منذ ولدت.)

كانت تسرد لي تفاصيل الأحداث، التي وقعت لها في عمان، وتردد ما بين الفينة والأخرى عبارة «كم أنا متعبة» ليس فقط بسبب زوجها، الذي يوجه لها رصاصات الوجع كل يوم، إنما بسبب أحداث بسيطة، قد تحدث لأي واحد منا. لذلك حاولت لأيام أن أبقى متزناً كما تمنيتِ بعيداً عن التوتر. كنتُ مستمعاً جيداً لها، تماماً مثلما كنتُ منذ أن عرفتها. أستمع لكل ما يحدث لها. ولا أتحدث إلا في المفاصل، التي يتوجب عليّ أن أتحدث فيها، معرباً عن أسفي مما يحدث من أزمات، أو مبدياً محاولة جادة لبث الهدوء في نفسها. كنت لا أعمد إلى الإتصال، منتظراً رنة هاتف تنبئني بأنها ههنا. كنت في تلك الأيام، أمسكني أنا العاشق، من قامتي كلها وأحشرني في زاوية

مظلمة. وأدفع بقامة الصديق فيّ أمامها، لكي يكون الأمر أسهل. لكن قامة العاشق الذي رأى بها الحياة من جديد، كانت متمردة أكثر مما يمكنني السيطرة عليها. قامة ثائرة لا تأبه بشيء. غابت ليومين متتاليين، دونما سماع صوتها عبر الهاتف وهو يجيئني مليئاً بالخدر «صباح الخير حبيبي»

في المساء حاولت الاتصال لمرات دون جدوى، كان هاتفها مشغولاً بمكالمة أخرى. بعد ساعات جاءني صوتها معتذراً، وشارحاً حجم التعب الذي تعانيه، وأنها لا تستطيع الحديث إليّ في ذلك المساء. نمتُ تلك الليلة، وأنا أعاني مشاعر غامضة، تجتاحني. مشاعر قوضَت نومي، وأجبرتني على الاستيقاظ في الرابعة فجراً مصاباً بالقلق وبالأرق، اللذين كانا يشيعان بي الوجع.

سطوتها في تلك الليلة الساكنة الخرساء، جعلتني أعاود الاتصال مجدداً، وأنا مصاب بحمى تفتك بالقلب، لأني أعرف أنها لا تنام باكراً كعادتها، فوجدت هاتفها مشغولاً بمكالمة ثانية. أقفلت الهاتف، وعاودت الاتصال كل ساعة لأجد مكالمتها تستمر حتى طلوع الفجر دون انقطاع، تهدئ عبره من ألسنة النار التي تشتعل جوايّ بجنون. ردة فعلي في تلك الليلة كانت صراعاً داخلياً بين خالد الصديق، الذي يمكنه أن يهدهد فيها كتف التعب، وبين خالد الحبيب، وما بينهما مجتمعين، وبين الشرقي الذي يقبع جواي مقيداً بقيود الوعي تارة، وبين الوعي ذاته تارة أخرى.

مضت تلك الليلة، وأنا أكابد مشاعر غريبة، كادت تخنقني، وتضعني أمام مرآة تمنح وجهي شوكاً قاسياً. في الصباح، عندما

جاءني صوتها معتذراً؛ كنت منهمكاً في عملي الذي فقدت التركيز فيه مؤخراً:

- حبيبي كنت أتحدث لأخي، هناك مشكلة حدثت.

كانت تقولها بلكنة باردة مشوبة بالتعب بسبب عدم النوم طوال تلك الليلة. وكما فعلت في المرات السابقة، أقصيت قامة العاشق إلى حيث يصيبه الخَرس. ومنحت الصديق فيّ فرصة عظيمة لأن يتحدث دون أدنى درجة من درجات التعاطف مع ذلك العاشق البدوي الذي أشهر بندقيته بوجه الريح، وراح يطلق رصاصاً متوتراً طوال تلك الليلة:

- لا بأس يا حبيبتي. المهم أنك بخير.

- أحاول أن أكون بخير.

ثمة كلمات مقتضبة أنتهت بعدها المكالمة. فرأيت قامة العاشق جواي تفر من قيدها وتطلق صراخها الذي لاحت ملامحه على وجهي.

كانت قد ضربت أكثر من موعد لنلتقي، لكن المواعيد تتأجل، بسبب الأيام التي راحت تراها فيها بعد أسوأ أيام حياتها بسبب تلك الأزمات التي حدثت. لكن بعد أيام جاءني صوتها عبر الهاتف مشوباً بالهدوء:

- حبيبي هل لديك عمل هذا المساء؟ هل أنت منشغل؟ دعنا نلتقي إن أمكنك ذلك. ودعنا نذهب إلى جبل «نيبو» أريد أن أراك هناك. هل تعرف يا حبيبي ما معنى أني أريد أن أراك هناك؟

أريد أن أراك، وأرى «نيبو» لأتلذذ بكل الكلمات التي كانت تولد بحضن هذا الجبل. لكن يا حبيبي أنا لا أعرف الطريق التي تؤدي إليه. تعال إلى عمان وانتظرني على كتف الطريق الرئيسية، ثم تترك سيارتك هناك ونستقل سيارتي.

مع كل كلمة كانت تنطقها ثمة وردة كانت تنمو بباطن كف القلب إلى أن رحت أسمع حفيف الاخضرار في مكان قصي من جسدي وأنا أقول:

- سأكون بانتظارك عند الساعة السابعة بالضبط.

قلت ذلك ثم أنهيت المكالمة، ورحت أدور حول نفسي في مكان واحد. لا أدري من أين ابدأ. حينها رأيت كل الكلمات التي قلناها منذ أول يوم عرفنا فيه بعضنا البعض؛ تصير طيوراً تحوم في سماء الغرفة. رأيت كل حبي لها، اشتهائي، شوقي. كل تلك الأشياء تصير موسيقى تعزف في كل جهاتي. لقد كانت لحظة فرح لم أكن لأسمح لأي شيء، أي شيء مهما كان أن يشوشها. (يا إلهي ما أبطأ الوقت!)

كنتُ أردد تلك العبارة، وأنا أجلس مرة في سيارتي، ومرة أمشي بشيء من التوتر، الذي كنت أقتله بتدخين مستمر. كنت أهاتفها كل ربع ساعة، وهي في طريقها إليّ، فتوقفت خشية أن أصيبها بالتوتر. ثم أخذت أنظر إلى الساعة كل ثانية بعد أن تأخرت عشرين دقيقة عن موعدنا المرتقب. شملتني حالة من الهدوء، وأنا أردد أغنية فرنسية قديمة لرجل ينتظر حبيبته العالقة في الزحام، إلى أن وصلت سيارتها تتوقف بالقرب مني، وأنا ما أزال أدندن بكلمات تلك

الأغنية. خرجت من السيارة، وعلى وجهها ابتسامة ممزوجة بخجل شرقي، بقامتها التي رأيت فيها الانسجام بين الإحساس الناعم، الذي كان ينز من كلماتها خلال الليالي التي كان الفيس بوك شرفتها، وعبر مكالماتنا الطويلة التي تمتد حتى الصباح، بين تلك النعومة التي كانت تلوح لي، وأنا أراها امرأة، تعلن عن اكتمال أنوثتها.

بقيتُ ساهماً للحظات، وكأن هناك حالة تماهٍ، وتقاطُعٍ بين صورة رسمتها لها في مخيلتي، وبين حضورها الطاغي أمام عينيّ اللتين ترمقانها بكل دهشة. ثمة ارتعاشة للذاكرة تشبه محاولة تذكر فاقد الذاكرة لشيء ما، حدثت لي في تلك اللحظة. إحساس ما راح ينبئني بأنني رأيتها ذات يوم. لكنني أقلعت عن الإمعان بذلك الخاطر الذي فاجأني وأنا أراها تمد يدها للسلام. فاحتضنت يدي يدها وأنا مصاب بدهشة اللقاء. حينها سحرني فستانها الأزرق، كأنها تعلم أن اللون الأزرق هو خالق دهشتي. إذ بدا لي تحفة فنية، وهو يلتف حول جسدها، الذي كان باذخاً أكثر مما يمكن لرجل مثلي مصاب بالعطش أن يحتمل، كل تلك الأيام التي تراكمت في قائمة الغياب. إذ هبط الفستان بزركشاته، من على كتفيها، ثم انفتح قليلاً عند صدرها، الذي لاح لي حنوناً، وهو يعلن عن غوايته، التي لا يمكن أن تكون لأي أنثى بكل ذلك الألق الذي رأيته. ثم ضاق من عند خصرها، كما لو أنها امرأة لم تقطع شوطاً في العمر حتى تطأ الأربعين. ذلك العمر، الذي برهنت الطبيعة لي أنه العمر الذي يمكنك أن تشم الوردة فيه بكل روية، وتدرك ملمسها بصدق متطرف، تماماً كما تدرك كم عبث بدواخلك عطرها الذي يصير مع

تراكم الأيام عصياً على النسيان. إنه العمر الذي تكون فيه هادئاً، وأنت تعرف لمجرد ملامسة الأشياء، أنك بغير الحب، لا يمكنك أن تعيش حياة حقيقية، تقودك من أنامل قلبك نحو الكوة التي تطل على آلهة يطبخون الشموس ويمنحونها على أهبة الضياء. بدت تسريحة شعرها، كقصيدة نثرية، ليس أمامها أي عقبات للقول. عيناها اللتان كانتا تبرقان كأنهما كلمتان جميلتان قيلتا منذ أمد بعيد، وما تزالان تعيدان انتاج إيقاعهما الجميل، الذي يتكرس مع الزمن موسيقى أصيلة. رائحة عطرها، أطلقت جواي صرخة دهشة، كادت أن تنهر الدموع من محجريهما بفعل كل ذلك الجمال. فأدركت أن العطر ليس مجرد سائل يرش على الجسد. العطر الذي نشمه ليس ذلك العطر الذي اشتريناه من المتجر، وهو سجين لزجاجة مشفوعة برسومات وزركشات وبضعة أحرف وكلمات. العطر هو الإيقاع الذي يمنحه الجسد تحية لذلك الرذاذ الذي هبط على المسام. تحية لأجل أرواح الزهور التي أزهقت لأجل لحظة نشوى، وهنيهة فرح، تلك التحية التي عادة ما تجيء على شكل شِعْر كيميائي. إنها كيمياء الجسد، التي تعرف كيف تعيد إنتاج الأشياء الجميلة. فليس كل جسد يمكنه أن يرحب برذاذ العطر كما ينبغي، إنها فقط الأجساد التي يصيبها العشق ويفتك بها.

وأنا أقف أمامها مأخوذاً بها، كانت تراودني رغبة بأن أحتضنها. اقتربت نصف خطوة، فكشفت سري، وجمحت جنوني بابتسامة لطيفة:

- الناس حولنا. أعرف أنك لا ترى أحداً الآن سواي. لنؤجل رغبتنا إلى وقت ومكان مناسبين.

اكتفت بمصافحتي، ثم اتجهت إلى الجهة الأخرى من السيارة وجلست، كرغبة منها بأن أقوم بالقيادة. لكنني كنت في تلك اللحظة حريصاً بأن لا أضيع أي ثانية بما يشغلني عن رؤيتها. فتذرعتُ بأن السيارة حديثة، ولا أستطيع قيادتها. قلت ذلك، وأنا أدرك ما في تصرفي من أنانية غريبة، ولكنني لم أستطع تجاوزها.

ونحن نتوجه إلى «نيبو»، والسيارة تتبختر على الطريق التي تخلصت من زحامها، كنت أراقبها بشغف كأنني أتلذذ بكأس نبيذ معتق، يمنحني نشوة آسرة. وكانت هي تارة تنظر إلى الأمام لتبقي السيارة في مسارها، وتارة أخرى تنظر إليّ بينما يدي تحتضن كف يدها الذي كان حافلاً بدفء صار إزاء فصل الجليد الذي تشكل بي، كمقاتل عليه أن يبذل جهده كي يحظى بالنصر. لقد كانت لحظة استثنائية لم تحدث لي من قبل؛ لحظة عمّرتني بكل تلك السعادة وأنا أحس بأن سعاد لي. لي وحدي، بعيداً عن عوالم بيتها، عملها، وماضيها. إذ يصير العاشق في مرحلة من مراحل عشقه مرهوناً لمزاج طفل لا يود لأمه أن تبارح مكانها القريب منه. إنها ليست عقدة التملك؛ إنما هي تلك الحالة من التشبث بالحياة، التي لا تحدث إلا حين يقع الواحد منا أسير حب إما أن يقتله بكل برودة العواطف، أو يحييه بكل ذلك الإشتعال الذي يجيء من مسيرة الوصول إلى تلك النقطة المتوهجة.

كانت السيارة تسيل على صدر الطريق، بينما يدي الأخرى تتسلل إلى شعرها تتخلله، ثم تمسح جبينها، ووجنتيها، وأخيراً تستقر أناملي على شفتيها، وهي تبتسم ابتسامة لذيذة، لا يمكن لأي امرأة

أن تنشرها على وجهها دون الإحتفاء بأنوثتها بشكل مطلق. لقد كانت ترخي العنان لمزاجها الأنثوي، بحيث صار كل شيء استثنائي له طعم آسر. السيجارة التي كنت أنفث دخانها بتلذذ عميق، عطرها الذي كان يمنحني أجنحة حرية للتحليق، الموسيقى التي كانت تتبختر بيننا كغيمة على أهبة المطر. كلما ابتعدت قليلاً دون قصد عنها، تهمس بهدوء، كأنها تكابد انفعالات جوانية يصعب شرحها:

- لا تبتعد، حبيبي ابق ملتصقاً بي.

كان «نيبو» والسيارة تتبختر في الطريق راكضة إليه، قد أشعل نجومه للتو، ورفع ياقة القمر، فبدت ملامح الأشياء فضية. بينما أطلقت الريح تنهداتها المسائية مرة واحدة، فأشرعتْ نوافذ السيارة وراحت تعبّ نفساً عميقاً من الهواء وتردد بما يقترب من الغناء:

- آه ما أجمل هذه اللحظات التي تحتفي بها الجبال.

وأنا مثلما كانت تعبّ روحي نفساً عميقاً من عطرها الأثيري، ومن زخات الموسيقى، رحت أعب نفساً عميقاً من ذلك الهواء الذي كان طازجاً حد الدهشة، فكنتُ أشهق بمعيتها كأنني أجيء الجبل للمرة الأولى. حيث صار لي أن أدرك في ليلة مثل تلك، أن ما من رؤية حقيقية لمكان يصلح للذكريات؛ أكثر رهافة من تلك الرؤية التي تحدث للواحد منا بمعية امرأة تحبها بعمق كشهيق الصوفيين في رؤوس الجبال.

عندما ترجلنا على قمة «نيبو»، كان القمر قد مسح الكائنات بفضته، فبان كل شيء، كتفاصيل نهار لطيف، حفل بضوء مصاب

بالخدر. على طرف المنحدر، وقفنا نسرّح البصر بالمدى، الذي رقصت به أضواء فلسطين، تماماً كصبية يلعبون مع الليل لعبة كرة من نجوم. قالت وعطرها يلفح خدّ وجهي، ويثير بي الشهقة:

– السماء هنا صافية. كأن النجوم والشهب ما خلقت إلا لهذا الجبل.

كنت التصقُ بكتفها، الذي بدا لي وهو يمنحني حرارة اللمسة، وهي تتحدث كاتكاء جسد مليء بالعطش على نهر ملّ فكرة التدفق، ووقف يتأمل الأشياء:

– فلسطين ليست بعيدة من هنا. إنها على مرمى شهقتين. وعلى مرمى دهرين في الوقت نفسه.

تركت ليدي حرية أن تطوق عنقها، وأنا أحس بأنفاسها تتصاعد من عميق صدرها، ثم أشرت بإصبعي إلى فلسطين:

– هناك دم أبي الذي ما كان يحب بندقيته، إلا لأنه يحب الحياة التي كان يرى أن ما من أحد له الحق في أن يسطو على حق آخر فيها. عندما عاد ذات مرة من إحدى غيباته الطويلة في معسكره، أخبرني وهو يمسد شعري في فراش النوم، أنه لا يحب البندقية كما يمكن لصغير مثلي آنذاك أن يفهم شكل ذلك الحب. حينما كبرت ورحت أقلده وأنا اقف أمام المرآة أحلق ما تناثر في وجهي من الشعر، أدركت ما كان يرمي إليه جندي مثل أبي.

مشينا بضع خطوات، يدها تعانق يدي، نتبادل نكات خفيفة تجلب ضحكات متقطعة. ثم جلسنا متلاصقين. أشعلت سيجارتين

لنا ورحنا ندخن، حينها أطلقتْ آهة كادت، تصير غيمة تذرع المدى على مهل، ونحن نفترش التراب. ما إن احتضنت كف يدي يدها مرة أخرى، حتى أصيب قلبي بدوخان لذيذ أعدى جسدي بأكمله. فأخذ صدرها يعلو ويهبط، وقد التصقت بها، وأناملي تلامس وجهها، الذي لاح تحت فضة كان القمر يمنحها للكائنات كنوتة موسيقى صاغها جبليّ لامس قلبه العشق؛ فراح يحلّق كما ينبغي لمن امتلك جناحين حريين بالتحليق.

ثمة مساء رائق انساب في عينيها، تبدى لي عندما اقتربت شفتاي من فمها، وقبلتها للمرة الأولى فاحتضنتني، وأنا أوغل في إيقاع القبلة، وقد صار النفس واحداً، واختلط الرضاب بالرضاب.

وأنا أرخي رأسي على كتفها سمعتها تقول:

- عندما وطئت قدماي تراب هذا الجبل، وصرتَ على مقربة نبضة مني، شعرت أكثر من ذي قبل أنك لي، وأنني لا أمتلك الرغبة بالعودة للبيت، فأنا أخاف من واقعي يا خالد، ومن حياتي، التي صارت بلا معنى، وأنا بعيدة عنك، وقريبة من رجل لا يراني. منذ اللحظات الأولى، وأنا أتساءل: هل كل ما أحمله من عاطفة تكاد تأخذني حيث تسطر الطيور انفعالاتها، هي لك.؟

حينها احتضنتها، ورأسي يلامس نهديها الوافرين، بينما رأسها يرتخي على رأسي كشجرة ترتخي على كتف النهر. قالت حينها:

- ابق كما أنت منساباً على صدري. أنت لا تعرف كم أحبك الآن، وكم أشتهيك. إني أحبك إلى الدرجة التي بت أخاف فيها أن

تضيع مني كأنك لم تكن. وأشتهيك إلى درجة أرغب فيها أن أنهض الآن وأتعرى؛ لتمارس معي الحب هنا في حضرة «نيبو»، هذا الجبل الذي منذ عرفتك، وأنت تتحدث عنه. اشتهائي لك طاغٍ أكاد لا أحتمله. كأن رغبات بنات حواء قاطبة يجتمع فيَّ هذه اللحظة ويفتك بي. أحس به كيان يستخدم تفاعلاته الكيميائية، فيضغط أنوثتي باتجاه التوهج الذي يسبق الإنفجار. لكني لن أفعل الآن، كل ما أريده في هذه اللحظات أن نبقى كما نحن.

أخذت تشم شعري، تتكلم بنغم كما لو أنها تردد كلمات لأغنية تصيبها بالدوار:

- حتى لشَعرك رائحة تصيبني بالحب، وبالإشتهاء كما أصابتني كلماتك في البدء بدخوان الورطة باتجاه شراك الحب.

صمتت قليلاً، ثم عادوت الحديث كأنها تقرأ أفكاري:

- هل قرأت ما قاله فرويد بشأن الحب؟

لم تنتظر إجابتي، فراحت تقول، وكأنها تطرد أي هاجس يمكن أن يساور قلبي:

- فرويد يقول أن الحب هو الجنس بحد ذاته. وأنا أؤمن بذلك. أؤمن أن الحب بلا فسحة زمنية يمكننا عبرها أن نتذوق طعم ذلك الصدى الذي تنتجه رغباتنا، ما هو إلا ضرب من طقوس الوهم.

تذكرت في تلك اللحظة، ما قالت لي في ليلة من ليالي «الفيس بوك»، بأنها لا تحتفي بذلك النوع من الحب، الذي يحفل بكل تلك

الطقوس الكلاسيكية من وجع الفراق، ولهفة الوصال، والمكابدات الليلية لطيف الحبيب. وتحدثت مطولاً عن شكل الحب في الغرب، الذي لا يحفل بكل طقوسنا الشرقية، التي ترى الحب حالة أبدية مهما قطعت نياط القلب، أو أعطتها الحياة.

شعرت أن لها رغبة لحديث متواصل، لذلك كنت أتحدث بكلمات قصيرة لا تعيق انسياب حديثها:

- خالد؛ مجرد لمستك هذه، تجعلني أحس بأننا شيء واحد، وأنني معنية أكثر فأكثر بأن أبرهن لك كم أنا امرأة صارخة الأنوثة. طالما تهيبت من اللقاء الأول بك. خفت أن أكون في حضرة رجل غير الذي عرفته عبر كلماته في البدء. لكنني تأكدت الآن، وأنا أحتضن رأسك على صدري أنك أنت، أنت من أحببته قبل أن أعرفه. صدري الذي يحتوي قلباً، سيبقى مشروخاً كلوح زجاج إن غبت من حياتي، التي صار لها نكهة كدت أصدق أنني ضيعتها قبل أن أفكر بك، وأعرفك. صدري يشتهي شفتيك؛ لكي ينداح في روحي الحب أكثر، فأكثر. لكنني سأترك الرغبة للمؤجل، وأحتفي بالحب، الذي جاء بي من بلاد قلما تحتفي بحب من هذا النوع.

أشعلت سيجارة، ثم عاودت الحديث، ورأسي يستريح على صدرها، تماماً كغيمة على صدر سماء زرقاء صافية:

- أتعلم يا خالد بماذا أفكر الآن؟ إني أفكر بالأيام التي انسابت من بين أصابع العمر كحفنة ماء. والندم يصفع وجهي. لقد اخترت سجني بنفسي عقاباً على خطيئة غير قابلة للنسيان. أتساءل كيف سمحت لنفسي أن تمضي تلك الأيام دون احتفاء بأنوثتي، التي ضاع

جزء منها سدى. هذا مؤلم يا حبيبي لأنثى ترغب أن تعيش، وفي اللحظة نفسها عينها على رزنامة العمر، وكم تبقى منه. ما أتذكره أنني ولدت لأب فقير من أصول فلاحية، وأم طيبة ومثقفة من أصول مدنية، وبين عدد من الإخوة والأخوات؛ ولدتُ في حيّ شعبيّ في قاع المدينة، ذلك الحي الذي تتلاصق فيه البيوت إلى درجة يمكن للواحد منا أن يسمع مثلاً تنهيدة قادمة من بيت الجيران. حيث لا أسرار يمكنها أن تبقى دفينة كما ينبغي. فيمكنك أن تسمع صوت امرأة تتأوه باللذة، يأتي عبر نافذة لا تفصلها عن النافذة الأخرى إلا سنتميترات قليلة. صوت أم تشكو ضيق الحال عبر شتائمها الكثيرة وهي توجهها لأولادها الذين يوغلون في مطالبهم البسيطة. صوت رجل طاعن في السن يقرأ القرآن بخشوع ينهر الدموع في مخابئها. صراخ صبية يطاردون بعضهم البعض وهم يلعبون «الاستغماية». صوت شاب يدندن بمعية أغنية تفيض بلوعة الحب. صوت خشن لرجل يضرب ولده الذي أمضى نهاره بمعية «زعران» الحي. صوت باعة الخضار المتجولين، وهم ينادون بأصواتهم الجهورية مروجيين لبضاعتهم. صوت أبواق السيارات التي تبيع اسطوانات الغاز.

إنها تلك الحالة التي أنجزتها قوانين تتعلق بهندسة الأحياء الشعبية. قوانين خالفت تلك القوانين في أحياء الأثرياء. حيث يمكن للجيران أيضاً بكل سهولة أن يقرأوا أي تفصيل من تفاصيل أي يوم من أيامنا، تماماً مثلما نعيشها نحن. فالبيت الذي نشأت فيه، مليءٌ بالضجيج. صراخ أخوتي وأخواتي وهم يلعبون، وهم يتخاصمون، وهم يستعجلون الطعام. صوت أبي عندما يستشيط

غضباً بسبب سوء الحالة الاقتصادية. صوت أمي وهي تتذمر لكثرة الأعمال المنزلية، وشقاء السنين، التي لا تأتي بما نحلم به ببساطه. صوت التلفاز القديم وهو يبث نشرات الأخبار التي يصرخ عبرها القادة العرب لجماهير عطشى للحياة.

الحياة في الأحياء الشعبية يا خالد ليست كما يظن البعض، دوماً جميلة بما أنها تخلو من تلك القطيعة التي تتميز بها أحياء الأثرياء. وليست دوماً رديئة، بما أنها تحفل بتلك الحميمية بين أناسها، وحتى عابريها. كثير من الأشياء قابلة للإستعارة؛ الخبز، الملح، السكر، نكاشة بابور الكاز، الملابس، مفرمة الملوخية، رأس بصل، قليل من الزيت. حتى أحمر الشفاه وقمصان النوم يمكن استعارتها لليلة الخميس. أناسها فقراء وطيبون ولكنهم سرعان ما يختلفون. إذ أن كلمة واحدة قد تكون الشرارة الأولى لمعركة ضارية تسيل فيها الدماء ويسقط فيها الضحايا. وتولول فيها النساء، ويغيب فيها الشبان في السجون ليعود بعضهم تائباً، ونادماً، ويعود بعضهم شرساً وقد تحول إلى عاطل عن العمل، يحمل على خاصرته خنجراً يخرج بكبسة من الإبهام، أو شفرات حلاقة يخبئها حتى في فمه ويستخدمها حينما تشتعل نار المعركة التي عادة ما تكون لفرض السيطرة، في الزقاق. تلك الأماكن التي تنتشر فيها المخدرات، والحشيشة، وعلب «الآغو»، واللواط، والتخطيط لمختلف أنواع السرقات.

كانت والدتي بحكم تربيتها تحب القراءة، والموسيقى، رغم تعبها من سياط الفقر وانشغالها بعائلة كبيرة أهلكت بدنها مبكراً، فماتت وهي تحلم بحياة أكثر هدوءاً. عادتان ورثتهما عن والدها

الذي كان متعلماً في ذلك الوقت. لذلك حدثت لي تلك الألفة مع الكتاب، منذ الصغر. فرأيتني أهيم بروايات إحسان عبدالقدوس، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ. وتولوستوي.، وديستوفسكي. كان أكثر ما يستهويني في تلك الروايات تلك المشاهد التي إلى جانب تصويرها لمعاناة الناس؛ تصور الحب، وتشرح تلك اللقاءات العاطفية بين العشاق. فأدركت في تلك الأيام أن الحب قادر على تجميل وجه العالم وتهذيب أي نفس إنسانية، تماماً مثل الأدب والموسيقى. لم تكن أمي لتمانع هيامي بتلك العوالم رغم عدم رضى والدي عن علاقة بنت بمثل تلك الكتب يمكنها حسب رأيه أن تفسد أخلاقها. فالأخلاق في الأحياء الشعبية كانت وما زالت مفهوماً ينحصر بجسد المرأة، ورغباتها، بل حتى في غشاء البكارة، رغم أنه صار في الوقت الحالي يباع في الأسواق حيث يستثمر أصحاب الثقافات الأخرى مفاهيمنا نحو الحياة. فحرية المرأة دوماً كانت محط خلاف بين أمي وأبي وبالتالي بين أخوتي وأمي، الذين تأثروا بموقف والدي حيال ذلك الأمر. كان عليّ أن أبقى تلك البنت المطيعة لكل ما يطلبه الذكر. اجلبي لي كأس ماء. حضري الشاي. أريد أن «أتغدى، أتعشى» أتناول طعام الإفطار. ضعي منديلك على رأسك. هذا البنطال ضيق. هذا القميص مفتوح عند النهدين. لا تقفي عند النافذة. لا تتابعي هذا المسلسل الذي يتضمن مشاهد حميمة. لا تتأخري بعد انتهاء وقت المدرسة. ممنوع أن تذهبي لأي صديقة. ليس كل الصديقات مسموح لهن بزيارتك. البنت رأس مالها أخلاقها. في الوقت الذي لطالما رأيت أخي الأكبر يعانق بنت الجيران في الزقاق ليلاً. ويلعق نهدها من تحت القميص.

وعندما رأيته راح يهددني إن تجرأت وأخبرت والدي بذلك؛ سوف يعاقبني بشدة. إزاء كل ما يحدث لي كانت القراءة باب نجاة نحو الخيال. ففي الوقت الذي لا أقرأ فيه، أو لا يكون لدي مهمة من مهام المنزل التي توزعها أمي علينا بالتساوي مع باقي أخواتي، أبقى أستمع سرّاً لأغنيات صباح، وفيروز، وعبدالحليم حافظ وأحلم بشاب يختطفني في ليلة من ليالي الحي ويذهب بي إلى جزيرة لا تضم أحداً سوانا. لقد كان نوعاً من أنواع أحلام اليقظة التي نصاب بالخيبة عندما نصحو منها.

كانت بي رغبة عارمة للحب تستشيط أكثر عندما كنت أستمع لحكايات بنات الجيران، اللائي التقيهن سراً عن أبي وأخوتي. قصصهن عن الحب، وعن ما يحدث لهن مع من يصادقن من الشبان. كنت مستمعة جيدة إلى أن رحت رويداً رويداً أتخيل شكل القبلة، وطعمها. وأحس بلمسة اليد التي تفرك النهد، وأشعر بتلك المداعبات التي تفضي للرعشة، ذلك السرّ الذي لطالما قض مضجعي وأنا أتفكر بشأنه، حتى أنني تجرأت وسألت والدتي ذات يوم عنه بعد سطوة رجل زارني في المنام، تجهمت في البدء ثم ما لبثت أن تبسمت وأسرت لي بأنني ذات يوم سأعرفه أكثر في بيت الزوجية. لكنني وقفت ذات ظهيرة قرب المرآة التي تلتصق بجدار خزانتي عارية بينما المرآة تعكس بكل صدق صورة لجسدي بكل مفاتنه. رأيتني أغرمت بتلك التضاريس التي تختبئ فيها شهوات وأحاسيس عارمة، ما إن لامست نهديّ الواقفين كقباب حتى سرت رعشة في جسدي وراحت تكبر، وتكبر إلى أن رحت أتلوى في السرير وأحظى بالرعشة الجسدية الأولى.

ثمة شيء أضيف لقائمة رغباتي. واتساع بصفة الخيال قد حدث لي. الخيال أثناء الحلم بحياة بعيدة عن الضجيج، والفقر، والزقاق القذرة. ربما قراءتي لذلك الكم الكبير من الروايات جعل مخيلتي تستطيع أن تصنع حكاياتها الخاصة. رغبة عارمة بالحب تكبر بي، وتعززها تلك المشاهد التي كنت أحظى بها عبر نافذة غرفتي التي تطل على غرفة نوم لجارنا، الذي تزوج حديثاً في ذلك الوقت. إذ يغفلون أحياناً عن تحريك الستارة لتحجب العيون عن غرفة نومهما التي كانا يتضاجعان فيها لمرات كثيرة كانت تصل إلى ست مرات، بدأت تتناقص مع مضي الوقت بهما نحو تفاصيل أخرى في الحياة لا تشبه الحالة الوردية التي طالما يعيشها أي اثنين في بداية زواجهما في الأحياء الشعبية.

لم أكن أهتم بنوعية الطعام الذي نتناوله في البيت وغالباً ما يكون طعاماً بسيطاً، بقدر اهتمامي بجسدي وبشكلي وبملابسي قدر المستطاع. ثم بتلك الكتب، والأغنيات التي تمجد فكرة الحب. وقد اتضحت تلك الاهتمامات منذ الصفوف الأولى لي في المدرسة الواقعة قريباً من منزلنا والتي بقيت فيها إلى الصفوف الإعدادية أنكب خلالها على حصد علامات تحصيل علمي متقدمة، لأنتقل بعدها إلى مدرسة أخرى بعيدة عن البيت يستلزم الذهاب إليها ركوب حافلة عمومية ثم المسير لبضعة أمتار نحوها.في الطريق إلى المدرسة؛ تلك الفرصة السانحة للخروج من سلطة المنزل، وقوانينه الصارمة كنت أستمتع بتلك الكلمات التي تجيء على محمل الغزل والتي يطلقها الشبان الذين يتربصون بالفتيات، وهم يصفون تلك

الأنوثة التي أتمتع بها، وتلك المشية التي كانت كلما تمهلت بها تثير ما تثير من عواصف تلك الكلمات الغزلية. كنت أراقبهم وهم يتشاكسون، أراقب وجوههم واحداً، واحداً وكأنني أبحث عن وجه ذلك الرجل الذي تشكلت صورته في مخيلتي على مهل، كلما توغلت في القراءة، وفي حكايات بنات الجيران، وفي الأغنيات، وفي أحلام اليقظة، وفي تلك المشاهد التي تحدث بين الزوجين السعيدين في حيّنا. لكن ما من أحد منهم قرع باب القلب ليخبرني أنه هو؛ ذلك الرجل بعينه الذي حلمت به على مدار سنين منذ أن تفتحت أنوثتي المبكرة.

ذات صباح شتائي كان المطر فيه مجنوناً ولم يكد أحد يستطيع أن يواصل المشي في الشارع، الذي كنت أعبره متأخرة عن موعد المدرسة في أواخر سنينها. وكانت الرياح تركض في المدى بكل تطرف. فجأة انهار سور بمحاذاة الشارع فأغلقه تماماً بحيث لم أستطع أن أواصل طريقي. فقد كان المطر غزيراً والرياح عاتية تأتي على كل شيء، فصارا يحجبان حتى الرؤية. ثمة سيارة توقفت على يمين الطريق ومن وراء الزجاج وأنا أتعثر بخطواتي وأصارع الرياح، راح سائقها يلوح لي ويشير لي بأن أحتمي بداخل السيارة. لم أفكر لحظتها بتلك المخاطرة التي من الممكن أن تأتي بالمجهول لفتاة تحتمي داخل سيارة لا تعرف صاحبها. كنت مبتلة جداً وأرتعش من البرد، كان يناولني محارم ورقية كنت أجفف بها وجهي، بينما الدفء في السيارة بدأ يتسلل إلى جسدي، عندما كان الشارع يخلو من مرتاديه في لحظة مجنونة كتلك. كنت ما أزل أكابد بقايا البرد عندما

بدأت أحس بأن ثمة موسيقى راحت تنطلق من مسجلة السيارة، التي أدارتها يد ذلك الرجل الذي كان يمسك بيده الأخرى سيجارة يصعد خيطها إلى أن يتلاشى على سقف غرفة السيارة.

- هل بدأت تحسين بالدفء؟

جاءني صوته الرجولي الدافق هادئاً، ومحملاً بنبرة موسيقية كلاسيكية. فقلت له وأنا أنظر بوجهه للمرة الأولى منذ دخلت السيارة:

- نعم، أشكرك.

صوت ما جاء من مكان في القلب، كان يشي بأن ذلك الرجل الغريب الذي أجلس بمعيته في السيارة وأحتمي من جنون المطر، هو ذاته الرجل الذي تعلقت صورته على صدر جدار في القلب. كانت رائحة عطره تختلط مع رائحة سيجارته فتخلق بي ذلك الشغف الذي اشتعل بي منذ رأيته للمرة الأولى. كانت نظراته التي جاءت لي عبر عينين زرقاوين واسعتين وهو يتحدث لي كأنها يد تسحبني نحوه.

- في الحقيقة خفت عليك من أن يصيبك الأذى. الطبيعة عندما تجن تؤذي حتى نفسها.

كنت جاهزة للحب، كتراب ينتظر الشتاء:

- خفت عليّ أنا؟

- نعم عليك أنتِ.

– هل تعرفني من قبل؟

– أراك كل يوم كالفرس تتقافزين، وتعبرين الشارع نحو المدرسة.

– كالفرس؟

– نعم كالفرس. ألم ترين فرساً تمشي؟

– رأيتها على شاشة التلفاز.

– نعم إنها تمشي تماماً كلحن الموسيقى في بدايات الأغنية.

– الموسيقى؟

– ألا تعرفينها؟

– أحبها. أحبها جداً.

بدا لي أنه يكبرني بأعوام، وأنا أنصت له وهو يتحدث بثقة لم تكترث لجنون الطبيعة الذي حشر الناس في منازلهم، بينما بريق في عينيه كان يأسرني، ويجعلني أحس بأنني حمامة بيد صيادها يداوي جناحها، وهو يهمس لها بحنو فتتعلق به. مضت نصف ساعة دون أن أعي أن المطر قد توقف عن الهطل وأن عربات البلدية قد فتحت الطريق أمام المارة.

وأنا أهبط من السيارة أعطاني رقم هاتفه مكتوباً بخط يده في ورقة صغيرة، وهو يقول لي:

– هذه اللحظة لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر. دعينا نتذكرها دوماً.

منذ ذلك الحين صار لأي لحظة تمر في حياتي معنى مختلف. أدركت أن الحب وحده هو القادر على أن يجعلنا لا نرى سوى المسرات. بينما تتوراى الهزائم وراء جبل بعيد.

رحت أكبر على يديه كقطة جميلة كما كان يحلو له أن يردد دوماً. أكبر كأنه أبي بكل ذلك الحنو فقد كان يأخذني كل يوم للمدرسة، ويملي علي أوامره التي كنت أتلقاها بكل ذلك الفرح الغريزي الذي يمكنه أن ينمو في صدر امرأة تحس بتلك الرعشة، كما لو أنها عصفورة في قبضة يد قوية ولكنها يد جميلة.

حتى بعد أن ابتدأت مرحلتي الجامعية كنا نلتقي بشكل يومي إذ كان أول عهدي بالرجال، حيث أدركت معنى أن تلوذ الأنثى بحضن رجل يطوقها بذراعيه، ثم يدربها على القبلة، وعلى أن يتعارك الجسدان في السرير دون المساس بعذريتي. كنا نتعرى في السرير نمارس ذلك النوع من الجنس الذي لا تفقد فيه الأنثى عذريتها. كلما رأيته مصاباً بذلك الجنون الذي كان يدفعه لفض بكارتي اصدّه وأحنو عليه أكثر فيرتعش ويهدأ.

كنت لا أخطو خطوة واحدة إلا بعد أن يوقع لي على طلب ما أريده عبر صوته الأجش نوعاً ما، إما بالقبول، وإما بالرفض. في البدء لم أكن أتبرم من أوامره الكثيرة، لكنها فيما بعد صارت تشكل لي عبئاً بينما أصبحت أحس بأنني حمامة مربوطة بخيط في يده كما تقول الأغنيات. عندما شعر بأنني وصلت إلى تلك المرحلة قرع باب بيتنا وتقدم لخطبتي. ولم أكن أعي لحظتها أنني ربما أكون مجرد شيء

يمتلكه، شيء عليه أن يبقى نصب عينيه وهو ينمو، وهو يتحرك، حتى وهو يفكر.

إلا أن تلك الخطوبة انتهت بانتهاء المرحلة الجامعية. تماماً كأن ما يحدث لنا ما هو إلا مرحلة، ما إن تنتهي حتى تبدأ مرحلة غيرها.

ذات يوم بدأ يتنصل من لقائه بي. كان واضحاً أنه لا يقول الحقيقة وهو يدعي سفراً ينجز به عمله. لكنني ما إن اقتربت من منزله ورأيت سيارته مصطفة في مكانها، حتى تأكدت أنه داخل البيت. كان قلبي يخبرني بأن شيئاً ما سيحدث وأنا أصعد درجات السلم نحو شقته التي عندما قرعت بابها، أطل علي مذهولاً من مجيئي في ساعة ليلية كتلك. ثمة امرأة لمحتها تحركت في الداخل وهو يتحدث لي مذهولاً عند الباب. ما إن دفعته جانباً وعبرت حتى اكتشفت بأن صديقتي عارية في سريره . صديقتي التي طالما التقينا بها وأصبحت شريكاً لنا في لحظات تنزه كثيرة.

لم أستطع في ذلك الحين أن أنطق ولو بكلمة واحدة. بقيت أسيرة تلك الحالة لعام بأكمله، ذلك العام الذي كان قد مضى على انفصالي عنه. لقد غاب دون أن يصلني أي خبر حوله. ضاقت عائلتي بتلك الحالة التي أصابتني دون أي علم لديهم بحقيقة ما حدث. وبدأوا يجربون بي كل أنواع التداوي، بالبخور، وطرق طرد الجن، وبالماء المقروء عليه آيات قرآنية، ومحاولات الأطباء النفسيين. لكن ما من شيء استطاع أن يخرجني من صمتي الطويل سوى مشهد جاري السعيد وهو يضاجع زوجته في وقت الظهيرة بينما كانت

الشمس تمارس طقسها التموزي المتوحش على بدن الحي، الذي لاذ أهله في تلك اللحظات بمنازلهم سعياً وراء الظل، وشيئاً من البرودة. ما إن رأيتهما يرتعشان باللذة وأنا أراقبهما حتى رحت أمزق، وأحطم كل شيء في غرفتي، كاسيتات الموسيقى. الروايات، دواوين الشعر، وملابسي. كنت أصرخ في تلك اللحظات دون أن أعي أنني استرجعت قدرتي على الكلام. حينها رأيت أفراد العائلة يلتفون حولي يصيبهم الذهول مما رأوه، ويصيبهم الفرح بسبب عودة قدرتي على النطق. في تلك الليلة التي بسببها خرجت عن قانون العائلة التي صار معظم أفرادها يسقطون علي صفة الجنون، نمت باكراً، وصحوت قبيل الظهر، لأراني مصابة برغبة عارمة للخروج من المنزل بشكل يومي، وهذا لن يتحقق إلا إذا وجدت عملاً لي، وبالفعل عثرت على وظيفة في دار نشر، عملي فيها أن أدقق المخطوطات التي سوف تطبع، وأحررها، بصمت دون أن أتحدث لأحد. تلك الوظيفة أتاحت لي الفرصة أن أقرأ كثيراً من الكتب في السياسة، إذ أنني اشترطت على مدير الدار الذي راقت له أنوثتي حينما وافق على تعييني لديه، أن لا أعمل على أي كتاب له علاقة بالحب. انعطافة عجيبة حدثت لي نحو الحب، والرجال، وحتى الأغنيات العاطفية. تغيرت مشيتي، ونمط ملابسي وطريقة كلامي، وقصة شعري، لأصبح أقرب إلى الرجال في طريقة حياتهم أكثر مما أنا أنثى. لذلك كف مدير دار النشر وآخرون عن ملاحقتي وهم يرونني أشعل السيجارة من سيجارة أخرى، وأرتدي بنطال جينز، وأرتدي قميصاً فضفاضاً، وحذاء خفيفاً، ولا أتحدث إلا في السياسة التي أصبحت مدار تفكيري.

فجأة لاذت سعاد بصمت كانت تداري فيه لعثمة، أثارت استغرابي، لعثمة لم يعد لك قدرة على مداراتها. قلت لك ورأسي ما يزال على صدرها الذي أعلن عن نبض متسارع:

- أكملي أرجوكِ.

قالت وهي تحاول التغلب على كلماتها التي دب بها ارتعاش واضح:

- حينها انضممتُ للحزب. فوقعت في الحب مرة أخرى.

توقفت مجدداً عن حديثها وراحت تضمني إلى صدرها أكثر وأنفاسها تتعالى بينما كانت تردد بهمس حانٍ كأنها تتحدث فقط لنفسها:

- أحبك، أحبك، أحبك.

عندها رفعت رأسي عن صدرها، واحتضنتها، أجشهت بالبكاء، وهي تتساءل:

- إلى أي درجة تحبني يا خالد؟

قلت وأنا ما أزال رهينة ذلك الاستغراب:

- إلى الدرجة التي أسامحك فيها على أي شيء يا سعاد.

لحظتها أمسكت وجهي بيديها، وهي تردد بما يشبه الأنين الذي يسبق لحظات الاعتراف بالخطيئة:

- أي شيء؟ أي شيء يا خالد؟

– أي شيء يا سعاد.

حينها راحت في بكاء مرير، بعد أن فرغت منه، مسحت دموعها بأناملي، التي بانت كحبات لؤلؤ؛ بفعل نور القمر الذي انعكس عليها، ذلك القمر الذي صار شاهداً، عليه أن يدلي بشهادته ذات يوم بشأن حكاية بقدر ما فيها من عسل الحب، فيها مرارة لاذعة.

بدأ الذبول الذي اعترى عينيها يتراجع منسحباً برويّة، فرحت أقبلها بكل رغبة، كأنني أهم بكتابة قصيدة طالما انتظرت كتابتها. بادلتني القبلات بكل اشتهاء، كأنني سأضيع من بين يديها في تلك اللحظة ميمماً جهة الغياب.

قبل أن نغادر الجبل أخذنا نعبىء البالونات التي أحضرتها لأجلها، بالهواء ونطيرها. تلك البالونات التي كنت أعرف من خلال حديثها كم تحبها، وتحب تلك الطفلة التي لن تشيخ ما دامت تتقن تأمل الوقت بتلك الروح التي ما انفكت تثير بي الدهشة. صارت طفلة تود لو تركب صهوة الهواء، وتلحق بتلك البالونات التي ما إن تصعد في الهواء؛ حتى تبقى تتلاشى بروية أمام ضوء القمر، تماماً مثل كثير من الأحداث التي تبدأ هادئة، ثم ما أن تصل إلى نقطة التوهج؛ حتى تبدأ بخفوت يقودها إلى التلاشي.

بقيت تتقافز وقد هشّمت أربعين عاماً من عمرها، وعادت تلك الطفلة ذات الجديلة التي تشبه ذيل مهر حرون. وكان «نيبو» في خدر ذلك الليل قديساً حانياً يصفف ريش أجنحتنا بحكمته الطرية. بقينا نحلق كما لو أننا ولدنا للتو، ونحن نذرع صدر الجبل نطارد البالونات الملونة، وقد تركنا وراءنا عالماً يضمد جراحاً نازفة، هاربين نفتش عن زمن يمكنه أن يصنع زمناً جديداً صالحاً للحياة»

لقاء على وسادة المطر

ألقمت المسجلة كاسيتاً آخر لعزف منفرد على آلة التشيللو، وعدت إلى الكرسي أسلّمُني لاهتزازه الذي جلب لي مشهد الأشجار وهي تهتز بفعل تنامي حركة الرياح. أغمضت عيني مستسلماً لفيض الذاكرة وقد استحضرت رداد حينما جاء بغتة، كما يجيء دوماً. لكنه لم يملأ البيت ضجيجاً كعادته. كان قد قرع باب الغرفة ثم دخل وعلى وجهه مسحة من أسى، وصمت غريب. تبادلنا التحيات بشكل سريع وباهت وصمتنا. قدمت لنا جدتي فنجاني قهوة وغادرت. كان يجلس في الكرسي الهزاز عندما مالت الشمس وراء أشجار الزيتون المعمرة حول البيت، وتسللت خيوط ضوء خلال الأغصان، فعبرت نافذة الغرفة، وسقطت على وجهه، وهو يلوذ بصمت ثقيل لم أعهده من قبل، والسيجارة في يده، شارفت على الانتهاء، دون أن يسحب منها نفساً واحداً. كنت في تلك اللحظة، أطرد من سماء البال شبح المعتقل، وذلك السؤال الذي ما انفك يطرق باب دماغي، دون أي إجابة، تجعلني أنعم بشيء من الهدوء. من الذي لفق لي تهمة اختزلت زمناً من عمري في معتقل حتى الصحراء تجفل من وقوفه المرعب وسطها؟

قلت، ورداد يطفىء سيجارته في المنفضة، التي بدت كمقبرة جماعية تحفل بالجثث:

- لم أسبب لأي شخص أدنى أذى حتى يقدم لي على طبق خفي تلك التهمة يا رداد.

في ذلك الزمن، كنا نحلم أن نزيل الأوساخ عن جبين العالم، نسند قامته، نجبر تلك القدم التي يسير بسببها مترنحاً. كنا نحلم عبر ذلك النزق، الذي كان يتبدى في كتاباتنا، في أصواتنا، التي كانت تشق الهواء الساكن، وهي تهتف للحرية، في مواجهاتنا اليومية، مع كل من يرانا نحرث البحر. صدقني يا رداد، أرى الآن أنني كنت أحرث البحر. منذ أن خرجت من المعتقل، لم يزرني أحد من رفاقي القدامى، الذين صاروا يتفننون بارتداء ربطات العنق، واقتناء الويسكي الفاخر، والسيجار الذي تكور على سيقان العذارى. أراهم على شاشات التلفاز، بعد أن كفروا بما يما آمنوا به، يرددون نفس المصطلحات، نفس الكلاشيهات. لكن ثمة شيء غائب في نبرتهم، لم يسأل عني أحد. صدقني لست مهتماً بسؤالهم. ما يحيرني هو سؤال يؤلمني كمخرز كل يوم، يخترق دماغي منذ أن تدبرت أمرك، وأتيت تزورني في المعتقل.

سرّح بصره عبر النافذة ثم قال وغصة تلوح في كلماته:

- لا تعوّل على شيء بهذه الطاقة التي تعتريك يا خالد. أنت تقتل نفسك دون أن تعي يا صديقي. صدقني أنت تقتل نفسك، دون أن تدري أن بعض الأحلام تجرّك من ياقة روحك نحو الهاوية التي حتى وأنت تهوي عبرها بين تلك الحافة للبئر وبين القعر؛ لا تحس خلالها بألم السقوط. أعرفك يا خالد جيداً. أعرفك. حتى ألم السقوط يبقى يقتلك على فترات.

كنت أصغي له، وأنا أتذكر ملامح وجهه، وهو يخبرني عندما زارني في المعتقل، أن امرأة لفقت لي تلك التهمة. لكن كلما تشكلت إجابة في البال حيال ما حدث لي أتحاشاها، فرداد صديقي الوحيد الذي لم أرغب في التفريط به. فهو لا يعول على شيء البتة. كان قد أحبّ (عفاف)، التي حسب قوله أهدته جرحاً في خاصرة القلب، وغابت، ثم راح بعد ما حدث له، يتنقل بين أحضان النساء، دون أن يصطحب معه أي امرأة إلى تلك اللحظة التي تسبق خدر الإغفاءة.

كان قد انضم أيام الجامعة إلى الحزب الذي أنتمي إليه، لكنه كفر به ليلة أن رأى أحدهم يهبط من سيارة، يقودها رجل أمن، وهما يتضاحكان. من يومها ما أنفك يردد:

(السياسة عاهرة قذرة، وأنا رجل لا أحب العاهرات)

بعد ذلك، فكر بأن يتجه للكتابة، فقرع باب مدير التحرير في الصحيفة، وهو يحمل صفحات من قصائد كتبها في أوقات متقطعة، ما لبث أن رماها في سلة المهملات، بعد أن لمس أن وراء كل اسم لامع شيء غامض. ثم أقلع عن حلمه بأن يصبح شاعراً ذائع الصيت، مكتفياً بنسائه اللواتي يقرأ لهن القصائد في شرفة السرير.

- لا تنتظر أي شيء يا خالد سوى أن تعيش اللحظة؛ أي لحظة بلا ألم، وهذا يتطلب منك طاقة بلون وشكل جديدين غير ما تدخره في قلبك الرقيق. إنه زمن الزيف يا صديقي، فلا تسمح لهذا الزمن أن يشوه باطنك.

أشار إلى الشمس التي كانت تخلع ثوبها وراء الجبل تتهيأ للمبيت، وأضاف:

- ألا ترى أن اليوم انتهى! كم ساعة ستحسبها في حسبان السعادة من ضمن ساعات هذا اليوم الذي رحل؟ ثب إلى رشدك أيها المجنون.

قلت بإلحاح:

- من لفق لي تلك التهمة يا رداد؟

انتفض من كرسيه، وراح يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، أشعل سيجارة أخرى، وراح يدخن بعصبية شديدة بدت نافرة من وجهه كعاصفة مفاجئة:

- خالد، إلى متى ستبقى أسير هذا السؤال. الذي حدث قد حدث، عليك أن تقصي هذه القضبان الجديدة التي تعتقل نفسك داخلها. ما الفائدة إن عرفت من لفق لك تلك التهمة. صدقني، ليس هناك فائدة. عليك أن تقبل على الحياة كما ينبغي لشخص ضاع عمر من عمره.

قلت وقد أصبحت متيقناً، من أن رداد يعلم من وراء تلك التهمة، إن لم يكن هو:

- بهذه البساطة يا رداد! أنت منذ أن صفعك المحقق يوم كنا في الجامعة آنذاك، أدركتَ أنك غير قادر على المضي بتلك الدرب. أرحت قلبك من كل ما كان يمكن أن يحدث لك. أما أنا فكان الحلم يدفعني لتجاوز أي شيء. أمّا أن يلفق لي أحد رفاق الحلم تلك التهمة، فهذا ما يجعلني أخسر رهاني على كل هذه الحياة.

بدا رداد متلعثماً، وهو يحمل صينية الشاي التي قدمتها جدتي، ثم انسحبت، وهي تتمتم بأدعيتها الخاصة. سكب كاساً من الشاي، وأشعل سيجارة ثم بدا عليه أنه يحاول جاهداً أن يقصي ذلك المزاج العصبي الذي اعتراه في تلك اللحظة:

- يا خالد هذا مجرد رأي سمعته، وأندم الآن أني أخبرتك به. كل ما سمعته أن امرأة لفقت لك تلك التهمة.

- امرأة؟ من تكون؟ ولِمَ تفعل بي ذلك كله؟ تعلم يا رداد أنني لم أكن على علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالنساء حتى رفيقات الحزب. وتعلم سر اقصاء نفسي بعيداً عنهن. ما كنت لأحتمل صفعة أخرى.

- رفيقات الحزب. لا ، لا. دعك من الخوض في أمر تلك المرأة يا خالد.

أشعل سيجارة أخرى، وأخذ ينفث دخانها، وهو يخفي علامات ألم خفي، بدأت في تلك اللحظة، تلوح على وجهه، ثم قال:

- ألم تقل أن وجود سعاد في حياتك، بدأ يختزل ذلك المعتقل الذي تحسه ينبض في صدرك. وأنك ما عدت تفكر بأمر تلك التهمة؟

كنت أراقب ملامح وجهه وأتبينها جيداً:

- نعم أحس بذلك. لكني بت أشعر بمتناقضات، ما عادت طاقتي التي أهدر نصفها المعتقل، تقوى على تحملها.

اقترب مني، وهو يضفي على وجهه ابتسامة متوترة:

- ها أنت تقول نصف طاقتك. صدقني، أن هنالك من يعيشون برئة واحدة. ما بالك وأنت تتحدث عن طاقة يمكن للحياة أن تجددها.

دون مقدمات طرحت السؤال الثاني وأنا أدرك أن ثمة حلقات مفقودة تقودني لفهم ما يجري:

- من هي المرأة التي التقيتها في مقهى البيغال في باريس وقلت أنها تعرفني بينما لا أعرفها؟ ولماذا يراودني شكٌّ بأنها المرأة نفسها التي سمعتَ بأنها لفقت لي التهمة؟

رنات هاتفي قطعت سياق الحديث. وكانت سعاد. كان صوت سعاد في تلك اللحظة المشوبة بالقلق جرعة ماء هبطت في فم جاف لفرط العطش:

- حبيبي، أنا في البيت، أنتظرك بكل شغف.

ما إن سمعني رداد وأنا أهاتفك، ورأى تلك الارتخاءة التي كست وجهي؛ حتى حمل معطفه وغادر وهو يردد:

- اذهب واصنع حياتك من جديد.

يا الهي كيف كان لمخيلتي أن تتوه عن ربط الأحداث حتى أفهم ما يجري! امرأةٌ التقاها رداد في المقهى، وأخرى لفّقت لي التهمة، وثالثة يُقرع هاتفها في سياق الحديث. يحدث ان نتوه عن ربط الأحداث فعلاً.

انطلق رداد بسيارته مسرعاً على الطريق، وتبعته متجهاً إلى «عمان»، عبر الطريق حيث بدت الأشجار تهتز بفعل الرياح على جنباتها كجنود اخضرار، كنت في تلك اللحظات أرتب الفوضى، التي بدت تحدث في دواخلي، وأنا بصدد لقاء أول. لقاء جسد لجسد. كأن الزمن يرتب لي الحياة معها عبر مراحل ومحطات.

* * *

وأنا أغلق باب سيارتي ورائي أمام بيتها، في تلك الليلة، التي شهدت لقاءنا الأول، بعد انتظار طويل، وأفتح مظلتي اتقاءً للمطر الغزير الذي كان قد سقط للتو؛ أوصدت باباً كبيراً على كلّ تساؤلاتي، التي بقيت تقلقني كشوكة حولية، تنهر قلبي بقسوة رغم أن ثلاثة وجوه لثلاث نساء في امرأة واحدة ترافقني. قلبي الذي صار رهناً لأقسى اختبار يمكن أن يواجهه واحد مثلي، ينتمي لقرية ما زال أهلها يعتقدون أن الشمس تنام وراء الجبل. قلبي الذي حينما بدأ يستشعر شحنات داخلية تعصف بشرفة الحواس، استند من سكونه، تماماً كمريض ما إن سرى في أوردته الدواء وقاوم الداء؛ حتى صارت لديه رغبة بأن يرى الشمس، التي ترسل أشعتها من وراء ستارة النافذة، لكي تبعث في روحه مزيداً من الحياة.

كانت تداوي قلبها بي من صدى لوجع قديم، مهما حاولت التنصل من تغلغله في دمها، إلا أنها تدرك أن ذلك التنصل مجرد ضرب من الوهم. لذا وقعت على قلبي كحلّ لما هي فيه.

مهما كان ذلك الحل مؤقتاً بالنسبة لها؛ إلا أنها رأت أنه قد يمنحها شيئاً من النسيان. هكذا كانت تفكر، وهي تدرك أن صباحاً

ما، سيأتي ذات يوم وهو يحمل لي النّبأ، الذي طالما خفت من وقع سماعه على قلب ما عاد يحتمل مزيداً من الخسارات. النبأ الذي صارت إشاراته الأولى تتجمع ببطىء، وتمنحني إجابة ناقصة. تدرك، على الرغم من توسلاتي المتكررة، بأنني فاقد للطاقة، التي تعينني على تحمل أية صفعة من تلك الصفعات، التي تبدو من خلال نتائجها، وحشية أكثر مما ينبغي. رغم أني أدركَ أن قلبي لها وحدها، إلا أن صوتاً ما كان يمنحني وصية تقول، لا تطرق باب امرأة بقصد الحب وفي سرير قلبك امرأة أخرى. تخلص من خساراتك ثم احملها كما تحمل الريح بدن الغيمة، إلى سرير قلبك الذي عليه أن يكون لها وحدها. إنه الهاجس الموجع الذي كنت أطرده كلما أفرط في احتلالي.

* * *

بخطوات متثاقلة، صعدت الدرجات الذاهبة نحو بيتها الفاخر، الذي صرخت ذات يوم وهي تقف حزينة في منتصفه متسائلة، بعد أن أنفقت كماً من المال فيه، عن عدم جدوى وجوده دون رجل، يدرك كينونتها كأنثى، عليها أن تكون بمعية رجل يحبها، وتحبه كما تحبّ حبوبُ اللقاح الزهور. كنتُ أدرك السبب، الذي جعلني أغلق الباب ورائي على كل تساؤلاتي، وأشعر أنني ضحية تناقضات لا يمكن حسمها عبر قلب أحبها كما تحبُ الحقولُ حباتَ المطر، وهي تهطل على ترابه مبددة سطوة العطش. تناقضات كانت تخلق جزءاً كبيراً منها، وهي تقترب مني، دون أن أدري أنها تعيش زمن الذاكرة، التي تتمنى الخلاص منها حتى تعيش كأي امرأة عادية.

كان هطل المطر خارج البناية غزيراً في تلك الساعة من الليل حين هبط على «عمّان»، التي وقفت بناياتها على جبالها السبعة، فبدت كجنود كونيين يحرسون المكان. تتنفس المدينة الصعداء، وهي تغتسل مما علق بها من أدخنة العربات، والمصانع، والغبار، الذي هاجم المدينة بشكل كثيف، حجب الرؤية، وخلق كثيراً من الأزمات.

عندما امتدت يدي وقرعتُ الباب، كنت أدرك أنني أقرع باب خياري الأخير، وباب امرأة مسكونة بالأسرار. امرأة انتهجت أقسى أشكال الازدواجية، التي يمكن لها أن تخلق أفظع الكوارث الآدمية. لكنني كنت مسكوناً بها أكثر مما أحتمل، معنوناً بها أكثر مما يمكنني أن أصف، مهموماً بها ، تماماً كرجل سطا به سحر ما لا يمكن الفكاك منه. لذا ما إن فتحت الباب الذي أنّ أنيناً خفيفاً كشيء من أنين قلبي، وأطل وجهها باسماً وهي ترحب بي (أهلين حبيبي) حتى انقدت بعلاقة الغالب بالمغلوب يصيّره في مرحلة الوجع تابعاً لغالبه

بقيت لدقائق عند الباب أراقب وجهها، وأتحسسه بأناملي، وفي داخلي غيمات تهطل مطراً غزيراً كالمطر الذي كان في تلك الساعة يسح على زجاج النوافذ كما لو أنه يدرك أن قلبي يحتاج للمسة نقية تجعله يقف على قدميه، ويمضي خطوات إلى الأمام.

في ردهة القلب كنت أعلم أنني قيّدتها بحبي لها، وأعطيتها المفتاح؛ حتى يتسنى لها أن تتحرر متى شاءت ليس تحرراً يعني أن تتخلى عما ولد بيننا من حب. بل التحرر الذي يصبح فيه الحب فضاءاً فسيحاً، لا جدران تخنق عالمها الخاص. إذ أعي أن الحب لا

يحدث إلا لاثنين بكل جدارة العاطفة يقتحم كل منهما عالم الآخر الخاص. حيث تتلاشى الحدود، وينمو مكانها احترام لم يُكتشف بعد في عوالم الشرق، التي يموت فيها بسبب مكابدات العشق كل عام، ما يلفت القلب إلى أننا ما زلنا بحاجة إلى أن نقوض عرش الحب في زمن الشرق، الذي أقحلت حقوله ولا بد من ربيع عربي آخر يكون فاتحة لزمن جديد. فلا يمكننا أن نبدل حال البلاد ما دمنا بكل هذه الرجعية في العشق. فقد صار لزاماً علينا أن نتعلم كيف نحب؛ حتى ننجز ثورة حقيقية.

بعد أن أمسكت بيدي وأخذتني للداخل وأغلقت الباب. قالت وهي تحرر وجهها من أناملي التي بقيت تقرأه بكل عطش:

- هيا سأريكَ أرجاء البيت.

كنت لحظتها استسلم لسكينة لم أعهدها قط. إذ حركت رأسي مستجيباً لما قالته. فخلعت عني معطفي، وعلقته على مشجب قرب الباب، وأنا أراقب تلك الابتسامة، التي تميل بشفتها السفلى إلى اليسار قليلاً، فيصير وجهها أجمل. أمسكت بيدي تشرح لي كيف بنت البيت، وتعرفني على أقسامه. كنت أراقب وجهها الذي بدا طفولياً أكثر من ذي قبل، وأراقب عينيها اللتين تشبهان البحر عندما تخلد الريح إلى نومها، وتخرج الشمس من وكرها، تمشط أمامه جدائلها الذهبية. إنها حالة السكون اللذيذة، التي تمنح عينيها مزيداً من الجمال.

كانت ترتدي تلك الليلة فستاناً حريرياً أسود، يرتفع أعلى ركبتيها، ثم يضيق عند خصرها، الذي بدا كخصر كمنجة، وينحسر عند نهديها، اللذين لاحا لي كأنهما حمامتان ناصعتا البياض، لهما

ارتعاشة، تنهر ناراً تشتعل بي. في الممر الذي يفضي إلى الشرفة سحبتها من خصرها إليّ واحتضنتها بعمق.كانت قد سرحت شعرها، فصار ناعماً منسدلاً على كتفيها الناعمين، وهي بدورها تحتضنني بقوة، وجسدها، يلتصق بجسدي، إذ كان ناعماً أكثر مما أشتهيت. تماماً كحلم التماهي بسحابة.

كنت عطشاناً لها، ولهذا نجحت بترك كل تساؤلاتي خلف الباب. واستسلمت لحضنها قبالة النافذة العريضة للشرفة التي بدت أضواء عمان متماوجة من وراء زجاجها، حيث المطر يسحّ عليه كقصيدة تمسح شواطىء القلب بموسيقى الكمنجات. صرت أهذي بحبها، الذي كنت أدرك أنني إن خسرته، سأخسر فرصة أن يغادرني زمن المعتقل، العالق حتى بشعر صدري.

قبلتها بكل اشتهاء، وهي تئنن أنين من تمشي في أوردتها غيمات باردة في يوم تموزي قائظ. كان لشفتيها طعم سائل أجاص قطف للتو بعدما مكث عمراً في النضوج. كلما كنت أرخي شفتي وأبعدهما قليلاً، تطبق شفتيها على شفتي. أحسست بذلك السائل الذكوري، الذي ما هو إلا مقدمة أولى لقصيدة، يمكنها أن تعلن عن إيقاعها دون ذلك التعلثم الذي يخلق ركاكة في قصائد كان يمكنها أن تكون جميلة.

ونحن ننهي قبلة أصابتنا بدوار لذيذ يشبه دوار تحديق في نهر متدفق، هممت بفك أزرار قميصها، فجاء صوتها مسكوناً بالخدر اللذيذ، على قلب رجل انتظر طويلاً دون أن يدري أنه ينتظر حتفه:

– لنجلس قليلاً قرب الموقدة، لا تتعجل حبيبي.

من مسجلة في الركن الأيمن للصالة العريضة، كان «شوبان» يشاغل قلبي بمقطوعته (les) nocturnes، ومن طاولة قريبة، سكبتْ كأسين من نبيذ فرنسي فاخر. وعادت وأنا أنصاع لحضن الصوفة الذي أخذ شيئاً من دفء ألسنة النار وهي تتصاعد من الخشب في الموقدة، التي أحتلت ركنا من أركان صالة، حفلت بلوحات وتحف فنية، جلبتها معها من أسفارها في دول العالم.

قرب الموقدة، سقطت من زاوية الجدار إنارة أرجوانية خفيفة، فبدا وجهها كأنه يطل من جبين الشمس في صباح ربيعي. امتدت يدها تلامس وجهي، وأنا أنظر إليها بعينين هادئتين، وقالت هامسة:

- أحبك أكثر مما تتوقع. أقسم على ذلك.

ارتمت على صدري، وهي تردد بصوت خفيض، كأنها تقرأ تلك الأفكار التي توجع البال:

- ما نقوله ليس كل ما يدور في دواخلنا. هنالك أشياء أخرى لم نقلها، وهي الحقيقة بعينها.

تسلل سؤال عبر ثقب الباب، الذي تركت وراءه تساؤلاتي، لكنني رددته لأني لا أود لأي شيء أن يبدد لحظة، يجب أن لا أخسرها، حتى لو كانت أرباحي الأخيرة.

كانت طقطقة الخشب في الموقدة تشيع في قلبي شيئاً من الطمأنينة من جانب، وتشعل ببيدر الجسد حمى اللذة من جانب آخر، حين قلتُ، ويدي تغور في شعرها، الذي اكتسب شيئاً من دفء منحته لنا ألسنة النار:

- لا تتركي يا سعاد زمن المعتقل يكبر في صدري أكثر مما تمدد من ذي قبل. هشميه بأناملك وبحبك لي.

طبعت قبلة على شفتي، ثم نهضت نحو البيانو الذي وُضع قريباً من الموقدة، وراح تعزف.

كان ظهرها، وهي جالسة إلى البيانو، نصف عار، مموجاً بالزغب الأشقر تعزف مقطوعة «شوبان» «قطرات المطر»، تلك المقطوعة التي تثير بي الحنين كما يفعل الشتاء، الحنين الذي يقف بوجه وحشة تعشش داخلي كعنكبوت نسجت خيوطها على مهل. أنامل كانت خفية تجوس داخلي، تخبرني أن قضبان المعتقل التي بقيت في صدري كمرض لا شفاء منه، قد زالت لأنها معي. إحساس بالطمأنينة سرى في بدني، وسحابة خفيفة كانت تمسح وجهي باللذة. كانت وبأناملها التي قبلتها أكثر مما اشتهيت، تستعيد مزاج «شوبان»، وتزرع في صدري عالماً آخر يقف بوجه سلطة معتقل، اعتقدت أن لا فكاك منها. ثمة لهفة دفعتني أن ألتصق بها من الوراء، وهي تعزف، فصار جسدها، كشفاه تبث أنفاسها الحارة على جسدي، الذي بقي يشتهيها لزمن، وبيننا يكبر حب صادم في عوالم «الفيس بوك»، الذي منحني، وأنا أجترّ عزلتي نافذة على الناس، عبر كلماتهم التي مهما تنصلوا من علاقتها بعوالمهم الجوانية إلا أنها تصير مرآة لما يحلمون به، ولما يتمنونه، ولما يثير بهم الوجع والفرح. ترنحت أناملي وهي تتحسس صدرها الطري كنسمة صيف مسائية، وهي تمضي بالعزف مغمضة العينين، ففعلت مثلها، بعد أن خلعتُ قميصي، لأصبح عارياً تماماً إلا من تلك الموسيقى

التي راحت ترتجلها، بعيداً عن مقطوعة «شوبان»، وأنا ألثم عنقها الطويلة الحافلة بالزغب الأشقر أيضاً، وصدى تطايُر قضبان المعتقل وذوبانها أمام حرارة حب، يحيلني إلى فرحة جنود ببلادهم، وقد تحررت من احتلال كامل للتو.

بعد أن تركت البيانو وفي جوفه يتردد صدى آخر نغمة عزفتها سعاد، رأيتنا في الصوفة التي تقابل البيانو، والشرفة التي تطل على مساء عَمّان، وحيث المسجلة التي أدارت مفتاحها، تمنحنا مقطوعات موسيقية لشوبان، كان للغة الجسد معنى أن أحس بحرّية طائر أزيلت أسلاك القفص من أمامه، ففتح المدى له ذراعيه الواسعتين. رحت أفك أزرار فستانها الذي ما إن انحسر، فكشف لي عن جسد رغم سنينها الأربعين؛ حتى جعلني على يقين بأن الحب وحده هو القادر على أن يجعل الحياة تدب حتى في الحجارة. كنحات بعد أن فرغ من منحوتته راح يتحسسها بكف يده، رحت أمرر يدي على جسدها الذي استفاض في نعومته، وهي كمن تسلم بدنها للبحر، كانت تطلق آهة خفيفة ارتفعت عندما ارتخت يدي على نهدها وأنا أضمها إلي بكل لهفة العاشق المدافع عن حقه بحياة لا تحدث دائماً.

عندما استدارت إلي، وصرنا وجها لوجه حل ذبول عينيها محل أي لغة يمكنها أن تقال ونحن على وشك أن نتماهى ببعضنا، فنعلن أن الحب جناية الحالمين بالحياة. في الصوفة الواسعة، ونحن نصير جسداً واحداً، كنت كمريض يهذي أمام ساحر، يجتث من جسده جِنّاً يتحكم به. وكانت هي تلك الساحرة، التي عبر تمازُج

شهوتين؛ تجتث البقايا الصدئة للقضبان، تلك البقايا التي تسقط عند تحريكنا لقضيب معدني مهترئ. كانت يداها تتحلقان حول عنقي، بينما يتناغم جسدانا في حركة؛ كحركة موج نسيم بحري خفيف، فيرتطم الموج بالشاطىء، ثم يعود. ذلك الاهتزاز، الذي يأخذنا إلى حافة جنون لذيذ، حطم كل الحواجز، التي يمكنها أن تقف بوجه لذة هي الوحيدة القادرة على أن تجعل الواحد منا يحس بجناحين نبتا له وهو يحلق في فضاءات لامتناهية. كانت ترفع في صدري رايتنا، التي تؤكد بأن لا احتلال سوى احتلالها الشرعي. وكانت تهذي بالحياة التي بقيت تتدفق في جسدينا، إلى أن بدأ يرتفع الشهيق، فتفجر الجسد عن زاد نهره، أصل اللثغات وأصل البهجة، فغفونا على زند واحد، بعد رعشة سرت في الأبدان، ومنحَتها بروقاً، وشوبان يتجول في المكان، كبائع يبيع المساءات الطرية. بضع دموع ساخنة شعرت بها لامست جسدي، وهي تترك رأسها على صدري بعد أن تحاور الجسدان ثم اتفقا على لغة الشهيق. راحت الدموع تزداد إلى جانب صدرها الذي كان يعلو ويهبط ببكاء صامت. بقيت أصابعي تسرح خصلات شعرها إلى أن كفت عن البكاء. ثم نهضت لتغيب ثم تعود حاملة كأسيّ نبيذ.

قلت وأنا أسند رأسي على صدرها:

- أيحق لي الآن أن أسأل عن سبب كل ذلك البكاء؟

أمسكت سيجارتي وأخذت منها نفساً عميقاً، ثم قالت كأنها تهمس:

- لا شيء حبيبي.

كثير من الإجابات في تلك اللحظة بقيت تلح عليّ إلى أن عاودت التساؤل:

- ما بك يا سعاد؟

جاءني صوتها مختلطاً بنبرة بكاء حاولت كتمانها:

- أليس من الموجع يا حبيبي أن أحظى بعد كل هذا العمر من الزواج بالرعشة الجنسية للمرة الأولى؟ كيف يمكنني أن أسامح نفسي على كل تلك السنين التي ذهبت سدى؟

قالت ذلك وغار رأسها في صدري وراحت في بكاء مرير.

في تلك الليلة عانقتها قبالة الباب أودعها وأنا أحلم بها بؤبؤ عين لا يستقيم البصر إلا به.

❋ ❋ ❋

بقيت على غير عادتي بعد تلك الليلة لأيام دون استحمام؛ لأحتفظ برائحتكِ يا سعاد. إنه احتفاء بزمن أجمل ما فيه أنه مسروق من عالم يفتقد للشرعية في كل شيء. هل تتذكرين كم مرة سرقنا من جعبة الوقت زمناً قصيراً، كان يساوي عمراً بأكمله. كالممسوس، ما أن أستفيق من نومي القلق، حتى أتنفس كل إيقاع الرائحة في جسدي. كلماتكِ كانت تأتيني عبر سماعة الهاتف النّقال، وأنا أغادر عمان في تلك الليلة، وأتركُ لحظات مُستقطعة من سياق اليوم، ككرات تتقافز في بهو روحي:

- أرشق جسدك بالماء، ونَم. عليكَ أن تبدأ نهارك غداً بنشاط مختلف صوب العمل.

لم أقل لك أني سأنصب جداراً عازلاً بيني وبين الماء، كي لا أخسر إيقاعاً فريداً لما حدث بيننا في تلك الليلة. الذي حدث شيء لا يصدق. شيء يشبه صورة شعرية تتقافز على سطح النفس كما يقول باشلار.

كانت سيارتي، وكأنها تقود ذاتها عبر شوارع عمان، التي بدت كأنها قطع من حرير، تعبث بها نسمة هواء، فتحيلها إلى مشهد يرتطم ببؤبؤ العين عبر مزاج بطيء وهلامي. من وراء المشهد كان «شتراوس» يرش لوعة شجنه، وهو يحكي قصة الدانوب الأزرق، عبر مسجلة السيارة. بطء يرافقه جنون قلبي بك، ونتفٌ من ابتسامة لي كانت ترتطم بكل شيء أراه. كانت السيارة تتدحرج على بطن الطريق كأنها قطرة ماء، تأخذني إلى حيث لا أدري. وشتراوس يحمل كل روائحكِ إلى رئتيّ ليضجّ بي الشهيق؛ شهيق رجل مثلي يعشق الجبال التي عادة ما يكون سكانها أقرب إلى الله. فأغمض عيني لينداح عبق جسدكِ كما لو أنه وردة بنفسجية اللون، تطفو على نهر يتسلى بالسهْو. رائحة عطرك، الذي ضمخت به جغرافيتك الأنثوية، فصرتِ كفكرة تشرح معنى أن تكون حرّاً في عالم يلهث وراء الحرية في زمن القيود.

عندما سكتت السيارة عن أنينها عند بوابة البيت، كان المطر قد توقف للتو. فبدت أغصان دالية العنب، التي ما زالت تحتفظ ببعض أوراق هاجمها الاصفرار، كأوراق من ذهب، تلمع بفعل

إنارة سقطت عليها من بوابة البيت، وقطرات الماء تشتت خيوطاً ضوئية تبعث على السكينة. الأرجوحة المعلقة في شجرة الفلفل ساكنة، بينما قطرات الماء تتساقط من حبل ربطها لجذع الشجرة الضخم. عبرت بوابة البيت بهدوء، حتى لا أوقظ جدتي، التي غلبها النعاس كما يبدو، فراحت في نومة عميقة. في سريري، كنت ألامس كل تفاصيلك، في تلك الليلة التي جعلت من حياتي بأكملها مجرد أشياء مرهونة لاثنتي عشرة ساعة، كنت أقبّل عنقك الطويلة، كأحلامي ببلادي، وشفتاي تتتبع قبلات زوجك على عنقك. كم قبلة طبعها هنا. وكنت أفتش برأس لساني، الذي كان يتذوقك بنهم طفل لقطعة حلوى، عن بقايا طعم لقبلاته. حينها كنت سأقول لك تعالي لنستحمّ، لعل الماء يصبح قادراً على محو لحظات اغتصاب شرعية كانت تحدث لك. كنت بأصابعي أجوس جسدك بحثاً عن آثار تلك القيود التي عادة ما يخلفها هكذا نوع من الرجال في جسد امرأة تراوح بين سوءة المصير، وبين رغبتها بالانعتاق. مع مضي الأيام التي شهدت ليال من البوح عبر الأثير الذي كان لنا طاولة لقاء نقول عليها ما نريد. كنت أدرك أن امرأتين في داخلك تسيّران حياتك. امرأة تراقب أولادها وبناتها بعين من لا تريد لعائلتها أن تعيش من دون أب في مجتمع لا يعرف من المدنية سوى انتشار المتاجر الضخمة، والعربات الفاخرة، وموضات الملابس، والأطعمة سريعة التناول. وامرأة أخرى تعي حاجتها لحياة بلا قيود يعمرها رجل لا تمتد يده إلى أشياء روحها الداخلية وتبعثرها. كنت تراوحين ما بين هاتين الامرأتين. وأنت تعلمين أن سريرك بارد رغم اقتحاماته

المتكررة لجسدك. بارد في غياب الحب الذي يمتد طويلاً ويجعل الحياة ملونة وقابلة للعيش حتى في عقر الهاجرات، والصقيع.

* * *

بعد أيام من لقائي بسعاد جاءتني منها رسالة على البريد الالكتروني:

(كنت في تلك الليلة رجلاً غير عادي. وكانت تلك الليلة دليل على أنني أنثى تحس بكينونتها كما تريد وتشتهي. تلك الليلة التي كنت على الرغم من خوفي، متأكدة من أنها ستصير الحجر الناقص في جدار سيقي كل ذلك الحب من العواصف. كنت رائعاً يا حبيبي، فأزلتُ كل الحواجز التي يمكنها أن تحدث بين أي امرأة وأي رجل. كنتُ أسمي الأشياء بمسمياتها. هل تتذكر كيف احتضنت شفتاك شفتيْ؟

تلك الرعشة الكهربائية، التي سرت ببدني، لا يمكنها أن تشبه شيئاً غير لحظة الخلق ذاتها. لقد كنت تخلقني من جديد، حيث الكهرباء تنزّ من حلمتيّ، من سرّتي، ومن بين فخذي، حيث تبدأ أولى الصرخات، وتنتهي أولى الصرخات. كلما فرغتَ من باب من أبواب جسدي؛ أصرخ ميممة بك نحو الباب الثاني: (قل لنهدي بفمك كم تحبني)

عندما سمعتَها، تكورت كطفل في حضني، تلف يديك حول خصري، وأنا ألقم فمك نهدي، ويدي الأخرى تمسح الشيب الذي

فرّ برأسك كما يفر بياض اللوز من صدر الشجر. كنت تئن أنيناً جعلني أفتح نوافذ أنيني على مصراعيها، إلى أن ما عدت أحتمل الانتظار، عبر إيقاع كان يأخذني إلى حافة الجنون. حينها همستُ قرب أذنك، أنت قلت لي قبل زمن أنك ليلة ستصير ملاذي، وليلة سأصير ملاذك. أنت هذه الليلة ملاذي. ضاجعني الآن، تربتي صارت طرية لفرط الندى، تتهيأ الآن لشجرتك، التي ذات يوم ستورق الظل والحياة.

عندما التصق جلدك بجلدي، صرخت، وأنت تنظر للساعة، التي كانت عقارب دقائقها وثوانيها تتحرك بانتظام: (توقفي أرجوك، لا تصلح كل الأزمان للمضي قدماً وفق هذا القانون، توقفي، أريد أن أكون كما اشتهيت)

فرأيتك تنهض، تنزع بطارية الساعة، وتعود تحرث حقلي من جديد، إلى أن غرست شجرتك التي منحتني الحياة)

قبل أن أغلق حاسوبي، وأحمل طيف سعاد بيديّ البال، وأنا أهمّ بالنوم، كنت أهدهد تلك الفكرة التي تشي بأننا التقينا في زمن ما، وفي مكان ما ثم أطردها كأني أواجه لغزاً عصياً على الفهم.

* * *

قضبان الوشاية

بينما الكرسي يأخذني في اهتزازه أمام النافذة، دخلت جدتي ثم طوقت بيدها عنقي، ولفتني برائحة المسك الذي يفوح من ملابسها. ثم طبعت قبلة على خدي وهمست بصوتها الحاني:

– علامك يا خويلد. يا جديدتي قوم اطلع من الدار. لا تظلي ساجن حالك. الدنيا وساع ما هي ظيقه.

قالت ذلك، ثم أجهشت بالبكاء تغادر غرفتي وصوتها يغيب في الداخل، وهي تردد أغنياتها المعتادة التي تنز منها لوعة وشجن.

أشعلت سيجارة، وأرخيت رأسي على مسند الكرسي الذي راح يهتز من جديد، بينما الموسيقى تتبختر في الغرفة وأنا أتأمل سطوة الشك، تلك الجمرة التي تقض مضجع البال. فيجعلك هذا القاتل المتوحش باسم اكتشاف الحقيقة، وأنت تفكر بكل تاريخ حياتك، تصاب بالرغبة في نسف كل شيء عن بكرة أبيه. أغلقت كتاب السهو الذي كنت أتصيد به طيور النعاس البعيدة مثل صياد خاسر، وأخذت أستعرض كل من عرفتهم واحداً واحداً، وأنا أتساءل:

– من الذي لفق لي تلك التهمة؟ أو من التي لفقتها لي؟

بقي وجه رداد يطل عليَّ من بين كل الوجوه. وأنا أتذكر ذلك اليوم الذي اعتقلت فيه.

كان الوقت قريباً من منتصف الليل، وكنت عائداً من أمسية مع أصدقاء وصديقات؛ بقينا نشرب الخمر الرخيص، ونثرثر بمواضيع كثيرة، حتى أصابنا الملل، فغادر كل منا إلى حيث يقيم. كنت أقيم وحدي، قبل أن يغادرني «رداد»، في غرفة مستأجرة، تطل على قاع المدينة، النابض بالحياة آنذاك. تناولت (ساندويشة) زعتر مع كوب من الشاي، واستلقيت في سريري أراجع كتبي ومقررات التخرج من الجامعة فقد كنت في السنة الأخيرة آنذاك. قرعات قوية متتابعة على الباب، تناهى صداها إلى مسامعي، مشوباً بشيء غامض سوف يحدث. كانوا ثلاثة رجال أمن، يحملون على خاصراتهم مسدسات وأجهزة لاسلكية. أمسك بي أحدهم، وألصقني بالجدار، مانعاً أية حركة يمكنني أن أقوم بها، ثم قال بصوت أجش:

- أنت خالد؟

قلت وصوتي لا يكاد يخرج من حنجرتي لقبضته المحكمة على رقبتي:

- نعم أنا خالد.

كان الرجلان الآخران، يفتشان الغرفة، وينثران محتوياتها. خَلَطا، وحَطَّما كل محتوياتها وهما يبحثان عن شيء معين لم أكن أعرفه. وجدا صندوقاً أسفل السرير، ضم أوراقاً وخرائط وصور لشخصيات في الدولة وصوراً لمواقع حكومية، وقطعتي سلاح وعتاد لم أراها من قبل. ثم تحفظوا على كتب سياسية، وأوراق كنت أدوّن بها وجهة نظري الشخصيّة الصريحة حول ما يحدث في البلاد. إضافة إلى بيانات كانت تتطرق لبعض الأحداث، وصحف ومجلات.

قيدوني بعد أن أخذوا تلك الأشياء، وحشروني في الجزء الخلفي المظلم من العربة، التي كانت تقف على باب المنزل، وساروا بي مدة ربع ساعة تقريباً، وأنا أحاول أن أرسم شكلاً للمكان الذي أعبره من خلال حركة السيارة، وجدت نفسي أخيراً في قبو مظلم، زجوني به، وأعطوني أناء متسخاً لأبول وأتغوط به. مرَّ أسبوع كامل، بعده قال لي الضابط، وعلى وجهه علامات استهزاء وغضب:

- بدك تخرب البلد؟

تساءلت بفزع:

- أخرب البلد؟ هذا الشي أبداً ما حصل!

- والأوراق والمخططات والصور والمتفجرات التي عثرنا عليها في غرفتك؟

- ليست لي أؤكد لك أنها ليست لي. الأوراق التي تخصني لا تشير إلا إلى أنني كنت أحلم بعالم بلا جوع، بلا دم، وبلا مهانة. عالم لا اعتبار فيه إلا للإنسانية. يا سيدي المحقق .

بكوعه الضخم، كجذع شجرة يابسة، لطمني الضابط على فمي، فسال الدم بعد أن تهشمت أسناني، التي بقيت معلقة فقط بلحم اللثة، وأصيبت شفتي بجرح غائر ، بقي ينز دماً حارّاً لساعات، وأنا أمسحه بكمِّ قميصي. ثم راح يصرخ بحنق:

- كل هذا المخطط الكامل لتخريب البلاد، وبتحكي إنك بتحلم. والله لخليك تشوف كوابيس يا عرص. يا إبن العرص.

- الأشياء هاي مش إلي. والله مش إلي، وما بدري عنها.

حينها خط بضع كلمات في ورقة أمامه، ثم قال دون أن ينظر بوجهي:

- خذوه.

حملتني العربة بمعية عشرة أشخاص تقريباً، نصفهم معتقلون سياسيون. كان التواصل في بداية الطريق ضعيفاً، فلم تكن الوجوه واضحة المعالم؛ لظلمة العربة المحكمة الإغلاق بشادر سميك، لكن مضي الوقت خلق أحاديث خفيفة، حول السنين التي ستمضي في المعتقل، تطورت إلى هتافات، وضرب على جدران العربة، التي ما إن توقفت، بعد مسير متواصل امتد لساعات، حتى هجمت علينا أشعة الشمس الصحراوية الحادة، التي لم يستطع بؤبؤ العين لحظتها أن يتكيف معها بالسرعة المعهودة مع شكل الأشياء، فبدا كل شيء ضبابياً. تعثر معظمنا بالسلم المعدني الذي كنا نهبطه، ونحن لا نسمع سوى صرخات الجنود الآمرة بالنزول سريعاً، فنسقط أرضاً، دون قدرة على الرؤية الواضحة. كانت الهتافات وصرخات الاحتجاج تأتي بوتيرة ترتفع وتهبط. ما هي إلا ثوان، حتى انهالت علينا ضربات الجنود بأسلاك معدنية بغلاف بلاستيكي. فدب الصراخ والهلع في المكان، صراخ الجند وشتائمهم تختلط بصراخنا، ونحن نتلقى تلك الضربات التي تفسخ الحلم، ودماء تسيل حيث تطال الضربات في أجسادنا. ما تلقيناه هو درس أول في الخنوع، والترويض. مع كل ضربة متقنة يتم تأديتها بمهارة، يصرخ الضارب بكلمة (خائن) أو (عميل). ضربة للجسد، وضربات للروح. دماء تسيل من اللحم،

ودماء تسيل من لحم الروح. استمر الضرب إلى أن بدأ المعتقلون يسقطون مغشياً عليهم واحداً تلو الآخر، فجاء دور خرطوم الماء؛ ليأخذنا من تلك الغيبوبة إلى مرحلة أخرى، حيث يمكن عبر الصحو على إيقاع الآلام، وهي تتقاطع بصفعات الماء، أن تكتشف أنك لم تعد كائناً يمكنه أن يقف قبالة المرآة ويحلم.

من العنابر، كنت أسمع ضجيجاً وقرعاً على القضبان والأواني المعدنية وخبط الأقدام بالأرض. كان احتجاجاً على ما يحدث لنا. حالة استنفار أعلنت في محيط المعتقل. تبعها مداهمات للعنابر، استمرت لساعات، حتى بدأ الهدوء يعم المكان، فانسحب الجنود. جلسنا القرفصاء في مجموعات أفقية وعامودية، ينادي جندي على أسمائنا واحداً واحداً، ويوزعنا إلى مجموعات. عندما جاء دوري، اقتادني أحدهم مشفقاً علي، وأنا أترنح بخطواتي، وأتلمس مواضع الألم التي عمت جسدي. فتمتم متألماً بصوت خفيض:

- يا عيال الحلال، وش ودكو بالسياسة اللي ما هي جايبة غير هالذل اللي انتو شفتوه قبل شويه. بعدين، والله إنك زغير. بعدك بأول عمرك. يا شين مالك حيلة عليهم.

كنت أردد بصمت وأنا أضغط بابهامي على جرح في ذراعي:

- يا ريتهم اعتقلوني علشان أفكاري السياسية. لكنهم أخذوني علشان شي والله ما أدري عنه، وما إلي ذنب فيه.

أغلق الجندي ورائي باب العنبر الذي انضممت إليه وحدي. حيث زُجّ الآخرون بعنابر أخرى مجاورة. ما إن عبرت للداخل،

حتى اكتشفت للوهلة الأولى أنني أصغر المعتقلين سناً، وأنا أمسح المكان بنظرة سريعة دائخة. بقيت مدة أقف في وسط العنبر دون قدرة على الكلام.

جراح عديدة كانت تنبض ألماً في كل أنحاء جسدي. كان الدم ينز من تحت ملابسي الممزقة؛ لفرط ما هوت عليها تلك السياط المعدينة. جرح غائر كان ينز دماً غزيراً قرب جفن عيني اليمنى. وكانت روحي في تلك اللحظة الأقسى في حياتي، ترْشح نحيباً من هول ما حدث.

اقترب مني شخص، راح يمنحني ابتسامة تلوح من ورائها ألف دمعة خفية كالسرّ نصف المفضوح. كان في أواسط الأربعين من العمر. وضع يده على كتفي، بينما كنت أواري رعشة تتلبسني كجنيّ مباغت. عانقني وقد أجهشت بالبكاء الذي فرّ من صدري عنوة، وأنا أداريه كأنه فعل مشين. لاذ نزلاء العنبر بصمت مطبق بعد الاحتجاج الذي قاموا به مؤازرة لنا، ونحن نرزح تحت ضربات الكوابل، وسيل الشتائم التي استقبلنا بها الجنود. سحابة سوداء من غمٍّ تلف المكان، وتفرض سطوتها الواضحة. قال الشخص الذي وقف بقربي وعانقني كأنه صديق لي منذ زمن بعيد:

- اهدأ، اهدأ .الرجال لا يبكون. أنا سالم عبدالحميد. وأنت ما اسمك؟

- خالد

دلني إلى سريري، ثم اقترح علي أن أجلس، بعد أن أشعل لي سيجارة، وأمر أحدهم:

- ساوي كاسة شاي يا ناجي.

صرخ سالم عبدالحميد، وقد ظهر التوتر واضحاً في صوته:

- ما بكم؟ هل هذه أول مرة نواجه هكذا حالة. عليكم أن تقاوموا. الصمت استسلام.

ثم عاد ينادي آمراً:

- قرب عينه جرح بحاجة لضمادات حتى يتوقف النزف.

قام أحدهم بتضميد الجرح، وكتمه بالقطن ثم بلاصق طبي. كان سالم عبدالحميد جالساً قربي، وهو يبتسم ابتسامته التي تستهدف دواخلي المهشمة:

- لا عليك، هناك كثير من الوقت لتشفى من هذا الجرح. لا تستغرب من أننا نملك حقيبة اسعافات أولية متواضعة. إنها حصيلة ما يجلبه لنا أصدقاؤنا الأطباء، وزملاؤنا من العاصمة بعد محاولاتنا الاحتجاجية والاضراب عن الطعام. هنا أيضاً يمكننا أن نصنع الحياة حتى يفرج عنا.

بعد لحظات، بدأت الحركة تدب في المكان، صوت رجل يغني، صوت ضحكات حادة، صوت يقرأ شعراً. ويحكي نكات سريعة.

الصدمة الأولى التي تأتي عادة بفعل مواجهتنا لأحداث لم تكن نتخيلها من قبل، بقيت تهبط وترتفع في دواخلي كأنها مخطط لنبضات القلب. في الوقت الذي كان المعتقلون حولي يحاولون

اقحامي بعالم جديد عليّ، كي يخلصونني من تلك عذابات كانت واضحة حتى في كلماتي المتلعثمة، وأنا أشاركهم أحاديث سريعة حول حال البلاد ومعيشة الناس فيها. سريعاً التقطت ذاكرتي صوراً شتى للنزلاء، واحتفظت بتعريفات سريعة أدركتها عبر الحكايات التي رويت بشكل مقتضب.

ثمة حياة منظمة لمستها داخل العنبر، إذ اكتشفت منذ الليلة الأولى أن المهام موزعة بالتساوي بين المعتقلين، الذين بدو لي منسجمين حتى في أفكارهم. بدأ سالم بتقطيع الخضار لطهيها، وهو يطلق نكاتاً أضفت على العنبر شيئاً من المرح، بينما صوت (بابور الكاز) يعلو في المكان. صوت قلي البصل بالسمن، ورائحتهما تبعث في النفس شيئاً من الألفة كريحٍ حميمية، ليس من السهل أن تولد سريعاً. كان سالم يحدثني بين الفينة والأخرى، وهو يطهو:

- هذه الخضار نزرعها هنا. هذا التراب الصحراوي ليس عاقراً كما يشاع يا خالد. إنه يشبه البنت البكر الخصبة، التي يمكنها أن تلد عدداً من الأطفال.

ما هي إلا نصف ساعة، حتى جهز سالم سفرة تضمنت (قلاية البندورة) بالبصل، وخضار مقلية، وقرص عجة. حينما اجتمعنا حول الطعام، كانت الأحاديث متقطعة، وغير متجانسة. عرفت فيما بعد، أن حذراً ما من شخص جديد مثلي كان ضرورياً، فبقي التوجس، إلى أن تبينوا حقيقة أمري فيما بعد، فوثقوا بي. بعد العشاء، دبَّ الارتخاء في الأبدان، خاصةً بعد موجة مداهماتٍ نفذها الجنود عقاباً للعنابر التي احتجت على ما حدث لنا من ترويع. بدت

الأصوات مخدرة، وهي تتناقل الحكايات الشعبية، والحديث عن بعض الروايات العالمية، وأخبار الأهل، التي تأتي مقتضبة في العادة عبر الرسائل، التي يهربها بعض الجنود المتعاطفين مع المعتقلين، والتقارير المختصرة، التي تأتي نتيجة الاستماع لمحطات الراديو، التي تبث نشرات أخبار مفصّلة في أواخر الليل.

كنت مستمعاً لا أكثر. فما كان بالإمكان أن أتلفظ بأكثر من كلمات قليلة تأتي على محمل المجاملة. ثمة رجل كان يقف في مواجهة لوحة كبيرة لامرأة جميلة على واجهة من واجهات العنبر. كان يتأملها كأنه يحفل بخيط سريّ من التواصل لا يدركه أحد سواه.

سرى الليل بوحشته الموجعة، في جسد المكان، قادماً من كل جهات المزاج الصحراوي. تراجعت أحاديث المعتقلين، أمام سطوة النعاس، الذي انتشر في الأبدان، فاستسلموا له. الراديوهات القليلة الممنوعة التي تهرّب بطرق شتى، تُقفل واحدة تلو الآخرى.

صمت صحراوي ساد العنبر، الذي ضم عدداً من أسرّة اصطفت بشكل متجاور، كحصاد جثث بعد معركة ضارية، وما تبقى من المكان سوى بضع سعلات، تأتي من أماكن متفرقة بين الحين والآخر. سمحت النافذة الضيقة التي ترتفع في أعلى الجدار، لهواء الصحراء البارد ليلاً، أن يتدفق غزيراً، يبدد شيئاً من حرارة الشمس، التي بقيت في أثناء النهار تلفح الرمال، الممتدة حول المعتقل بلا نهاية. أغاني الرعاة، حملت على عاتقها رثم الحزن الشفيف. كانت تأتي متقطعة من بطن الليل الصحراوي، الذي هجعت به قطعان ماشية، محاطة بذئاب تبقى تشحذ أنيابها، إلى أن يحين وقت

الانقضاض على الطريدة، بينما رعاتها يطردون قلق البال بالحداء، وينهرون تلك الذئاب ببضع رصاصات من بنادقهم، بين الحين والآخر، وهي تأتي متقطعة عبر تلك المساحات الصحراوية المصابة بلوثة الوحشة.

بدا «عبد الغفار» قلقاً، وهو يتقلب في نومه كأن فراشه حقل شوك. عبدالغفار، الذي ما إن رأيته يقف أمام صورة امرأة رسمها على جدار العنبر بعناية فائقة؛ حتى شعرت بمقدار تشبثه بحياة تقاوم مخالب زمن يمضي بين جدران، حتى الهواء فيها له نكهة الاعتقال. ولا يتوانى عن تذكيرك بأن حتى حواسك معتقلة.

فالمعتقل ليس تلك القضبان، التي عادة ما تكون مطلية بلون يثير فيك إحساساً غريباً يشبه الخوف، ولا الجدران التي تبدو مهمتها منحصرة بحجب بصرك فلا تتركه يرتفع عالياً لتحلم بالمدى الشاسع. ولا الأبواب التي عندما توصد تئن أنيناً جنائزياً بارداً كالصقيع، فتتيقن أن نصيبك من الأوكسجين قد انتهى. بل هو ذلك الصديد الذي يسح من جبين روحك، بعد جرح غير قابل لكل محاولات المضادات الحيوية أن يشفى.

❋ ❋ ❋

كان عليّ، عندما وطئت قدماي أرض العنبر؛ أن أتحدث لمن أصبحت فيما بعد شريكاً لهم لعشرين عاماً، كوني قد سرقتُ من زمن حافل بالأحداث، بعيداً عن زمن المعتقل، الذي يشبه عضواً في جسد لا تصل إليه الدماء. لكن الذي حدث أن «سالم عبدالحميد»

تكفل بمهمة تعريفي بنزلاء كان لكل واحد منهم حكاية تعب تلوّح في وجوههم كما تلوح الثآليل في ظاهر اليد. أولئك النزلاء الذين تفاوتت أعمارهم، واختلفت انتماءاتهم السياسية، والجغرافيّة. لكن أكثر الحكايات التي علقت تفاصيلها بذهني، هي حكاية عبدالغفار، وشخصيته التي وجدتها استثنائية. وبقدر ما فيها من غرائبية؛ فيها من ولع بحياة كان يعتمرها كقبعة تقي رأسه من شموس المعتقل الحارة. فقد أمضى قبل أن يعتقل زمناً كان فيه حاضراً عبر أعماله الفنية، وقدرته الفائقة على التقاط التفاصيل اليومية التي تهم الناس. عاش قصة حب مع امرأة اسمها سماح، تعمل محررة في إحدى صحف العاصمة. قصة حب عرفها أهل الحي الذي كان يقطنه عبدالغفار، وحفظوها عن ظهر قلب. تماماً مثلما حفظوا قصة اعتقاله. إذ كان عبدالغفار عائداً في ليلة معتمة وباردة، من اجتماع سري في بيت أحد زملائه في الحزب، وكان يحمل ملفاً يحتوي على أسماء كل أعضاء الحزب الذي كان محظوراً آنذاك.

عندما خرج من أحد الأزقة ليعبر الشارع الرئيسي، تفاجأ بعربة أمن كادت أن تدهسه، فراح يكيل لسائقها السباب، دون أن يدري أنها عربة أمن. عندما هبطوا من العربة، ورأى عبدالغفار أجهزة لاسلكية، ومسدسات لاحت من خاصراتهم، راح يعتذر بشدة، وهو يدرك أن مصير مئات في يديه في لحظة سوف تكون الأخطر في حياته. أخذوا منه الملف، وفتشوه، ثم قرأوا أول صفحة فيه على ضوء العربة، فقبضوا عليه، وهو ينادي بأعلى صوته على سماح، التي كانت تقف قرب النافذة المطلة على الشارع، وهو يقول:

(كل الأوراق معي، كل الأوراق معي يا سماح)

في تلك الليلة مررت سماح خبراً لكل من له اسم في الملف، أن يغيب عن الأنظار، ويتخفى؛ لأن حملة واسعة من التفتيش سوف تطال البلاد كلها. وبالفعل هذا ما حدث، فعجَّ المعتقل الصحراوي بالعشرات من رفاق عبدالغفار، وتشرد الكثير منهم داخل البلاد إلى القرى البعيدة عن العاصمة، وإلى خارج البلاد.

* * *

تعربش صوت ضربات أحذية حراس المعتقل، وجه الجدار، متجاوزة النافذة التي زودت بقضبان لم تصمد طويلاً أمام قسوة شموس الصحراء؛ فبدت صدئة رغم ضخامتها.

كان سريري في المعتقل، بما عليه من بطانيات بالية كأنه سرير من الجمر، فأخذت أتقلب يميناً وشمالاً، بفعل وخزات حادة كانت تنهش شيئاً في داخلي، وتطرد النوم من عينيّ.

غط المعتقلون في نوم عميق، فجاء شخير بعضهم، وهو يمنح اللحظة شيئاً من مزاج الأرق. الذي اعتراني في أول ليلة لي في معتقل صحراوي ملقى في وسط رمال صحراوية، تصير في الصيف جمراً ملتهباً، وفي الشتاء قطعاً من جليد.

ثمة سؤال كان يطرق باب دماغي، كما تطرق ريحٌ باباً موارباً؛ لماذا علي أن أمضي عمراً في مكان ليس له مهمة سوى خنق الفكرة ؟ أي فكرة تأتي كرؤية للحياة، وأنا الذي ولدتني أمي وهي ترعى الشياه، في فضاء لا يحده شيء سوى الريح والشمس!

تناهى لمسامعي عواء ذئب أتى، عبر امتداد الليل، على جسد الرمال الغافية في زمن صحراوي، موحش، كأنه يعود بي إلى زمن يسبق الخلق، حيث قسوة الفراغ.

أغمضتُ عينيَّ، أتحرى جهة الصوت، الذي بدأ على الرغم من وحشته، يغوص عبر أوردتي، ميمماً جهة القلب، ويمنحه إحساساً غريباً يشبه جرحاً، يستلذ بحبات ملح تسقط فيه، محدثة تلك اللسعة، التي عادة ما تمنح ألماً نافراً يستجلب الصحو والأرق. لكن عواء الذئب، إلى جانب الإحساس بالوحشة، ولذعة الألم في عوائه، الذي يجيء كخيط دخان عبر أفق خلا من الريح؛ كان يشيع في القلب شعوراً بشيء من الطمأنينة. لم تكن طمأنينة اعتيادية، بل إحساس بأن هناك من يشبهك في حزنك أو يشاركك فيه.

كان الصوت يأتي من جهة الغرب، وكنت قادراً في تلك اللحظة على الرغم من عدم معرفتي بالمكان، الذي أتيت إليه في عربة عسكرية معتمة، أن أتأكد أن تلك الجهة، تشهد الآن ذئباً، يقف على تلة من تلك التلال، التي تحفل بها الصحراء، ويرفع رأسه عالياً ويعوي، بينما صوته يركض عبر ذلك الليل الذي يدهن كل شيء عبر سطوته المتطرفة.

الذئاب كائنات العراء الموحش في ليالي الصحارى المترعة بالبرد، وفي ظهيراتها الموسومة بالهاجرات الملتهبة. كائنات تعيش وتتحرك عبر قطعان، ما انفكت تشرب ماء المسافات، وهي تتنقل من مكان إلى آخر، تتبنى رؤيتها الصحراوية، التي بقدر ما فيها من البطش المتطرف؛ فيها من الأنفة التي يتوجها وهج السموّ، وهي

تعيش نسق حياتها. والقطعان في حالة من الطاعة التي تتمثل بذئاب مأمورة بالأقوى، الذي يقودها حيث يشاء، ويفرض شروطه، وحدود مكانه. بين الذئاب وجع صارخ، والبقاء بين صاحبة العواء الأزلي للقوة التي تحسم كل شيء. تتصارع أناث الذئاب، في معركة ضارية، تسيل فيها الدماء، وتتناثر الأشلاء، صراع لأجل زواج أبدي بالذئب الأقوى قائد القطيع. صراع وحشي، يتكلل بحظوة الأنثى عند قائد القطيع. بينما الأخريات وصيفات المحظية وخادماتها.

لكن ذلك الذئب بدا وحيداً، وقد لاح لي، أنه خرج على قطيعه، الذي يعوم بعيداً في بحر الليل الصحراوي. يتربص بطرائده عبر بحر المسافات الليلية. عواؤه يشج بطن الليل، لا لأن عواء الذئاب إعلان عن استعدادها للدفاع عن حدودها ضد القطعان الأخرى المجاورة، بل جاء عواؤه وجعاً يمنحه لليل فسيح كوجعه.

بقيت في ليلتي تلك مغمضاً عينيّ، وعواء الذئب يأتي سارداً سيرة وحدته، وخروجه على قطيع ارتهن لمن طفت قوته على سطح الزمن الصحراوي، حتى غفوت، وفي أذني جوحه، الذي مثلما يحز نياط القلب، يمنحه شيئاً من طمأنينة غريبة.

* * *

كانت اللحظة في زمن المعتقل بلا طيف حبيبة؛ تساوي مسيراً في صحراء بلا دليل، وبلا زوادة تضم في أحشائها الماء، والطعام وملامح تثير الذكريات. لا شيء في المعتقل يمكنه أن يجعلك متصلاً بما وراء الجدران، والأسلاك الشائكة، وذلك الجرح النازف من

جبين الروح؛ مثل طيف امرأة بينك وبينها ذاكرة بحجم الحب. فالحب جبهتنا الأخيرة العصية على السقوط.

لا أدري لِمَ حملني عواء الذئب أو صوت فجيعته لفجيعتي الأولى؟ حين كنت طالباً جامعياً، أحببت فتاة بقلبي الفتيّ المندفع آنذاك، فخطبتها واستمر زهو الارتباط إلى يومٍ نهشت وجه القلب بأظافر معدنية لحظة رأيتها في حضن صديقي.

لم يشغلني في حياتي شيء أكثر من السياسة في حزب محظور. أعضاؤه مطاردون. كل ذلك الحب الذي كان ينير أمامي الدرب أينما رحت وغدوت، تحول إلى موقف مليء بكره متطرف للمرأة. ما حدث لي كان أقسى مما يمكنني احتماله، لذلك لا أتذكر أنني تحدثت لامرأة منذ تلك الحادثة. حتى أن ذاكرتي امتنعت عن أن تحتفظ بأي صورة لأنثى. لكن حادثة غريبة حدثت لي كادت أن تغير مجرى الأحداث وأنا أعود ذات يوم للبيت الذي كنت أسكنه في «عَمان». إذ فوجئت برسالة ملقاة عند عتبة الباب، بعد أن قرأتها دلت على أن تلك الفتاة تعرفني جيداً. فتاة في الحزب نفسه الذي كنت أنتمي له. توقع الرسالة باسم (رفيقتك سحابة). ثمة حب من طراز مختلف لمسته خلال تلك الرسالة، يشي بقلب امرأة تخبىء في قلبها صورة لي تبينت ملامحها عبر كلمات لا يمكن أن تقال إلا من قبل امرأة تحب بصدق لم يستطع قلبي أن يراه في ذلك الوقت بسبب ما حدث. ما إن فرغت من قراءة الرسالة حتى مزقتها ورميتها في سلة المهملات. ونسيت الأمر. لكن الرسائل توالت وأصبحت روتينا يومياً لكنّه لم يغيّر من موقفي نحو النساء شيئاً. لكن قراءة تلك الرسائل باتت

عادة يومية، منحتني شيئاً من التسلية ولم تخلق بي أدنى درجات الفضول لمعرفة صاحبة تلك الرسائل.

في رسالة تلت رسائل كثيرة لها؛ راحت تلك الفتاة تكتب لي بما يشبه التوضيح وهي ترى تجاهلي لرسائلها:

«أعرف أنك قد تستغرب من شكل هذا التواصل بك. فتاة تضع لك الرسائل عند بوابة البيت ثم تمضي. فتاة تعرفك ولا تعرفها. ثم تضعك في حيرة من أمرك بأن تعمد إلى هكذا طريقة في زمن ما عاد الحب فيه يحتمل كل تلك المراوغات. أعلم أن على التواصل أن يكون صريحاً مباشراً. لكن لا أدري ما حل بي. لم يكن بيننا حديث ما. نحن لم نلتق وجهاً لوجه ولو حتى مرة واحدة. كنت أراقبك من بعيد، أشعر بأن بي رغبة ما لأبقى أستمع لك وأنت تتحدث. لا أدري هل رأيتني أم لم ترني. كنت عندما أقرا لك شيئاً في صحيفة الحزب، وأعلم أنك كنت توقع باسم رمزي. ثمة عذوبة كانت تنبض في كلماتك حتى وأنت تتحدث في شأن سياسي. ثمة شيء راح يسحبني نحو الاستماع لك عن بعد وأنت تشترك في الحوارات التي تحدث في لقاءات الحزب. ثمة إحساس راح يتفجر في داخلي، دونما قدرة لي على إسكاته، وأنا أقرأ كلماتك.

ذات يوم قرأت لك نصاً أدبياً لعدة مرات. كلما أعدت قراءته أستزيد من تلك الرعشة التي بدأت تضيء جسدي شيئاً فشيئاً. رعشة تشير إلى رغبة عارمة تسحبني نحوك، ونحو حضنك. فكلما كنت أفكر بك في تلك اللحظات؛ أصاب بجنون متطرف مليء بالظمأ لك. يوماً إثر يوم وأنا أراقبك من بعيد كأنني بت لا أمتلك

القدرة على اقتحام عالم الرجال من جديد، رحت أستعيدني، تلك الأنثى التي ظلت طوال عمرها تحلم بالحب. كنت قد تركت شعري ينسدل على كتفيّ، وبتُّ ارتدي فساتين بألوان زاهية، وأضمخ جسدي بالعطر، ولم آبه باستغراب من هم حولي بسبب كل ذلك التحول المفاجىء. لكنني كنت منقوصة من تلك الجرأة في اقتحام عالمك»

كانت رسائل تضج بحب لم يكن بمقدوري أن أفتح له ذراعي القلب؛ لأنني كنت خارجاً للتو من مشهد شوهني من الداخل بكل قسوة. مشهدٌ، أغمي عليّ بسببه لأسبوع كامل، صحوت بعده مصاباُ بالخرس لا أتكلم.

بقيت تلك الرسائل تأتي في كل يوم، دون أي إحساس حقيقي يجعلني أحتفي بتلك الفرصة، التي يمكنها أن تمنح عتمة روحي شمساً ساطعة. فكتبت رسالة قاسية لم تكن موجهة لها في تلك اللحظة، بقدر ما كانت موجهة لخطيبتي التي فعلت بي ما فعلت. كانت رسالة قاسية جداً كأنها تهديد بأن على صاحبتها أن تكف عن مراسلتي. فتوقفت الرسائل. ولم أعد أفتش مكان الرسائل بحثاً عن رسالة جديدة. فنسيت. لكن ما هي إلا أسابيع معدودة حتى جاءتني رسالة أخرى. كانت مؤلمة لدرجةٍ لم أستطع أن أقرأها مرة ثانية:

«أنا لست تلك المرأة التي خانتك فكرهت بسببها النساء يا خالد. كتبتُ لك رسائل تحت سياط مكابدات الليل، التي تؤكد بأنني بت مغرمة بك إلى درجة لم أعد أطيق فيها وهن جرأتي تلك. وفي اليوم التالي أضعها لك قرب الباب. فكلما كتبت رسالة ورحت لأضع واحدة أخرى في مكانها ولا أجد جواباً منك؛ أحس بأن شيئاً

ما في داخلي يتهشم. فأزداد إصراراً على ما أنا فيه، كأنني أرفض تلك الأصوات التي تأتيني من داخلي وتذكرني بما حدث لي ذات يوم. إلى أن جاء ذلك الصباح الذي ما إن وضعت الرسالة لك قرب باب بيتك حتى وجدت رسالة منك في نفس المكان. عندما حملتها وحشرتها في حقيبتي كنت كمن يحمل الأمل في يده ويهرب به بعيداً خوفاً عليه.

في المقهى فتحت الرسالة التي كانت تمنحني الوجع جرعة كاملة وأنت تقول فيها:

«يا أنتِ، يا حواء التي تطاردني مثل ذبابة كفي عن ملاحقتي أيتها الشمطاء التي مهما تزينت وعلت وجهها المساحيق إلا أنها ستبقى تلك القميئة التي لا تستحق الحياة. أعرفك جيداً، فناموسك لا يناسبني. عودي أدراجك واكسري مرآتك التي تخدعك»

كأن سقف المقهى يا خالد قد استحال إلى كائن متحرك رأيته قد هبط عليّ مرة واحدة، ورأيتني أتطاير من ذاتي شظاياً، ومزقاً. داهمتني حالة من الاختناق، وكأنني حينها رحت أتأهب لتلك الحالة من الصمت التي عصفت بي ذات يوم. عند باب المقهى كان صديقك «رداد» للتو قد عبر إلى الداخل بمعية امرأة ما إن جلست؛ حتى لحق بي يستفسر عما أصابني وكان بادياً على وجهي. أعطيته الورقة ورحلت بعد أن قلت له:

- انظر ماذا كتب لي صديقك خالد.

عندما قرأ الورقة بعجالة، قال لي وأنا أهبط درج المقهى:

- لابد أنك تعرفين لماذا كتب لك خالد بهذه الطريقة. خالد لا يعرفك. لقد أخبرتك أنه بحاجة لوقت حتى يتخلص مما أصابه جراء تجربة صادقة.

إن الوجع الذي احتلني بعد رسالتك يا خالد، يفوق وجعك جراء خيانة تلك المرأة لك. ولهذا سأقتص منك فالحب الذي كان يأخذني إليك بشوق بحارٍ للبحر، قد تحول الآن إلى انتقام امرأةٍ من بحر ابتلع حبيبها ولم يطف على السطح منه شيئاً»

مرّ أسبوع بقيت عبره أكابد سياط الندم على ما قلته في رسالتي تلك بحق امرأة أحبتني بصدق. وما إن قررت أن أستعين برداد ليتدبر لي وسيلة للقاء صاحبة الرسائل تلك حتى اعتقلت في مساء ذلك اليوم.

يا إلهي كيف تحول كل ذلك الحب إلى شهوة انتقام فعلت بي كل ما فعلت!

كيف لامرأة أن تعود بعد زمن، تحاول أن ترمم جسداً أهدته الخراب على طبق التلفيق!

* * *

ما إن مضى علي زمن في المعتقل، حتى؛ بت أحس أن طيف امرأة ينقصني ليجعل الوقت ليّنا بخلاف القسوة التي تعنون الوقت آنذاك. كنت أحس بفجيعة النقصان، خصوصاً وأنا أرى عبد الغفار يشرب الشاي كل صباح مقابل صورة «سماح»، التي رسمها على

مهل، عبر سنين تبددت بين جدران المعتقل. إنها صورة حبيبته، التي كان حضورها في باله يسرّع من زمن المعتقل، ويجعل منه حياة قابلة للهضم. يبقى يتحدث إليها، ويلقي عليها التحيات، وعندما يعصف به الألم الذي عادة ما يجيء كضربات سكين مهترىء؛ يلتصق بالجدار ويبكي بحرقة. حتى أننا اعتدنا أن نسلم عليها، ونتحدث إليها أيضاً

عندما كنت أتلمس خطواتي الأولى في فهم عوالم المعتقل، رأيته متفائلاً، وهو يحمل بيده فنجان القهوة، وعلبة سجائره، والراديو الصغير الذي يبث أغنيات فيروز.

سحب كرسياً ومنضدة صغيرة قبالة صورة لامرأة، رسمت بألوان الطبشور، تهبط على وجهها بضع خصلات من شعرها الطويل، ممتدة إلى عينين جميلتين على الرغم من تعرجات سطح الجدار الخشن، وهي تجلس على كرسي من الخشب، وأمامها منضدة وفنجان قهوة قرب منفضة يصعد منها خيط دخان السيجارة، بينما تتشابك يداها لتعلن بحركة جميلة عن جسد أنثوي جميل.

قال «عبد الغفار» وهو يشعل سيجارته بيد مرتعشة:

- صباح الخير حبيبتي. هل أشعل لك سيجارة؟

صمت قليلاً ثم عاود حديثه:

- أها، نسيت أنك صحوت قبلي، وصنعت لنفسك فنجان قهوة وأشعلت سيجارة.

رمق الصورة بنظرة عميقة حانية، وعاود حديثة:

- ليس هناك أخبار جديدة. البارحة نمت وأنا أقرأ، أو بالأحرى أعيد قراءة رواية البؤساء، التي كنت قد قرأتها وأنا ما زلت على مقاعد الدراسة الإعدادية. الكتب هنا يا حبيبتي منتقاة بعناية، ولا أدري كيف أفلتت منهم هذه الرواية. أنت تعلمين يا حبيبتي أننا مع كل قراءة جديدة، يمكننا اكتشاف شيء جديد. حتى هنا، وأنا أتحرك في مساحة محدودة في هذا المعتقل، أكتشفت جوانب في الحياة خارج هذه الجدران والأسلاك الشائكة لم أكن قد انتبهت لها من قبل.

ارتشف من فنجان قهوته، وأشعل سيجارة أخرى، ثم سحب الكرسي قليلاً إلى جهة الجدار الذي تنزلق عليه الصورة:

- حبيبتي اشتقت لك أكثر مما تتخيلين. البارحة التقينا في الحلم. في قواميس الذكورة يسمونه (الاستحلام)، التقينا كما كنا نفعل سابقاً. فتشت عنك، وكان صوتك يأتيني من داخل الحمّام كموسيقى تستهدف الرغبة عبر نغماتها الصارخة

(أنا هنا يا حبيبي أستحم)

كان جسدك القمحي مغطى بالصابون، والماء يسيل كنهار صيفي من عنقك، بين نهديك الطريين كإيقاعك على درب القلب، ومن حلمتيك اللتين كانتا منتصبتين، تدعوان شفتيّ بكل حنو. الصابون الأبيض الذي اختلط بلون جسدك، أعلن عن لون أثار بي جنون اللقاء. خلعت ملابسي بصمت وأنت تدندنين بتلك الأغنية التي تعاين أياماً من الدلال. فاحتضنتك من الخلف. كان لملامسة جسدك إيقاع طائر غمر جسده بالماء، ثم حلق في الهواء وارتعش.

هبطنا في حوض الاستحمام، الذي امتلأ بالماء والصابون، كأننا نهبط في سرير من السحاب. كنت شهية جداً إلى الحد الذي جعلني أهذي بمقاطع شعرية؛ كانت قد حضرتني للتو آنذاك، ونحن نثمل بشهيق، على مرأى من ماءٍ عمّد رعشة جاءت متناغمة بيني وبينك.

أشعل عبد الغفار سيجارة ثالثة، وارتشف من فنجان قهوته، وقد ازدادت تلك الارتعاشة في يده، ثم سحب الكرسي واقترب أكثر من الصورة، يكاد يلتصق بالجدار. بدت على وجهه ملامح مفاجئة من الحزن وتلك الطقوس التي تسبق البكاء:

- لكن يا حبيبتي أنتِ لست هنا. لست هنا.

وراح يرتعش وينشج كالأطفال:

- أنت لست هنا. عندما صحوت بفعل لزوجة وحرارة السائل الذي انداح في ملابسي الداخلية. صرخت بكل وجع: لماذا يا الله هذا الاعتقال! أكل هذا لأنني رغبت بأن أرى الحياة كما أريد أنا؟

كنتُ واقفاً قرب الجدار في طريقي إلى الحمام، عندما رأيت عبدالغفار يسحب الكرسي، ويجفف دموعه. مرَّ قربي كأن شيئاً لم يحدث، بعد أن ألقى علي تحية الصباح.

رآني سالم مندهشاً، فربت على كتفي قائلاً:

- هذا مشهد يومي يا خالد، ستعتاد على ذلك.

* * *

في المساء، كان عبدالغفار يجلس وحيداً في سريره، يقرأ كتاباً، ويدخن سيجارة تلو أخرى دون توقف، بينما بعض النزلاء يلعبون الورق، والآخرون يتفرجون عليهم في نصف حَلَقة، ومع مضي الوقت، أصبح اللعب حدثاً روتينياً، ينتهي عادة بخلاف يدوم لوقت قصير، ثم ما يلبث أن ينتهي بموجة ضحك عارمة، يندس المعتقلون أخيراً في أسرتهم، وفي نيتهم أن يقتلوا يوماً آخر من أيام المعتقل.

لعب الورق في زمن كزمن المعتقل، يغدو كخنجر يحز عنق الوقت، وفي البال انتظار لأيام أخرى عليها أن تمضي سريعاً. لكن لعب الورق ليس الشيء الوحيد الذي يحدث في أيام المعتقل. فهناك مهمات تتبدل، توكل إلى كل المعتقلين. واحد لمهمات التنظيف، وواحد للطبخ، وآخر لسماع نشرات الأخبار من الراديو، ومن ثم تقديم تقرير شفاهي عما سمعه. وآخر لإلقاء المحاضرات الثقافية، والسياسية. حتى أنهم يتبادلون قراءة رسائل بعضهم البعض مهما كانت خاصة.

في تلك الليلة، لم أنضم إليهم. ليس لأنني مستجد على المعتقل، الذي ضم رفاقاً لي في الحزب أيضاً، ولا لأنني أصغرهم سناً؛ بل لأن لعب الورق لم يرق لي، منذ أن كنت في الجامعة، حيث يجتمع الطلبة أبناء القرى البعيدة الذين يقطنون عمّان، ويلعبون حتى طلوع الفجر. فما إن رأيت عبدالغفار يغلق كتابه ويشعل سيجارة أخرى، حتى تشجعتُ واقتربت منه، فبادر بدعوتي للجلوس حين رآني قريباً من سريره. ما إن جلست حتى نهض متثاقل الخطى وهو يقول:

- بدي أساوي كاستين شاي.

جاء صوت سالم، وهو يغالب السيجارة التي تعلقت بطرف فمه، وهو يمسك الورق بيديه:

- بالمرة ساويلنا معك شاي أستاذنا.

كان عبدالغفار أكبرهم سناً، إذ شارف على الخامسة والخمسين، وأكثرهم خبرة في السياسة والفكر، وهذا كان واضحاً في الآراء التي كان يطرحها حول ما يحدث في عمان وفي العالم العربي. نتيجةً لقراءاته الكثيرة والمتعمقة، وسفراته التي كانت عادة ما تجيء كانتداب من الحزب إلى مختلف أنحاء العالم.

قال عبدالغفار، وهو يملأ إبريق الشاي الكبير بالماء، يرد على سالم الذي عادة ما يشيع روح المرح بين المعتقلين:

- انتو ريحونا من صراخكم. بدون ما تطلب هيني حسبت حساب الجميع.

كان عبدالغفار قريباً للقلب منذ الوهلة الأولى، رغم غرائبيته التي علمت بشأنها، والتي تتمثل بنوبات نفسية تعتريه بين الحين والآخر. لاحت لي خطواته ثقيلة، وأنا أراقب قامته القصيرة بعض الشيء، وشعره الذي اختلط فيه الشيب بالشعر الأسود، ووجهه الذي بدا متهدلاً، إلى جانب العينين حادتي النظر، وهما يحفلان بانتفاخ أسفلهما.

قال وهو يضع كأس الشاي أمامي، على طاولة صغيرة بجانب السرير:

- في عالم المعتقل، عليك أن تتعامل مع الوقت والأشياء من حولك؛ كما يتعامل ذلك النوع من البشر بكل بلادة تنسحب على كل شيء.

أدركت أن حديثه هذا، كان بسبب ملاحظته لعاصفة الحزن التي تبدو واضحة على جبيني منذ أن وطئت قدماي أرض المعتقل. كنت أفكر بالحالتين اللتين يتنقل بينهما عبدالغفار؛ الحالة التي يصاب فيها بما يشبه الجنون، وهو يتحدث لسماح. والحالة التي يبدو فيها مفكراً، ومنطقياً إلى أبعد الحدود. إذ اقتنعت فيما بعد أن عبدالغفار ينصاع للحالتين بمحض إرادته، كأنه يجابه الضيق بالاتساع.

- ربما عليّ أن أدرب نفسي، على طعم الوقت الجديد هنا، لكي أتقبل ما يحدث لي.

قلت ذلك، وأنا أدرك أن عبدالغفار مثله مثل أي سجين هنا، يحاول قتل الأيام كي يعيش.

- أنا أدرب نفسي على أن لا أستسيغ طعم الوقت الجديد يا خالد.

ضحكتُ:

- كيف يمكننا كآدميين أن نستسيغ طعم وقت كهذا مليء بالألم. وتضييق الخناق على كل شيء. لاشيء يسمح به. لا كتب، لا راديوهات، لا مجلات، لا رسائل تأتي من الخارج. لا شيء من هذا كله، إلا من تلك الانفراجات التي حدثني عنها سالم بين الحين والآخر، تحت ضغط الأهل والزملاء في الخارج، وبعض الجهات

المعنية بحقوق الإنسان، وتعاون بعض الجنود معنا. فأغلب الأشياء التي تعيننا على زمن المعتقل الثقيل، أتت إلينا خفية.

صمت قليلاً، ثم أضاف، وهو ينفث دخان سيجارته في هواء بدا ثقيلاً لكثرة دخان السجائر، ولفرط إحساسي بالاختناق الذي داهمني منذ اليوم الأول، وأنا أترك ورائي عالماً لم أتوقع أني سوف أغادره ذات يوم، ثم قال:

- يحدث يا خالد أن يستسيغ الواحد منا طعم الألم وشكله. ربما نتحول إلى ذلك النوع من البلادة التي يمكن أن تقود إلى الاستسلام. ما المطلوب منك هنا في هذا المعتقل. قل كلمة واحدة تتراجع فيها عن مبادئك وامض.

ارتشف من كأس الشاي ثم أكمل حديثه:

- تراودني أحاسيس غريبة أحياناً، مثل أن أخاف اعتياد طعم المعتقل، فأصبح غير قادر على تقبل الحياة خارج هذه الجدران.

ارتخى في سريره، وراح يتحدث بانسياب:

- الوقت خارج هذه الجدران، هو الحياة، على الرغم من كل تناقضاتها. بينما الوقت هنا هو الموت. خارج هذه الجدران، كنت أحلم كأي آدمي بصباحات مشرقة. عندما اعتقلوني خبأت الصباح هناك؛ لأنني حتماً سأعود.

أرخى بدنه أكثر مكملاً حديثه، وهو يراقب السقف:

- هذه هي المرة الثانية التي أُعتقل فيها، أمضيت ثمانية أعوام. وحين خرجت، وجدتني غريباً عن كل من هم حولي. بصعوبة بالغة أعدت القنوات التي كانت مفتوحة بيسر بيني وبين أهلي.

قلتُ، وكأنني أوجه الحديث إلى دفة أخرى:

- وسماح؟

استند في سريره، وقد أضيء وجهه بفعل تلك الذكريات التي طفقت في باله مرة واحدة:

- كنتُ قد التقيتها في بيت أحد الأصدقاء. ليلتها لم أستطع الحديث. لم يخبرني صديقي بمجيئها من قبل. فالوجوه الغريبة تخلق فينا الخوف، ونبقى نتساءل؛ من أين أتت، من الذي دفعها للمجيء هنا، أي معلومة تريد أن تحصل عليها؟ عن من تريد أن تشكل وجهة نظر؟

كان صديقي يتحدث عن المؤسسات الغربية المختلفة، التي تستهدف خلق الانشقاقات في الحركات الوطنية.

كانت تبدي آراء ذكية بكل حماسة، تنم عن معرفة وخبرة عميقتين. وحين دخل صديقي للمطبخ يعدُّ لنا ما نشربه، لحقتُ به أسأله:

- من هذه يا رجل؟

ضحك صديقي بأعلى صوته، بحيث يمكنها أن تسمع حديثنا السري:

– اطمئن يا صديقي لم يدفع بها أحد إلى هنا.

في تلك الليلة، راحت سماح تحدثني عن نفسها، بعد أن تفهمت حذري مما يحدث لأن المرحلة آنذاك تتطلب هكذا حرص.

لم أحبها فقط لرشاقتها الجميلة، والعينين الواسعتين أسفل شعر أسود فاحم وناعم، والوجه الذي يشبه استدارة وجوه الأطفال. إنما أيضاً لروحها الوثّابة التي تتوق للحياة.

منذ ذلك اليوم، صارت سماح بالنسبة لي نقطة تحوّل في حياتي. جعلتني أبادر لطلب الزواج منها دون تردد.

بقي عبدالغفار يحدثني عن سماح طيلة تلك الليلة، وعن الأيام القاسية التي أمضاها في الزنازين والسجون والمعتقلات، إلى أن غفى في سريره بوجهه الهادىء كالأطفال حينما ينامون بعد سماع حكاية مشوقة.

* * *

توقفت عن استذكار أيام المعتقل للحظة. وكان الكرسيّ، وهو يهتزّ قبالة النافذة المطلة على مشهد أشجار القرية، والبيوت قد استسلم لسطوة الموسيقى التي كانت تسيل من فم المسجلة كماءٍ رقراق. أرخيت قدميّ على الأرض فتوقف عن حركته. بضع غيوم قاتمة اجتاحت وجه سماء القرية، فتراجعت أشعة الشمس وقد صارت ملامح الأشياء رمادية تلوّح من وراء النافذة ممهورة بالوحشة. جلبة خفيفة راحت تحدث في الداخل، كانت جدتي ما

تزال تستحث حتى الجدران على الكلام، لكي لا يهزم الصمت البيت الذي ما عاد يزوره إلا قلة من أهل القرية بعد أن غادره ساكنوه. عدت أراقب النافذة بينما صوت التشيللو يلوذ بدمي، كأنه حبة مسكن لها أن تؤجل ضربات الألم.

اختلط صوت الموسيقى بصوت جدتي وهو يأتي حانياً من داخل البيت مستزيدة من دعائها بأن أغادر عزلة استفحلت بي منذ أن غادرت المعتقل بعد أن غبتِ يا سعاد. قرعت الباب ثم دخلت ووضعت كأس شاي على الطاولة القريبة مني. رمقتني بنظرة ثم غادرت دون أن تكلّمني. من خانة الرسائل المرسلة في الحاسوب رحت أعيد قراءة الرسالة التي بعثتها لك بعد أن تيقنت أنك غبت تماماً:

«عليك يا سعاد، أن تكوني أكثر صبراً مما عهدتك، لتتفهمي ما أقوله. فأفضل السبل لتجاوز الحالة التي تعصف بي؛ كما تعصف رياح هوجاء ببيدر قشٍّ فتحيله إلى فوضى عارمة، هو البوح، الذي لا أملك غيره أمام هذا الغياب المفجع. ذلك البوح الذي عرَّفني بك، عبر سلطة كلمات رأيت عبرها خلاصاً من زمن معتقل، يخفق في داخلي، كما يخفق جنين غير شرعي في بطن فتاة تداري حملها عن أعين المارة، الذين تستهويهم هكذا حوادث. ربما تستغربين أنني لم أخبرك في بداياتنا عن سنين عمري التي ضاعت في المعتقل. كنت أود أن أبدأ معك، وبك حياة جديدة. عبر ذلك النهم الشديد للحياة، كنت أتحايل على الذاكرة، وأمارس حيالها حالة من التضليل، ثم قتل الحزن بفرحة من مسدس الأمل.

جدران غرفتي منذ قذفتني العربة العسكرية في المدينة، ثم قذفتني الحافلة هنا، حيث عزلتي؛ تزحف باتجاهي كأنها كائنات غامضة، تتحالف مع سقف، استحال هو الآخر إلى كائن ربّته القسوة كما لا يمكنني أن أتخيل. كل شيء يزحف نحو الأشجار التي وقفت في حوش الدار، قن الدجاج، الأغنام، المارة في الشارع، الذي يفصل القرية نصفين، كما يفصل سيف جسداً طريّا. كل شيء يزحف نحوي؛ محتويات الذاكرة، التي تأثثت بزمن حلمت فيه بحزب يمكنه أن ينجز لي الحياة كيفما حلمت، كركرات الأصدقاء على البار، الذي كنا نثرثر فيه، كلامنا عن الحب، والحرب، والبلاد. الزمن يزحف نحوي، زمن الأمنيات، زمن المعتقل، الذي يتغلغل في شراييني بشكل أفقي، كما لو أنه شفرة حادة. كل شيء يزحف باتجاهي، وأنا أقبع متسمراً أمام لحظتي، التي صارت سجني الثاني. كل شيء، يزحف نحوي، ويطلق صراخه مرة واحدة، كصوت الصوْر، الذي سيُنفخ به، فيهدم الكائنات والأشياء؛ ليعلن يوم القيامة.

الأمر ليس صعباً يا سعاد كي تصبري على حديثي هذا المطول. تخيلي أنني أجلس أمامك الآن، تمنحيني الدفء في ليلة شتاء باردة، أمام موقدة تشهد لغة الخشب المحترق، وأنت تعطيني الفرصة بأن أقول كل شيء يا حبيبتي مرة واحدة.

بعد خروجي من المعتقل، الذي وصم روحي بعذاب يجيء كالمغص الحاد، رأيت الحياة، بشكل غير الذي كنت أراه قبل الاعتقال. كل شيء تبدل، وبقيت لسنين أحمل معي سجني، فأصابتني عزلة من طراز مختلف تماماً؛ فيه من الألم أكثر ما فيه من الأمل. وعندما

عرفتك؛ عرفت معنى أن تحب فكرة العيش من جديد. فالحب ليس محطة قطار يتحدث فيها رجل وامرأة، ثم يفترقان كأن شيئاً لم يحدث. إنه القطار بعينه. القطار الذي مهما مر بمحطات لا يتبدل؛ يبقى هو ذاته الذي يقاوم قسوة المسافات.

فلماذا تسلبيني الآن تلك الفكرة فجأة، وتمنحيني صورة إضافية للسجن، ثم تغيبين؟

لماذا أودت بي تهمة لم اقترفها لمعتقل صار الحلم بالتخلص من براثنه الجاثمة في صدري، يوازي الحلم ببلاد بلا فاسدين، بلا خونة، بلا جوع، بلا قهر، بلا حرمان، وبلا خوف. أرأيت كيف يتنازعني سؤالان، حيال حياة عليّ أن أعيشها. لكن ليس بمرها كما درج القول. إنه الخسران الذي ما هو إلا سجن من نوع آخر، إذ تغدو تلك المقولات التي ترى في الفشل بداية للنجاح؛ غير قابلة للتقاطع مع هكذا حالة، أحدثت بي خراباً، لست قادراً على مجابهته، لأنني أزعم أن هناك طاقة فاقدة لا يمكن استردادها. وأؤمن أيضاً أن شكل الطاقات التي يمكنني اقتناصها من جديد لا يمكن أن تفيدني بما أريد.

قلتُ لكِ ونحن نستسلم لنداءات الحب، أنني أخاف أن أشرع نافذة قلبي مرّة أخرى. هل تتذكرين ذلك؟ إنه الخوف من مصائر غريبة كالتي يودي بها الحلم ببلاد نظيفة من الخسارات. لكنني أشرعتها على مصراعيها، أشرعت نافذة القلب لتحتلين مساحته كلها.

قبل الاعتقال ثمة نيزكٌ سقط ذات حلم على جناحه الأيسر؛ فاحترق الريش، وتهشمت العظام. فافتقدت، بسبب خيانة امرأة كانت ستكون شريكتي مدى الحياة، تلك التحليقات التي تأخذني من سطوة

عالم غيّر حفنة من عبيد المال لغته الأولى. فاكتفيت بمراقبة السماء؛ دونما أي قدرة تمنحني طاقة على التحليق، وصفق الأجنحة. أمضيتُ أعواماً من الصبر، وشرب كؤوس الغمام؛ حتى عاد جناح القلب الأيسر مرة ثانية، قادراً على التحليق، ورؤية ما يحلم به خارج سياق تلك النظريات التي دفعت بالحب إلى التراجع خطوات كثيرة إلى الوراء.

قبل أن أعرفك، كنت أعاني زمن المعتقل الداخلي، الذي يصير أكثر قسوة من سجن بجدران وقضبان من إسمنت ومعدن صدىء، وبعد غيابك هذا صرت أعاني زمنين لسجنين. المعتقل الذي زجني به المحقق، وهو يتوعدني بالكوابيس، وسجنك الذي ما انفك يتوعدني بالأرق.

لماذا كل هذا الغياب!

كل ما فعلته أنني كنتُ أحلّق يديّ حولك، حولك،أداريكِ كشمعة أخاف أن تبدد الريح نورها الذي منح قلبي الحياة، بقيت على مر سنين خلت حلماً شهياً يراودني.

أرأيت كيف تربط المصادفات بين مصيرين، وتنتج منهما مصيراً ثالثاً محكوماً بالألم والأمل معاً. كنت استشعر ألم نارٍ حارقة كصوفيّ يطأ الجمر ، وهو في حالة من التماهي والانعتاق؛ أقبض على جمرك، وأتجلّد تلك الآلام الحادة، التي كانت تدمي يديّ. وكنت حينها أتساءل؛ هل يحتمل الحب أكثر من ذاكرة؟ أتساءل؛ وأنا أراك تتعجلين خلق ذاكرة لي ولك، لكي تهزم ذاكرة أخرى. لذلك صرخت ذات ليلة:

(جئتك بذاكرة نظيفة يمكنها أن تحتفي بكل ما يحدث بيننا، بيننا وحدنا، فلماذا تفعلي بي كل هذا الوجع)

حينها، تذكرت أنك لا تؤمنين بحب يحتفي باللوعة والفراق وطلب الوصال، ربما لأنك نسيت أنني من قوم إذا أحبوا ماتوا حباً. كل ما فعلته حينما أحببتك دون وعي بما يمكن أن يحدث لي، أني أردتك ناصعة من دون أي همسة قادمة من أي رجل. لأني وددت أن أكون خارج سياق علاقات الحب السريعة، التي ما أن تبدأ حتى تنتهي. فقد عوّلت على حياة كاملة بمعيتك، تقصي من شرفتي النقصان. ما يحدث لي، ليست تلك الغيرة غير المبررة، التي عادة ما تخص الرجل الشرقي. إنه إحساس آخر، أكبر من الشعور بالغيرة، وحب التملك، والاستحواذ. إنه ذلك التفاني العميق في الحب، الذي إن اخترقته بعض المفاهيم، فقد روحه الأصيلة، التي من شأنها أن تسند قامة الأرض فينا. قامة الأرض، التي تبدو مترنحة في أحيان كثيرة، كلحظة الغياب. كلحظة التوجس من شيء سيء يمكن أن يحدث. كلحظة الخسران. كل ما فعلته، أني كرهت وهم هذا العالم الذي يختلف ظاهره عن باطنه.

لأنني ابن الشمس، وولد الريح؛ رحت أتتبع خطاك عبر كلماتك في صفحتك الإلكترونية. كتبت ذات مساء كانت كلماتي تتوسط صدر الصفحة نازفة:

«لا يحتمل الحب كل هذا التوجس الأمني»

* * *

يهتزّ الكرسي ووجهك يطل عليّ من جبين الأسود الذي كان يهطل، وأنا أغمض عيني مستسلماً لاهتزاز كان يدرب الذاكرة على الإسهاب في القول. عندما عرفتك كنت أصارع قضبان السجن وهي تتمدد في صدري. وأكابد التشنجات التي كانت تعصف بروحي، دون قدرة مني على إقصاء سجن حملته معي عنوة. فبقيت مشتتاً، كأن لا طريق يمكنها أن تحتفي بخطوة جديدة لي، تأخذني نحو مسرات أخرى. جئت وجاءت رغبات جديدة، فاشتهيتك كما تخيلتك، لا كما يمكن أن يفاجئني به الواقع، الذي ما عاد بإمكاني أن أثق به، كما وثقت به من قبل.

أريدك كما كنتِ في مبتدأ الحب، تترعرعين في تراب الكتابة، التي كانت جسر تواصلنا في مساءات الواقع الافتراضي. إذ تغدو الكتابة في أحيان كثيرة، كالأم الرؤوم، وهي تجمع أبناءها تحت جناحيها الواسعين. الكتابة عبر سلطة الكلمات، نجحت في البدء في قتل المسافة بيننا. كما كانت في زمن المعتقل معْولاً أهدم به جدرانه، التي تربض وراء جدران الإسمنت. الكلمات قتلت المسافة، وفي الوقت نفسه، حشرتني في غرفة ضيقة، عليَّ أن أطلق عبرها كثيراً من الأسئلة. ليس لأنني رجل ولد وما زال يعيش في زمن شرقي، إنما لأنني أنحاز لتلك المساحة التي علينا أن نحافظ بأن تكون لنا وحدنا؛ وحدنا فقط. نتشابه في أشياء كثيرة، ولكننا نختلف فيما نكتب عنه. ذات مرة، قلتِ إن الحب لا يحتمل تلك العقلية التي تمتهن المزاج الأمني في تحليل الكلمات وما وراءها. وجاء ذلك رداً منك على تساؤل حيال نص، كنت أنتِ قد كتبتيه، ذلك النص الذي

بقدر ما أذهلني، كان يوجعني من الداخل؛ الداخل، أقصد ذلك المكان القصي في قلوبنا، الذي إن لمعت به وخزة الألم؛ إنما تلمع لأن هناك شيئاً ما يحدث، علينا معالجته، كي لا يحيل الوجع إلى عادة يومية، تصير عنواناً للحظاتنا التي نريد لها الفرح عنواناً أبدياً. وأنت تعلمين أن الحياة مثلما تحتفي بالفرح، تحتفي بالحزن أيضاً، لكن وقوفنا بينهما هو الذي يقرر أي تلك الأشياء عليها أن تبقى نابضة في شرفاتنا.

يا إلهي كيف حدث ما حدث!

أي قدرة تولد في صدر القاتل بحيث يعود يهز بدن قتيله ويستحثه على الحياة ثم ما إن ينهض حتى يرخي رأسه ليسقط على الأرض ويمضي دونما كلمة واحدة!

أردتك ونحن نعوم في البحر الافتراضي الجديد، كما تخيلتك يا سعاد، لا كما يمكن أن يفاجئني الواقع. صدقيني أريدك كما تخيلتك، أعلم أن ما أريده يغدو أحياناً ضرباً من المستحيل. فنحن نكتب على الورق ما فشلنا في تحقيقه على أرض الواقع. سأخبركِ بشيء:

قبل زمن من تلك الليلة التي ألقي علي القبض فيها، التقيت بكاتبٍ أمضيت سنين وأنا أقرأ له، كان حتى لو كتب سطراً واحداً في جريدة، أعيد قراءة هذا السطر حتى أحفظه تماماً، وأردده في تلك اللقاءات التي تجمعني بالأصدقاء، الذين يلظمهم في العادة خيط واحد؛ خيط الفكرة التي تبشر بحلم جديد، بحياة جديدة. كانت له وجهة نظر متميزة عما يحيطنا من تفاصيل في العالم. أخبرني صديقي

«رداد» الذي ما عاد يهتم بهكذا أمور، أن ذلك الكاتب سيلتقي بمتابعيه. كانت محاضرته في تلك الليلة ناجحة جداً، تناول خلالها الحاجات الثقافية للطبقة الوسطى، وكيف علينا أن نبني مجتمعاً عبر الثقافة يؤسس لخطوات قادمة، حتى أنه أمضى ساعة، وهو يتحدث عن المرأة، التي قدسها في تلك الليلة أكثر مما يفعل في العادة.

منذ تلك الليلة، أصبحنا صديقين حميمين، نلتقي في مقاهي قاع العاصمة عمان، وفي بيته وبيتي. نتواصل باستمرار. لكن تلك السنين من الصداقة كشفت لي المسافة الشاسعة بين شخصيته على الورق، وعلى طاولة الندوات، وبين شخصيته في الواقع. رأيته بعد تلك السنين مختلفاً تماماً. كأنه مصابٌ بالفصام، فقد كانت حقيقته معاكسة لكل ما يقوله.

أقف الآن بعيداً عن تلك الحادثة وأفكر:

أردتك كما رسمتك المخيلة خلال تلك الليالي التي كانت الكلمات في صفحة «الدردشة»، تخلق عالماً مشتركاً، جعلني أحس أنك تحومين حولي، وأحس برائحة عطرك، وهي تندس في رئتيّ، تخلق دهشة البال، وتخلق آه الحب والخيبة.

أريدك كما رسمتك المخيلة.

كنت أردد هذه العبارة بيني وبين نفسي التي تتوق لك، فأتساءل:

هل نعيش في هذا العالم بشخصيتين؟ واحدة نتمثل عبرها المقولات المثالية الكبرى، وأخرى تعيشنا بكل خيبات الواقع، فنبدو

سلبيين أكثر من المتوقع! هل عليَّ أن أحتفظ بتلك الصورة التي رسمتها له في جدران ذاكرتي، وأبقى أتعامل معها دون الانتباه إلى الصورة التي كشفها لي الواقع؟ صورة مركبة من جزئين متنافرين، عجبت لأمرهما كيف اجتمعا دون أن أحس بذلك التنافر!

منذ ذلك الحين، تراجعت تلك الصداقة بذلك الرجل، واقتصرت على مكالمات قصيرة كل أشهر، وبعض رسائل ورقية قصيرة آنذاك. كنت أخاف، أخاف يا حبيبتي، أن أرسم لك صورة، ولا أستطيع بعدها أن أشرب ماءها، وأمضي بخطواتي إلى الأمام. هل تعلمين أن الحب الذي يولد عبر الكلمات، وعبر هذا العالم الافتراضي، يكون مشوباً بصورة مختلفة في أحيان كثيرة؟

عبر كلماتي، شرعتِ أنت برسم صورة لي في مخيلتك، لا أدري إلى أي درجة يمكن لها أن تُحدث التطابق بين صورتي الواقعية، وبين الصورة التي قمت بنحتها. لا أدري إلى أي درجة يمكن أن يحدث لي هذا فيما يتعلق بصورتك التي رسمتها لك. الصورة الفوتوغرافية لا تفي بالغرض. نحن يا حبيبتي نتجمل في الصورة كثيراً. ندعها تمر على مفاصل البرامج الإلكترونية التي خبرتها مؤخراً، ونبدل فيها بعض الملامح، ونضيف لها بعض التفاصيل. نختار لقطات معينة نحب أن نبدو فيها كما نتمنى، فنلوي عنق الصورة، عبر عالم البرامج التي يترع بها الفضاء الافتراضي.

نراقب لوحة «دافنشي» الشهيرة «الموناليزا»، والتي كان وراءها (فرانسيسكو دي بارتولوميو دي زانوبي ديل جيوكوندو)، هي لوحة شخصية لزوجته الثالثة «ليزا (دي أنطونيو ماريا دي

نولدو جيراrديني)، تلك اللوحة التي أمضى دافنشي أربع سنوات في العمل عليها، تحتوي على لقطة واحدة، من ضمن ملايين اللقطات من حياة (ليزا) المرأة العشرينية لفرانسيسكو. نحن يا حبيبتي عشقنا شخصية تلك المرأة عبر لقطة أنفق رسامها وقتاً طويلاً لإنجازها. لكننا لم نفكر باللقطات الأخرى التي يمكن أن تأخذنا إلى شخصية غير التي أهداها لنا «دافنشي» عبر حلم كان يرافقه في أثناء الرسم. أخاف كثيراً لأنني عولت عليك أكثر مما ينبغي.

البحث عن صدر الوردة

وأنا أترك الكرسي يهتز من تلقاء نفسه متجهاً إلى السرير لأرمي بدني فيه، بدت المنفضة مليئة بأعقاب السجائر، كأنها أفكار ماتت في رحمها للتو. حينها لاح السقف ساهماً وخيط الموسيقى يركض نحوي كطفل خائف. راحت خيالات المعتقل تطلُّ من نافذة الذاكرة بأعوامه التي بعد مضيها بدأتُ أعتادها. لقد كانت حالة تعايشٍ مع الوجع، لكنها مختلطة بكوابيس تأتيني بشكل غير منتظم، فبقيت تداهمني حتى بعد الإفراج عني.

ثمة روتين يومي قاسٍ كان يكسو أيام المعتقل. فلا أحداث استثنائية يمكنها أن تبدد شعوراً بالاختناق، يحس الواحد منا فيه بأنه انتُزع من حياة كان يمكنه عبرها أن يقوم بخطوة إلى الأمام.

كان المعتقلون في الباحة الخارجية يمضون ساعة الاستراحة التي لا يحصلون عليها ان ارتكبوا مخالفة ما.

كنت قد نسيت علبة سجائري فعدت لداخل العنبر أحضرها، ما إن دخلت حتى وجدت عبد الغفار قد اقترب من الجدار، وراح يلثم وجه سماح بقبلات خفيفة، وهو يتمتم:

- اشتقتك أكثر مما يمكنني أن أحتمل.

ثم أخذ يلامس الجدار بأنامله كأنه يفك أزرار القميص الذي رُسم بعناية فائقة، وهو يقول همساً

– هم لم يتآمروا على الفكرة التي أؤمن بها فقط. هم يتآمرون حتى على رغبتي بك واشتهائي.

راح يفك أزرار قميصه ويخلعه، ثم ألقى به على الكرسي، التصق صدره العاري بالجدار أكثر، وهو يتمتم:

– دونك أحس بأنني ناقص وبأن كل شيء أعرج. أشتهيك جداً يا حبيبتي.

بأصابعه المرتعشة، كان يتحسس الجدار، كما لو أنه يهم بخلع الفستان الوردي، الذي رسمه بمهارة. تعرّى وتجرد تماماً من ملابسه، ثم اقترب من الجدار محاولاً احتضانه، وهو يقول بوتيرة صوتية علت قليلاً:

– كيف لي أن أعيش دون خصبك ونمائك يا سماح. تآمر الجميع على الخصب والنماء، منذ حضارة الرافدين إلى الآن. وأنا أرفض المؤامرة، وسأحاربها بالجنون ذاته.

التصق أكثر بالجدار، ثم بدأ يضاجع الصورة، وهو يئن أنيناً عالياً، إلى أن انتفض كحصان في عز نشوته وهو يجتاز مسافة بهدوء، انسحبت من المكان، وقد تركته عارياً يسند رأسه على الجدار، يجهش بنحيب مرّ، وكأن حالة من الجنون قد دبت به فجأة. أسرعت لسالم، وهمستً في أذنه بما جرى. طلب مني أن لا أخبر أحداً بما رأيت، وأن أبقى في الساحة مع الآخرين. ثم تركني متوجهاً إلى الداخل. وحين عدنا إلى العنبر، كان عبد الغفار خامداً في فراشه، وقد علت وجهه مسحة من التعب، بينما سالم يسند ظهره إلى الجدار في سريره يدخن وعلى وجهه علامات حزن عميقة.

بقي عبد الغفار في فراشه بين صحو ويقظة حتى حلّ المساء، فاختلى به سالم، وبقيا يتحدثان لوقت طويل، حتى غفى عبدالغفار كأنه لم ينم منذ سنين.حلَّ الليل مبكراً في ذلك اليوم، وبدت السماء باحة للغيوم السوداء التي تبشر بمطر غزير. وظهرت الصحراء من وراء أسوار المعتقل أكثر وحشة وكأنها العدم، حيث صفير الريح، وصوت تكسّر أغصان أشجار السرو والكينا، التي زرعها المعتقلون حول مبنى المعتقل. لبس جنود الحراسة معاطفهم العسكرية، وزادوا عليها أن لفّوا رؤوسهم بالشماغ، ولفحات صوفية بلون زيتي داكن.

كانت النشرات الجوية التي تسمع عبر الراديوهات تشير إلى أن العاصمة حفلت هذا الصباح بثلج وافر كسا جبالها وبقية المحافظات، لكن هذه الصحراء لن تحظى بالثلوج، هذا ما خبره المعتقلون والجنود ومن يقطنون هذه المنطقة البعيدة.

هيّأ سالم المدفأة، فانتشر الدفء في المكان، ومن ثم في الأبدان. بدأت الحكايات تتوارد تباعاً. حكايات من التراث البدوي، حكاية الزير سالم، مقتطفات من ألف ليلة وليلة، إعادة قراءة بعض الرسائل المهرّبة من بعض الجنود المتعاطفين مع المعتقلين.

كنت ممدداً في سريري، أراقب السقف الذي كان متعفناً بفعل رطوبة تداهمه منذ سنين، أسمع بين الفينة والأخرى عواء ذلك الذئب الذي يصل مسامعي منذ أول ليلة لي في المعتقل. كانت الرياح الشديدة بصفيرها الموحش تحمل لي عواءه حزيناً ممزقاً ومليئاً بالشكوى، ما إن يعبر مسامعي حتى يحتل مكاناً في دواخلي، فيجلب

لي على الرغم من وحشته شيئاً من الطمأنينة التي ما زلت استغربها. كنت في تلك اللحظات أتلقى تلك المشاهد التي تخبرني بخروجه على القطيع، غريباً ومصاباً بالوجع. مشاهد كانت تتوالى في مخيلتي، ذئاب تتصارع، ذئاب تتبطش، ذئاب تعبُّ المسافات في بحر الصحراء، وذئب يعوي على جبل واقف في السديم.

قلت لسالم وهو يجلس بطرف سريري بعد أن تساءل عن سبب عزلتي بعيداً عن الآخرين وهم يتسلون بالحكايات وأخبار البلاد:

- هل تسمع عواء ذئب كل ليلة يأتي من الصحراء.؟

ضحك سالم رغم مسحة التعب التي لاحت في وجهه ثم قال:

- مع أن الصحراء مليئة بالذئاب لكنني لم أسمع عواءها يا خالد.

قلت مبدلاً موضوع الحديث:

- نام عبدالغفار؟

قال سالم وهو يشعل سيجارة ويرتمي على المساحة التي بقيت فارغة من سريري:

- من يرى عبدالغفار يظن أنه مصاب بالجنون. ربما تعتريه حالة من هذا القبيل، لكن عبدالغفار يقاوم زمن المعتقل بطريقته الخاصة.

صمت قليلاً ثم أضاف:

– عبدالغفار شخص مثقف ومفكر وقد عانى الكثير دفاعاً عمّا يؤمن به. والفنان الذي يعيش في داخله يجعله لا يقبل الظلم، بالتأكيد نحن هنا في هذا المكان المعزول عن الحياة؛ لأننا لم نقبل بالظلم، لكننا ندرك أن وجود الظلم مشروط بوجود العدل أيضاً، وما بينهما النضال من أجل ذلك. هكذا هي الحياة. أكبر جريمة أن يعتقل فنان بحجم عبدالغفار، يحلم بالحياة عبر تقاطعات اللون، ونزق ضربات الفرشاة.

سحب نفساً من سيجارته، وأكمل حديثه:

– لم أر عبد الغفار حزيناً كما رأيته اليوم، عانقني وهو ينتحب قائلاً: إنسانيتنا تضيع بوحشية يا سالم، هل تصدق بأنني أضاجع الجدار؟ جدار!

من زاوية العنبر، كان محمود الأعرج يعزف على عوده الذي صنعه بنفسه، ويغني أغنية تراثية تحز نياط القلب، سقطت دمعتان على خدّ سالم، بينما اشتد صفير الريح. نهض سالم يجفف دموعه، وهو يصرخ بمحمود الأعرج:

– يا أخي فكنا من هالأغاني اللي بتجيب النكد، غنيلك إشي غير هيك.

عدّل محمود الأعرج من جلسته، وراح يعزف أغنية عبده موسى (نزلن على البستان يا عنيبد يا يابا)، فنهض المعتقلون يرقصون مع الأغنية التي رافقها إيقاع صندوق معدني كان ينقر عليه سالم. ناموا بعد تلك الحفلة الراقصة، وبقيت أنا أتنقل بين المشاهد

التي كان صوت عواء الذئب يأتيني بها في تلك الليلة التي شهدت الصحراء فيها مطراً غزيراً.

* * *

في المنام رأيتني أتجول في باحة المعتقل وحيداً. الباحة تخلو من النزلاء. ثمة غيمة سوداء هجمت على المكان، فخيل لي أن ليلاً حلَّ تلك اللحظة في غير أوانه، وما هي إلا لحظات حتى أمطرت الغيمة حصى، ركضت نحو العنبر، ويدي تمسح جروحاً طفقت برأسي ووجهي. كان العنبر خالياً. لكن ثمة صوت كان يأتي من الداخل، تحديداً من جهة سريري الذي كان قريباً من النافذة الموصودة بقضبان معدنية. رائحة عطرك التي بقيت منذ تلك الليلة التي أدركت فيها معنى أن تكون في السرير مع امرأة تحبها حدّ الثمالة، ثم تدرك فيما بعد معنى أن يبقى العطر حارساً لِطَيف حبيبة غابت دون عودة.

عندما اقتربت من السرير، رأيتك عارية في أحضان المحقق الذي توعدني بالكوابيس. كنتِ تعتلينه وهو ممدد على ظهره، وتتأوهين باللذة، بينما المحقق يمد لي لسانه. حين اقتربت منك، صارت خطواتي ثقيلة وقدماي مكبلتان بسلاسل معدنية، أسقطتني أرضاً وأنا أتوسل:

- أرجوك يا سعاد؛ لا، لا، لا.

ولكنك كنت تطلقين آهات اللذة التي راح صوتها يشج سقف العنبر.

* * *

عندما استفقت من غفوتي كان الكرسي يروح ويغدو أمام النافذة، ورعشة محمومة تتلبسني. تركت الكرسي وأسلمت بدني للسرير مغمضاً عيني تاركاً ليديَّ فرصة أن تتقاطعا على صدري، متلذذاً بتزاوج صوت التشيللو مع نقرات البيانو التي لا زالت تخرج من المسجلة. أدركت في تلك اللحظة وأنا أفكر بسعاد أننا افترقنا قبل أن نلتقي. واحد منا كان في رأس الجبل، والآخر في الوادي، يلتقط الشوك من كف قدمه يوم اشتعلت نار الفراق المفاجىء، فغطت الأدخنة جبين المدى. بمعية حركة الكرسي الذي كان يهتز خالياً، ومن جهة خفية كأنه ليس لي، كان صوتي يردد بوجع مقاطع من قصيدة أهذو بها حتى في المنام:

«أتبخّرُ، أتبخّرُ، أتبَخّرُ

كأني نَهْرٌ يضاجع جسدَ التراب

قبالة شمس حارقةٍ

أرخى لها الله حبلَ الصيف، فاستشاطت بالعويل

أتبَخَّرُ في غيابكِ

فافردي عباءة قلبكِ عَلَّني أتكاثفُ من جديدٍ

وأسّاقط مطراً يشيع في الكائنات شَبَقَ الحلم»

غمرتُ رأسي تحت الوسادة ورحت أتأمل كل ما حدث بيننا في سرير الحب تلك الليلة التي كان على الزمن فيها أن يتوقف. ليلة صارت نقطة في صفحة عشق بيضاء، ستبقى وحيدة كنصب للندم.

كان عليك يا سعاد أن تهشمي وجهك القديم ! وجه الحقد الذي سجنت نفسك فيه رغبة في الانتقام .

كان عليك أن تقتلي فيك تلك المرأة الحاقدة .

لكنّي وجدتُ نفسي قبالة امرأتين، واحدة جبّت غصناً مليئاً بالثمر من شجرتي، وأخرى أتت تحاول أن تعيده .

* * *

بعد كل تلك السنين، أتساءل بريبة، عن كل تلك الأيام، بما حملت من حب لكِ صار أشبه ما يكون بشجرة كنت أمضي النهارات أخلخل التربة حول جذعها لكي تتنفس جيداً. أبعد عنها الطيور التي يمكن أن تؤذي ثمارها، أرويها من ماء القلب، بيديّ أدفع الرياح العاتية عن أزهارها؛ كي لا تهزم أمام رياحٍ تأخذ في طريقها حتى الحجارة.

أخبرتكِ أنك بالنسبة لي قارب نجاة وجدته بمحض الصدفة عائماً على سطح مياه المحيط، ينتشلني من غرق مؤكد، ثم يأخذني باتجاه حياة كنت أعتقد أنها تلاشت حتى من فضاءات الأمل. قلت ذلك يوماً، وسأبقى أردده ، وأنا أتذكر الآن كيف كانت كلماتك تأتيني مطمْئنة عبر فم هذا المخلوق الإلكتروني الذي عبر حساباته الدقيقة ما زال يجعلني أخلط ما بين عالمين؛ واحد واقعي، وآخر افتراضي.

كتبتُ فيما مضى دراسة عن هذا الواقع الافتراضي، وعرجت على الحب في أتونه. عندما نشرت تلك الدراسة، جاءتني ردود فعل

كثيرة، منها ما هو مؤيد، ومنها ما هو معاتب لقسوتي على هذا الواقع. وها أنا أفتش كالمحموم في مكتبتي، وأمزق الدراسة، وأرسل رسائل إلى محرري الصحف، والمواقع الإلكترونية، بأن يحذفوا تلك الدراسة من أرشيفهم، لأنني اكتشفت أنني مخطئ فيما ذهبت إليه. قلت لهم أنني أحببت امرأة عبر هذا الواقع الذي كنت أمقته، وأرى فيه تحييداً لأبسط شروط الحب. لكنني الآن أقع صريعاً لهذه الحالة التي غيرت بي أشياء كثيرة.

* * *

عندما نهضت من السرير، ووقفت أمام النافذة لم يكن هنالك أصوات تأتي من القرية التي ولدت فيها، ثم غبت عنها عمراً، سوى صوت قطة تعبث بـ «الحاويات»، التي امتنع عمّال النظافة مؤخراً عن تفريغها؛ احتجاجاً على تدني رواتبهم. كان صوت تلك القطة، وهي تموء جوعاً، يثير بي وحشة من نوع غريب. الشتاء قارص وطويل ذلك العام. فكبار السنّ الذين ما زالوا يتعاملون مع الفصول وطقوسها عبر مفاهيمهم الكلاسيكية يرون أن أعوام (محل) سوف تحل على البلاد على الرغم من غزارة الأمطار التي هطلت، وأربعينية ذلك الشتاء التي أتت محملة بشهوة الصقيع المتطرفة. حتى الأصوات، والحركة في المنزل لاذت في ذلك اليوم بسكونها السرمدي، وأنا أعتكف في غرفتي التي شهدت سنين من الهواجس، والأحلام، والأمنيات، والدموع التي عادة ما أذرفها بعيداً عن العيون. رغبة شديدة بالكتابة داهمتني. ربما كان علي أن أدافع بسلاح الكلمات عن قلبي الذي كان عليه أن يصمد بوجه رياح الغياب والغربة التي

تذرو روحي. ربما كان علي أن أشيّد على الورق ما أخفقت بتحقيقه على أرض الواقع. الكتابة التي تبدو متعِبة، على الرغم من المتعة التي تصيبنا ونحن ننتهي من كتابة فكرة تطرق فجأة جدران البال بإلحاح، ونروح نستخدم كل خبراتنا لإخراجها إلى سرير الورق، دون حقنة (الباثادين) التي تسهل عملية الولادة عادة. تماماً كطبيب يهادن امرأة ثم يستفزها لاستجماع أنفاسها كي تدفع بطفلها الذي ما أن يأتي حتى يطلق صرخته الإنسانية الأولى.

رغم أن الشمس كانت ما تزال تطل من وراء الغيوم القاتمة، تسللت إضاءة خفيفة، راحت تزمّلُ شيئاً من جسد الغرفة، ببقعة ضوء دائرية ساطعة يدلقها مصباح انحنى على وجه الطاولة كأنه عجوز يفتش عن شيء ما منذ الأزل. رحت أدور حول نفسي بخطوات ليست منتظمة كتائهٍ يبحث عن دليل يدله إلى الجهات، ثم سحبت كرسياً وجلست إلى الطاولة ووضعت أمامي رزمة من الورق الأبيض. وريشة ودواة حبر. الورق الأبيض شيءٌ ساحرٌ ما تراجع لحظةً عن إثارة شهوتي للكتابة، والريشة أسقيها حبراً، كجزءٍ مصابٍ بعطشٍ أزليٍّ في دواخلي .للكتابة على الورق الأبيض نكهة الأصول البيولوجيّة، تختلف تماماً عن الكتابة في صفحة إلكترونية لا نكهة لها ولا رائحة ، وبكبسة زرّ خاطئة تغيبُ بلا عودة. حدث هذا لي ذات مرة. لذا أقلعت عن تلك الفكرة الحداثوية منذ ذلك الحين، وعدت لعالم الورق. الورق برائحته، بملمسه، بلونه؛ طقس فريد من طقوس الكتابة. بخط عريض كتبت في منتصف الصفحة الأولى عنوان الرواية، «مقصلة الحالم». وأسفلها وضعت اسمي متبوعاً بعبارة تلح عليّ منذ أيام (أكتبُني لعلّني أولد مرّة ثانية) وأسفل تلك

العبارة بخط متوسط كتبت مفردة (رواية). لا أدري لماذا لم أقرر أن أكتب شعراً، على الرغم من أن الشعر يأتي مباغتاً مثل شمس تداهم امرأة تحتفي بأنوثتها تحت عباءة الليل. فكرت في تلك الأثناء بما قالته «إيزابيل إلليندي» بأن (الأدب الروائي ما هو إلا وسيلة للقول بصدق الأمور منذ البداية)

قلبتُ الصفحةَ على ظهرها، وأنا أدرك أنني انتهيت من خطوة مهمة، ووضعتها جانباً ثم رحت أكتب الإهداء:

(إلى امرأة ستبقى كالبندول في فضاء اللحظة، يروح وجهها، ويغدو في شغاف قلبي المتيم بها)

ثم رحت أتساءل:

ترى لأي امرأة فيكِ كتبت ذلك الإهداء!

تراه لتلك المرأة التي أشعلت بنار انتقامها حقل عشرين عاماً من عمري. أم لتلك التي ما إن جاءت تزرع حقل السنين ؛ حتى توارت كأنها لم تكن!

ارتشفت شايّاً وأشعلت سيجارة نفثتُ دخانها في الهواء، وأرخيتُ رأسي على مسند الكرسي، ورحت أفكر في دواخلي، وأتساءل مرة أخرى:

إنها المرة الأولى التي أقاتل فيها العزلة بالكتابة، منذ أن خرجت من المعتقل، أقاتل الغيب بالبوح. أضع العنوان والإهداء لنصّ قبل كتابته. ربما لأن ما يحدث لي لا يحتمل الانتظار، فأخاف ضياعه. هل ما أكتبه سيأتي ضمن سيرتي الأدبية التي ربما ستشير إلى

أنني كتبت شيئاً مهماً يجد استحساناً لدى عشرة قراء على حد أمنية (مؤنس الرزاز) كما تمنى ذات حياة؟ أم أنني حقاً كما كتبت أسفل العنوان: أكتبني لعلي أولد مرة ثانية؟ لكن الذي أتيقن منه في زمن ضاع منه اليقين أنني أكتب لها. تلك المرأة التي بقيت زمناً تراقبني من بعيد «على حد قولها»، وتعيد بينها، وبين قلبها قراءة ما أكتبه، كأنها تكوّرني من جديد لها؛ لها وحدها. المرأة التي لم أعِ منذ أن أسلمت قلبي لها، بأنها ستكون نقطة تحول، ستقلب حياتي رأساً على عقب، وتجعلني أكتشف أن هناك حياة في حياتي لم أعشها كما ينبغي. حياة تساءلت بشأنها في المعتقل بمرارة، حين كنت أردد:

لماذا لم أؤثث قلبي بامرأة تحدث لي توازناً حتى في عوالم المعتقل ذاته!

أدركت أن امرأة مثلك يمكنها أن تحيل الأشياء التي تلمسها إلى ذهب. وقد كان العالم كله غير الذي عرفته. كنت أظن أنه شرفة صغيرة، في حينٍ كنت فيه بحاجة لاتساع المجرة لكي أبدو تائهاً بمحض إرادتي.

(أنت تعرفني منذ عام ، بينما أنا أعرفك منذ سنين طويلة)

خطرت لي عبارتها هذه التي قالتها ذات لقاء، فرحت أردد متأملاً:

– يا إلهي كيف قلتِ ذلك دون أن أعي معنى ما تقولين؟ ولم يخطر ببالي أن أتساءل من تكونين في تلك السنين ؟

ففي لحظات معينة من حياتنا نتمنى لو أن عجلة الوقت تدور إلى الوراء. لا لكي نعود أطفالاً نلهو بفهمنا البريء للحياة؛ إنما

لنتفادى بعض الأخطاء، ونستزيد من بعض الخطايا. في تلك اللحظة، تعطلت القدرة لدي على تحليل الكلمات، وقراءة ما وراءها. ليلتها كان عبورك آسراً، وسريعاً. تعطلت قدرتي بحيث لم أنتبه إلى أنك كنت تسقطين الذاتيّ على الموضوعيّ، ولم أدرك حاجتك لرجل يداوي إحساسك بالخيبة وبخطيئة أدمت قلبك لعشرين عاماً. وها أنت تهدينني الخيبة ذاتها. تماماً مثلما تهديني ما يروي لغة الفصول. كان علي أن أتأمل تلك العبارة وأمررها على سكان ذاكرتي. ربما كان قدراً طيباً لكي يحدث ما حدث بيننا.

ألم تغني «أم زياد» : ضحك اللوز وخلص اللوز؟

بسرعة يزهر ويرحل اللوز، لكن الإشراق الذي يتركه في مروره السريع يكفي ليروي لغة الفصول كلها، هكذا كانت سعاد، لقد فكرت بنفس طريقتها القديمة، التي جاءت بعد كل تلك السنين تكفّر عن عما نتج جراءها.

* * *

وأنا أجلس لطاولتي كان الكرسي الهزاز يتحرك من تلقاء نفسه، بينما أشعة الشمس التي مالت إلى الغروب تسقط عبر النافذة على بدنه، مثل كهل يوغل في السهو ويتذكر. وضعت القلم في رأس الصفحة. بضع كلمات أتت حزينة وخجولة، ومنكسرة؛ كأن شِباكاً تحول بين الورقة والكلمات. لم أستطع أن أكتب. شعرت أنني عاجز تماماً عن قول ما أريد. أحداث، وحكايات كثيرة تقاطعت ببعضها البعض. كأن ما يحدث لي هو يوم القيامة الذي تخيلناه عبر كم

الكتب والمنشورات الدينية، التي تتوعد بالعذاب أكثر مما تتوعد بالهناء. وهو يستقر في الذاكرة بكل رعبه. كنت في غاية الرعب، وأنا أضع رأس القلب على رأس الصفحة.

لك أن تتخيلي ذلك الشعور الذي ينتاب واحداً مثلي قرر أن يضع فم قلبه برأس الصفحة، يبوح لها بكل شيء بعدما وجد الإجابات على كل تساؤلاته، كأن ما سيحدث هو ذلك الترابط الذي ينشأ عندما نوصل كاميرا إلكترونية بحاسوب شخصي. كلما كتبت بضع كلمات مزقت الورقة. ثمة كلمة واحدة كانت تعوزني لتفجر كل ما يوجعني. أرخيت رأسي على صدر الطاولة أنصت لدواخلي. لم أستطع أن أسمع سوى أصوات متداخلة كـعواء ذئب، وصفير رياح، ونواح امرأة، ورجل ينطق الشهادة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولعلعة رصاص، ونقرات أصابع على لوحة مفاتيح لحاسوب، وصرير باب سجن يوصد، وصوت محقق، وصوت امرأة تتأوه باللذة. تركت الطاولة، ورحت أدور حول نفسي في الغرفة والكرسيّ يهتز سريعاً وكأنه يكابد مثلي تلك الأصوات التي تلاحقني كدبابير مستنفرة. أمسكت هاتفي، ذلك النّقّال الذي رأيته للمرة الأولى يوم خروجي من المعتقل محمولاً على خاصرات المارّة ، فاعتقدت أن الناس جميعهم قد أصبحوا مخبرين مزودين بأجهزة لاسلكيّة.

اخترت اسم «رداد» من بين قائمة الأسماء المحدودة ثم حاذيت سماعته أذني بعد أن ضغطتُ زر الاتصال. جاءني صوت أنثوي ناعم يتحدث بالفرنسية، يعلمني أن الهاتف النقال في الأجواء الفرنسية، وأنه غير متاح للاتصال به الآن. فأدركت أن رداداً، وهو

مهندس طيرانٍ في عمله الآن يرافق رحلة إلى فرنسا. كنت سألجأ إليه كما كنت أفعل في كل مرة، أبقى أسرد له ما يوجعني، ما يفرحني، وما يقلقني دوماً. واعتادَ هو أن يحدثني عن مغامراته مع النساء اللواتي يلتقيهن في كل بلد تحط رحاله فيها. رميت بالهاتف جانباً، ورحت أدور حول نفسي فراراً من خليط الأصوات الذي كان مع كل دورة حول نفسي يستبحيني أكثر من ذي قبل. وهرعت إلى النافذة واشرعتها فتدفقت الرياح تبعثر الأوراق التي كنت أستجديها تستنطقني لعلي أقول ما يوجعني. لكن الأصوات بقيت تلاحقني وتكاد تفجر مسامعي. تحت صنبور الماء البارد هبطت دون أن أخلع ملابسي، وبقيت استسلم لصفعات الماء إلى أن تلاشت الأصوات كأنها لم تكن.

إلى الطاولة جلست، أعاود محاولة الكتابة مرة أخرى. كان عليّ أن ألملم كل التفاصيل، وأقعي أمامها لأتبين سر الذي حدث؛ فأستعيد شيئاً من الضوء لأراكِ من جديد، وأكتبني لعلني أولد مرة أخرى، وأنا أدرك أنني أتيتُ على كل الضوء حينما أوغلت في أحلامي ببلاد خالية من القهر، وبحبك الذي أعتقني من سجن ليبيعني لسجن آخر. فصارت خطواتي تتعثر بالأشياء كضرير يقاوم فكرة العمى.

عندما وضعت القلم برأس الصفحة بدا خليط الأصوات يقترب إلي من بعيد، وصوت الدكتور ويلسون يهمس بأذني ناصحاً:

- اترك هذه الجدران.

حينها أخبرت جدتي بنيتي في مغادرة المنزل لساعات. أطفأتُ ضوء الغرفة، وحملتُ حقيبة كتانية حشرت بها حاجياتي، ثم ركبت سيارتي، متوجهاً إلى جبل (نيبو)، وفي البال يعلو صوت السؤال الكابوس (لماذا كانت تلك التهمة التي خسرت بسببها كثيراً من ذخائر الحياة)؟ بينما في مسامعي صدى لعويل الذئب، وهو يجيء حازّاً نياط القلب بعواءه الجارح.

تلك الليلة في جبل نيبو

الموت هو النهاية النقيُة الجميلة الوحيدة لعاطفة عظيمة

«ديفيد هربرت لورانس»

هروب إلى حضن الجبل

استسلمت السيارة للطريق المنطلقة من مادبا تمر بجبل نيبو ثم تكمل امتدادها نحو الغور. بدت لي وهي تقسم حقول القمح والخضروات إلى نصفين متساويين؛ لولبية تنسلّ من بين أشجار سرو، وصنوبر، وحشائش متناثرة نبتت على طرفيّ الطريق، كأنها شَعر امرأةٍ انتهت للتو من شهيق اللذة. إنه «نيبو»، جبلٌ يقف في بهو الهواء يحتفي بالسّهو؛ كما يقف في بهو قلبي شرفةً للحنين، بسطوته التي لن تغادر مخيلتي بسهولة.

راح المطر الناعم في ذلك الحين يرشق الكائنات بهواجسه الحانية، والسيارة تتمايل في الطريق بهوادة. فبدت الأشجار والبيوت أمام ضوء السيارة الساطع، كأطفال يلهثون إثر لعبٍ طويل تحت المطر. وكانت مادبا ورائي تنتشي تحت الرذاذ.

عبر الطريق كنت أعلم أنني ذاهبٌ إلى الجبل أشيلُ قلبي بيديّ المليئتين بالشوك. شوك معتقل يلاحقني لباقي السنين، وشوك امرأة تكررت في حياتي مرتين.

ذاهب إلى الجبل أشيل سنين عمري في وقت ليس ككل الأوقات التي ذهبت فيها هناك لأطرد شبح الملل، وأحوّش غمام المسرّات وهي تتمطى في هواء التمني. فكلما أحكمت العزلةُ عليّ قبضتها؛ أسرع للجبل كأنه كائن حيّ يصغي إلي باهتمام الطاعنين في

الحكايات. فالأماكن المرتفعة عند خاصرة الريح تأخذك من رسغ قلبك وتمنحك فرصة أن تبوح، كأن سكان الذاكرة لا يحلقون إلا في الأماكن العالية.

كنت أعلم أنني ذاهب هناك بمحض حزني، منتبذاً الجبل ملاذاً لي، بعد أن اكتمل لحن الفجيعة، كأن الذي باحت لي به سعاد في المطار وهي تهم بالرحيل، بقي غافياً وأفاق في يومٍ ما عاد لي فيه حيلة على الكتمان. فرحت أهرب منها إليها، ومني إليّ، ومن شكل القضبان التي لم يسعفني الدكتور ويلسون بشأنها، ولم تستطع عقاقيره الطبية أن تجعلها تتراجع، وتختفي من حياتي. اكتمل لحن الفجيعة في ذلك اليوم. اللحن الذي طالما خشيت نضوجه وهو يشرح تلك المسافة التي يقترب فيها رأس الحالم من المقصلة، منذ أول نوتة فيه.

يا إلهي، كيف يكون جزاء الحالم مقصلة!

مثلما كان الرذاذ يهجم على زجاج السيارة وأنا أيمم نحو الجبل، كان عالم الذاكرة، التي كنتُ أهربُ منه، يهجم عليّ عبر الطريق التي راحت تأخذني بهوادة نحو ذاكرة مهما رغبت بمحوها، إلا أنها تصير في مرحلة ما من العمر يداً ترتب فينا نبضات القلب ليحفل بالحياة.

في ذلك اليوم دبّ الليل باكراً في بَدن الكون على عجلة من أمره. تماماً كما يسري سائل أسود في قماش أبيض. وكأن الجلبة التي تحدث في النهارات لم تحدث قط. لا يبدو من الأشياء سوى ملامحها

وهي تغرق في تلك اللحظات الانتقالية بين ضوء النهار، وعتمة الليل. وحشة ما اعترت الأشياء، واعترتني فتنهّدتُ أستجدي قليلاً من توازن ينتشلني، من روتين ذلك السخاء في الوجع. شغّلت مسجلة السيارة فانطلق صوت (اندريه بوتشيللي) كحارس راح يحمي جبين القلب الذي ينزّ فيَّ عّرَقاً منحه لظى اشتعالات تحدث دون أية قدرة على إيقافها. «بوتشيللي» هذا الذي يعْرف كيف يهدهد قامة قلب يتلوى ويتنهنه منذ عمر من الأسئلة، وزمن القلق.

«وكأن النَّهْنَهَة تلك التي تَسْبق الدَّمعة ما هي إلا موسيقى يؤلفها الحزن، ويؤديها الوجع»

كلما أوغلت السيارة في الطريق التي تعلو وتهبط مثل أنفاس حالم يكابد تبدل الصور في مرآة حياة لا تمنح عطايها بسهولة نتخيلها ونحن عند الاشتعالات الأولى للحب، رحت أوغل في التساؤل بوجع، كيف سيكون شكل الحياة دون أسئلة! وأنا أدرك أنها ستستحيل رتابة لا يحتفي بها سوى الموت. رتابة لا يقف ضدها سوى أسئلة من شأنها أن تشعل في بدن الحياة الإجابات التي إن غابت؛ ستتلاشى الملامح التي فتشت عنها عبر سعاد بنهم من يسرع في خطواته المنهكة نحو السراب.

خلفت ورائي القرية المتاخمة للجبل وانحدرت السيارة عبر الطريق التي تنساب بيسر، فأطل نيبو وهو يسرح بصره ساهماً في المدى كما عرفته منذ سنين بعيدة. ما هي إلا دقائق قليلة حتى وصلتُ، لأكتشف أن نيبو في ذلك المساء الشتائي خال من روّاده. أولئك السهارى الذين اعتادوا أن يحملوا أغنياتهم، ونبيذهم

وحبيباتهم، وقصائدهم، وضجرهم إلى حيث يعانق الغيم رأس الجبل باشتياق . كانوا يلوذون بالمدافىء التي تنطلق أدخنتها من أسطح البيوت كقامة مارد يشق بطن السماء. كانت درجات الحرارة آنذاك قد هبطت إلى حيث يخلو العراء إلا من واحد مثلي، يشكو البرْد والعطش منذ لثغته الأولى. وكان الرذاذ قد توقف عن منح ارتعاشته الموسيقية.

ركنت السيارة في آخر مكان يمكنها أن تسير فيه؛ وقد أنّت أنيناً يأتي في العادة بهكذا وتيرة حينما نصْعد مكاناً عالياً يصلح للبوح.

ترى هل ذهبتُ في ذلك المساء إلى الجبل لأبوح؟ أبوح لها في غيابها، لي، للجبل، للريح ربما؟ هل ذهبت في تلك الليلة لأنني أدركت أن الحكاية قد انتهت، والمتبقي منها ما هو إلا شهقات تشبه ارتدادات زلزالية تعقب زلزالاً مدمراً حدث وانتهى؟

ترجلت من السيارة أحمل حقيبتي، ثم قطعت مسافة طويلة انتهت عند صخرة كبيرة، اعتليتها وجلست هناك استعين بما تبقى من شفق كشف لي ملامح البحر الميت، والغور. ماهي إلا لحظات حتى ذابت آخر أنفاس الضوء قبالة عاصفة العتمة التي قرأت بيانها الأول في تلك الليلة.

حول الكنيسة التي استراحت على رأس الجبل، ككهل أتعبته المسافات، فأراح بدنَ التّعب، تناثرت أضواء كأنها جنود يفتشون الجبل عن هارب. إنه جبل «نيبو»، حيث وقف النبي موسى مشيراً

إلى أرض الميعاد، بقعة شهدت مرور القساوسة وأعادت فيها قبائل مسيحية بناء الكنيسة في القرن السادس عشر، بعد أن هجرها أهلها، لحروبٍ دارت على ذلك الجبل. كنيسة يقف في مقدمتها صليب معدني، تلتف حوله أفعى ضخمة. الجبل الذي كلما وجدتني أتفصد من ذاتي كحجر تحت ألسنة النار؛ أهرب إليه، أرخي أشرعتي التي أتعبها صدامها مع الرياح، وأدلق كل ما بي على محمل البوح. فالجبال أمكنة عادة ما يصبح مرتادوها أقرب إلى الله. فليس الأنبياء فقط من يلوذون بمحراب الوصال، إنما الحالمون أيضاً، يمكنهم أن يشجوا صدورهم هناك، لتفر عصافير بوح الشجن من أقفاصهم الصدرية.

نيبو عتيق في البال. ربما يغدو كأي جبل في هذا الكون، فنحن نرسم صوراً للأشياء التي نحبها، ونتمسك بالصور. لنكتشف فيما بعد أن ما رسمناه ما هو إلا الشكل الذي تمنيناه للأشياء بأن تكون. لذلك كنت حذراً، كجنديّ يعبر حقلاً مزروعاً بالألغام، وأنا أمهر جدران ذاكرتي بتلك الألوان، لأرسم في البال صورة لسعاد. كلما أنجزت ريشة الذاكرة جزءاً في الصورة، استبد بي خوف من شيء مجهول قادم يحمل لي معه ملامح التيه.

وأنا أعاينها مرة أخرى كانت تلك الإنارات طافحة بالضوء، ويَقِظة كقساوسة ينتشرون حول الكنيسة حين ألقت بأشعتها، فلاح الصليب المعدني، بفعل ضوء كهربائي ساطع، وحوله تلتف أفعى، ترمز لأفعى «موسى» كجسد لمارد يطل على البعيد، إلى جانب شجيرات الزيتون التي بدت كرؤوس لصبايا يتهيأن لحفلة راقصة. تلك الشجيرات التي صار العشاق، وأصحاب الأمنيات، عندما

يزورون الجبل، يعلقون عليها أوراقهم ومناديلهم من باب الحلم، وينقشون على جذوعها عبارات حب خاطفة. وأنا أنتصب على تلك الصخرة أمام ريح كانت قد بدأت تتدفق من وراء الجبال، تذكرت كيف كان النزلاء في المعتقل ينقشون الحروف الأولى من أسماء حبيباتهم على الجدران بكل روية، بما أن الوقت كان يمضي ببطء مَرَضي، حتى صارت تلك الجدران هوية لعوالم القلب، وأنا أرى عبارات محملة بالحب إلى جانب الحروف الأولى من الأسماء التي كانت تضجّ من وجه الجدار. حينها لم يكن في القلب طيف لامرأة يمكنني أن أؤرخ لها على مساحات تلك الجدران، فكنت أكتب الحرف الأول من اسمي دون حرف آخر، يمكنه أن يخلق جوّاي تلك الحالة التي تجعل الواحد منا يتلذذ حتى وهو يحس بقسوة الاغتراب، في معتقل تنزُّ جدرانه ملحاً، وهو في عقر صحراء لا تمنحك سوى الوحشة.

* * *

لعج في المدى برق كان قد لامس صدر الأرض، ثم تبعه صوت رعد بدد صمتاً كنت قد استغرقت به منذ اعتليت الصخرة الكبيرة. قطرة، قطرة بدأ هطل المطر يزداد حتى أصبحت الرؤية مشوشة. رغم اختلاط الجهات عليّ في تلك اللحظة، إلا أنني كنت قد نويت أن أعود للسيارة حتى أتفادى عاصفة رعدية بدا لي أنها قد حلت للتو. خطر لي أن تكون عجلات السيارة قد غارت في الوحل وأن أمر ركوبها بات متعذراً في ذلك الوقت، فعدلت عن فكرة

العودة. راحت العاصفة الرعدية تزداد وأنا لا أجد سوى الصخرة أحتمي بها من قصف الطبيعة لجسد الأرض. ثمة تجويف صخري تذكرته، وأنا أهم بتخمين مسافته القريبة من مكاني، حينها ركضت وسط تلك العاصفة أفتش عن ذلك التجويف، والريح تكاد تحملني معها وهي تعصف بكل شيء. مرة واحدة، وبعد أن قطعت مسافة لا بأس بها، غابت العاصفة كأنها لم تكن، فتوقف هطل المطر، وقصف الرعد، وإضاءات البرق الإسطورية. فتوقفت عن الجري وأنا ألتقط أنفاسي، وجسدي يتقاطر ماءً. اجتاحتني رغبة عارمة لسيجارة فاشعلت واحدة ورحت على مهل أفتش عن ذلك الملاذ وأنا أمشي بخطوات مترنحة سببها الأعشاب الغضة الطرية التي احتضنت الماء في أبدانها، تُحدثُ الإنزلاقات. كنت أسير حذراً بين الحشائش البرية، ونثار الصخور، والانعطافات الترابية، أحمل حقيبتي التي احتوت على إبريق شاي، وزجاجة ماء، وعلبة سجائر، وأوراق، وقلم، ومصباح، وبضعة أرغفة من الخبز، وأقراص جبن، وحبات بندورة، وعلبة حليب لتنشط آلام المعدة. إضافة إلى هاتفي، وحاسوبي. ووصلة إنترنت لاسلكية، ومسجلة يمكنني عبرها أن أصاهر روحي بماء الأغنيات.

قبل أن أصل الملاذ الذي قادني له قلبي في تلك الليلة، عادت العاصفة الرعدية تمارس إبادة عطش الأرض بطريقتها الخاصة. فركضت لعدة أمتار ثم وجدتني داخل كهف صغير تناثرت به بضع حجارة وبضع أوراق وأغصان شجر يابسة. ثمة دفقة من خوف ألمت بي لكنها تبددت بعد أن قمت بتنظيف ملاذي لتلك الليلة مبقياً

على أغصان الشجر الناشفة التي احتضنتها، كأنني احتضنكِ يا سعاد، وأنا أهجس بالدفء، وفي شهيق القلب طقوس البرد والصقيع الذي يأتيني عادة عندما أقع في الدائرة التي لا تحيلني إلى إجابة ما.

في حفرة صغيرة حشرت الحطب وأشعلته لتفر العتمة أمام وهج النار الذي آنس المكان، وآنس جانباً من روحي. إذ لا تصير الملاذات الصخرية في هكذا أوقات يختلط فيها المطر بالبرد، ولسعة الريح مكاناً آمناً من جنون الطبيعة فقط. إنما ملاذاً من وحشة القلب أيضاً. تماماً كحضن الحبيبة في ليالي شتائنا الداخلي.

تمتمت وأنا أقربني من لهجة الدفء، التي كانت تأتي من حفرة النار:

(حضن الحبيبة؟ آه، أينه مني الآن! هل تتذكرين كم مرة قلت لك أنني أشتاق لحضنك؟

أريدني طفلاً يدس رأسه في صدرك، ربما يبكي، يغفو، يضحك. وربما يذهب كما قال محمود درويش إلى موته المشتهى.

لا أزال أتذكر؛ أنك كنت تريدين ذلك أيضاً. ألا ترين أننا نشبه بعضنا البعض. إنه تماهٍ جعلني أتشبث بك حدّ انصهار معدن بمعدن. هل تتذكرين عندما كتبتِ لي، بأسى واضح ذات صباح:

«كنتُ جالسة على شاطئ البحر، الذي يمتد حتى الالتصاق بالأفق، وكنت أبكي. صدقني أنا لا أبكي بتلك السهولة التي تبكي فيها أي امرأة ترى في البكاء وسيلة للتخلص من ثقل حزن مباغت. أنا بحاجة لرجل يمنح قلبي سعادة، شُيدت مسافات بعيدة بيني

وبينها. أنا أحببتك فقط لأني أحبك. أحببتك من خلال ما كنت تكتب. فشعرت بأنك تكتبني بمهارة فائقة. إنك تشبهني إلى حد يصعب أن أتراجع ولو رمشة عين عن عالمك»

نعم يا سعاد، نحن نشبه بعضنا. لكن هل نتنافر إن تعانقنا مرة ثانية؟ هذا ما يشيع الخوف بي. ربما علينا أن نتفق أن نتبادل الأدوار. ليلة أكون ملاذك. وليلة تكونين ملاذي. ونختار ليلة يكون فيها القمر بدراً ليكون هو ملاذنا. حينها سيتحقق ما نريد. سأكون شبِقاً أكثر مما أريد. ستكونين شبقة أكثر مما تتوقعين. المهم أن هناك ملاذاً يجمعنا. وملاذي هذه الليلة من عواصفي الداخلية، ومن شتاء نيبو هذا (الجرف) الصخري الذي يشبه يداً فوق حاجب عين تطل على درب الرعاة، ألوذ به، هارباً من سطوة غيابكِ. فارّاً من تلك القضبان التي ما أنفكت تطاردني بجسارة)

* * *

انتشر الدفء في الملاذ الصخري، وجفت ملابسي من مطر العاصفة فرحت أخرج محتويات حقيبتي ففرشت بطانية ، وتركت أخرى مطوية على هيئة وسادة. دون أن أعي أنني سأمضي تلك الليلة الغرائبية كلها هناك. أتعبد في محراب حبّ لعج في عتمة روحي كبرق كوني.

تراجعت العاصفة إلى الوراء قليلاً مبقية على رذاذ خفيف كان يتساقط بايقاع يشبه سقوط سكّر ناعم على رأس اللسان، يرشّ اللوعة لي، أنا البدوي الذي يفرد لـ «نيبو» قلبه ككتاب يحفل بالكلام.

أكلت النار ما عثرت عليه من حطب في الملاذ فخرجت أجمع من بين شقوق الصخر ومن التواءاته، التي لم يطلها الماء، أعواداً وجذوعاً لأشجار جافة، وحشائش خلفها الصيف الفائت. الذي كان حارقاً تماماً مثل هذا الشتاء البارد. كان صيفاً حارقاً كحبك الذي وشم قلبي برموز لا أسعى إلى فك طلاسمها، بقدر ما أسعى إلى الحالة التي يصبح العالم في كفة ميزان، وأنت بالكفة الأخرى.

روائح الزعتر، والحندقوق، والجعدة، والشيح، انداحت في هواء الجبل، عندما ضمخها الماء بلثغته التي تتجدد مع كل هطل كأنها لثغة أولى. قبل أن أعبر إلى الملاذ الصخري، عبأتُ رئتيّ بسطوة ذلك العبق، وعدت لملاذي ثم رحت ألمّ شمل أعواد الحطب، فجعلت بعضها تتجاورا كما تتجاور أجساد عشاق، يطلُّ عليهم قمر خجول في سرير العشب، ونثرت فوقها أعواداً أخرى بشكل عشوائي، كأحاسيسي التي أفتش عن يدي لتلمها من جديد، ثم جعلت جذعاً ملتوياً ينبطح على تراصهم كفكرة كبيرة مختزلة.

ما إن زدت الحفرة، التي تبقى فيها شيئاً من الجمر حطباً واشتعلت به شهوة النار، حتى أطل عليّ وجهك ينهر الذكريات والحنين بعصا اللحظة. النار شيءٌ يحاور على مهل أشياء جوايّ ما خبت منذ نبضتي الأولى. فبدأ لسانها الأحمر يسري في جسد الحطب، وينهض من قامته مراراً وقد دّبت في المكان، الذي لطخه الليل بفُرشاته السوداء، شهقةُ الضوء، بينما جسد الحطب يمنح ذلك الصمت طقطقة توقظ في البال حمّى الحنين لحضنك الذي كان يعوزني في لحظة عطشى.

أغمضت عيني ورحت أردد مقاطع شعرية شيعتها لك عبر ليلٍ ضمخ الأشياء بلغته السّرية:

«تعالي نشلح عنّا غبارَ تعب
ارتدانا منذ عمر غارس بالأمنيات
فاستفاض بنا التراب يفتش عن غيمة حبلى بالمطر.
تعالي نتبادل قبلات خفيفة على جانب الدرب
ونشرب بعضَ الرضاب
لنرى ما لا يراه العابر في طريق مكتظة بالمارّة
تعالي نلم شتاتنا
أنت منكِ النهار
ومنيّ الليل
حتى نصير حياة تحتفي بتعاقب الضوء
ورعشة الابتكار.

❊ ❊ ❊

أدرت مفتاح المسجلة كمن يصوب مسدساً نحو شبح غامض، فراح صوت «أندريه بوتشيللي» يتقافز على ألسنة النار كمثل الهباب الذي بدا كروحٍ، وهو يتطاير من جسد الخشب صاعداً في فضاء الكهف. إنه صدى الأشجار التي أمضت عمراً في الاخضرار، ثم سكنت في مخدع اليباس. جهزت إبريق الشاي، وعلى ثلاث (هوادي) وضعته، فلفحته النار من الأسفل تستحثه على الغليان.

ذات مرة، قلت لكِ أن الحياة تقوم على ثلاث (هوادي) أي ثلاث أثافٍ. فضحكت كطفلة فاجأها طائر حطّ على كتفها، وأنت تقولين بدلالٍ مفرط:

- ما هي يا حبيبي؟

وقتها قلت لك وأنا أكابد سطوة أنوثتك الطافحة:

- إنها ثلاثة أشياء بلا تعريف يا سعاد ؛ الحب، والشعر، والروح. ليس من تعريف لأي منهن على الرغم من المحاولات النظرية الكثيرة.

هل تتذكرين عندما كتبت لك، قبل أن تعيدي نفس المقولة (إني أحبك؛ لأني أحبك)

هذا ما أستطيع قوله الآن. لأنك تتفشين بي إلى درجة الخضوع، وأعلن استسلام كل حواسي. أستسلم انصياعاً لحبك الذي مثلما يأخذني نحو كوّة لأمسك بنجمة العشق الطرية؛ يمكنني أيضاً أن أقبض على قمر الصقيع، الذي كورته تناقضاتك، وقد خلقت عندي أسئلة لا إجابات لها. تلك التناقضات التي جعلتني يوم كُشِفَ أمرها؛ اقف مشدوهاً إزاء مرارة ما حدث.

من شباك المسجلة، ظلّ صوت (بوتشيللي) كملاك طيب، يمسح المكان، مثلما تمسح العاصفة وجه الأرض، بعدوى الحنين، ويمسح قلبي بيدٍ تعرف جيّداً مكامن الجراح، والكدمات، والحروق. بوتشيللي ذلك الملاك الضرير، مَن رأى بقلبه ما لم تره العين. أحبُّ تلك المسحة الغمامية في صوته، الذي كلما سمعته، كأنني أسمعه

للمرة الأولى. ومع كل ارتشاف لتحليقاته تنبت ريشة في أجنحة خفية لي. بقي الظلام يهجم من كل حدب وصوب بلا تردد، إنها سلطة الأسْود التي تمارس راديكاليتها بامتياز في تلك الليلة، بحيث يصير هذا الكهف الصغير الذي أنزوي فيه، ندبة في وجه الليل، بينما النار تخفق كقلب مترع بالوجع. وإحساس جوّاي يستطيب الوحشة، ويستلذ بالعزلة. ثمة دموع بدأت تنهمر في الداخل بكل ملحها، تتغلغل في أغوار الجراح. إحساس غريب كان يروح لعالم المعتقل. كأنه اشتياق لذيذ سادي لظلمته. وصوت الدكتور ويلسون يصرخ بي متوسلاً وهو يثنيني عن هكذا إحساس، ويتوسل زمن المعتقل بأن لا ينمو من جديد. المعتقل الذي لم أكن أعي أنه مكان للمنبوذين الذين ما كان ذنبهم سوى أنهم انتصروا لأفكارهم. إنه فيروس يمكنه أن يتناسخ بكل نهم من ذاته، لنحظى بمعتقلات شتى، كل واحد أقسى من سابقه.

فالمعتقل الأقسى ليس ذلك المكان بجدرانه، وأسلاكه الشائكة، وحراسه، وقوانينه. بل إنه الحياة التي ما أن تترك وراءك سنين الاعتقال؛ حتى تكتشف أنها لم تنته كما زعم عقلك الذي بقي يحاول أن يتجاوز الجدران العالية. إذ تصبح الحياة محض سجن كبير. إلا من معجزة كالتي يخلقها حب، إما أن يسندكَ وهو ينتزع من صدرك شوك المعتقل؛ فتدب في أوصالك الحياة. وإما أن تمنح ذلك الشوك صفة الخلود. فتصبح مجرد كائن يكابد سجنه الأزلي.

* * *

كانت العاصفة خارج الملاذ تهدأ مرة، وتجن مرات، بينما الجبل مستسلما لتلك الحمى التي تجيء بفعل لحظات استثنائية مثل تلك. تهالكت على نفسي أحدثك في غيابك:

إذن ها أنت تغيبين، فتأتي الذكريات مرة واحدة، كنحل يهجم على وردة غزيرة الرحيق. أفتح الصفحة الأولى من كتاب التذكر، صفحة بيضاء تتوهج في صدرها عبارة تقول:

«الموت وحده يا حبيبي هو الحالة القادرة على صنع مشهد الغياب بيننا، لأنني معك أصلحت من هيبة خطوات القلب التي كانت عرجاء»

أطلّ عبر بوابة الملاذ الصخري، حيث تمشط الريح في ليل كليل نيبو، جدائل المطر، أنفث دخان سيجارتي وأفتح الصفحة الثانية. ثمة فقرة طويلة أتت كلماتها منثورة كما لو أنها قصيدة في عز طزاجتها:

«ليس للنهار شكل دون صوتك الذي يعمّد صحو الصباح بتلك الذبذبات التي تزرع بي شجراً، يعقد صداقة مع الشموس والظلال، فأصير رَبّة، وأنا أتسلى بالخطوات في شارع الوقت في بلاد عليها أن ترضع الحب مع حليب الطفولة كي تنجز شكلاً فريداً للحياة»

أمد يدي للمسجلة التي تتكىء إلى جدار الملاذ، فيهطل صوت (أندريه بوتشيللي) مصاحباً هطل المطر. فأفتح الصفحة الثالثة:

«حبيبي الحب هو أن نكون معاً، حتى ونحن نكافح خطوات الموت، وهي تدرج على ظاهر كف أيدينا التي لا تتوقف عن التلويح لشموس في سماء البهجة»

ها أنت تغيبين إذن يا حبيبتي، وتنكثين كل وعودك. ها أنت تغيبين، وتتركينني أتورط بذلك الإحساس البوليسي، فأتخيلك تضعين يدك بيد رجل جديد تمشيان في شوارع ستوكهولم، التي كثرت زياراتك المفاجئة إليها مؤخراً. فأغمض عينيّ طارداً ذلك المشهد الذي يمكنه أن يصيب شرقياً مثلي، دافع عن حبه لك بكل ذخائره، فيغيب المشهد، ليحل مكانه مشهد يشي بك مريضة على سرير الشفاء في مستشفى لا يزورك فيه أحد. فأنهض من مكاني وأمشي عدة خطوات نحو باب الملاذ الذي اقتادني نحو هطل المطر وهو يهيل قدام البروق حباته على جسد التراب. فيشج رأسي مشهد آخر كنتِ فيه قد أقفلت باب قلبك، تمضين جل النهار قبالة نافذة تطل على شارع خلا من المارة. فأرفع رأسي وقد انضم الرعد لسفراء الشتاء وأصرخ مشيعاً صوتي عبر الهواء مشبعاً بالخيبة:

«ليس عدلاً يا حواء كل هذه القسوة»

* * *

من حقيبتي أخرجت حاسوبي النقال، وضغطت على مفتاح التشغيل وأنا أضعه على رجليّ اللتين كانتا تقتربان من حفرة النار طلباً للدفء. كانت إشارة الإنترنت قوية بحيث يمكنني أن أتصفح ما أريد في واقع افتراضي كان له ميزة مختلفة بين يدي رجل يمضي

ليلة في كهف شيدته الطبيعة في ذلك الجبل. لكنني كنت كالتائه أفتش عن سعاد. فتشت خانة الرسائل في كل الصفحات الإلكترونية التي كانت تربطني بها. لكنها لم تجب على رسائلي المتكررة منذ غادرت عمان. فأغلقت الحاسوب واستلقيت قرب النار وقد غرقت في الذاكرة التي أطلت منها تفاصيل صباح ليلة أخرى من تلك الليالي التي أمضيتها معها في عمان، كأنني طفل يحتفي بفردوسه الأول. قالت لي وصوتها يأتي خاثراً متقطعاً، وهي تطل علي بنصف عين بعد نومة لذيذة، أعقبت ليلةً كلما رحت خلالها لأرتوي منها؛ رأيتُ العطش يدبّ بي كأنني هشمتُ قضبان المعتقل، وهمت في الصحراء، دون ماء يطرد ذلك الجفاف الذي يرفع راية الموت وينكس راية الحياة :

– صباح الخير حبيبي. أريدك أن تأخذني إلى «نيبو» أريد أن أراه مرة ثانية.

انقشعت الغيوم ذلك الصباح الذي تركنا فيه عمان متجهين للجبل، فبدا المدى صافياً، إلا من بضعة طيور ترخي أبدانها في الهواء الطري آنذاك. صعدت السيارة الطريق اللولبية التي تركض نحو الجبل، فهبت نسمة هواء راحت تعبث بشعرها الطويل، فتناثرت خصلات منه على وجهي، وهو مضمخ بعطرها، الذي يجعلني أحس بوجودها وسط ملايين من البشر. لحظتها شهقتُ بعمق كما لو أننا نلتقي للحظة الأولى. كان الجبل في ذلك الصباح يخلو من زائريه ورواده، فتلاشت الأصوات إلا أصوات عصافير الدوري، التي أتت زقزقاتها من بين أشجار السرو متقاطعة مع نقرات حذائها، في إيقاع لحظة لا يمكن أن تتكرر مرتين.

ونحن نمشي عبر الممر المحاط بأشجار السرو نحو الكنيسة، ولدت حبات عرق خفيفة، لاحتكاك باطن كف يدي بكف يدها، وثمة اشتهاء صارخ تفجر جواي، وكأنني لم أمض ليلة البارحة في بحر جسدها، فقد مضت الليلة، ولم أرتو منه، كما يمكن لماء أن يبدد قامة العطش. قرب السلسلة الحجرية التي انتصبت أمام بوابة الكنيسة وأمام الصليب المعدني الضخم، وقفنا نستقبل الهواء الذي يجيء من فلسطين، مارّاً بالبحر الميت، الذي بدا والنهر يركض نحوه كجرح في صدر التراب.

ثمة موسيقى كنت أحسها تأتي من جسد المدى، تمنح اللحظة مزاجا أثيرياً وتعترف بها. من وراء الجبال، أطلت ملامح فلسطين طرية كأنها أجساد أطفال يلعبون مع الصباح، ويدحرجون الشمس في الوادي. أشعلتُ سيجارتين، ناولتها واحدة فسحبت نفساً عميقاً ثم راحت بصوت منخفض تغني:

(يومه مويلي الهوا يما مويليه)

بقيت تردد هذا المقطع، فرددته معها، بنفس وتيرة الصوت، بينما دمعات تتدحرج على خديها اللذين لاحا لي أكثر حمرة مما عهدتهما. قالت وأنا أجفف تلك الدمعات برؤوس أناملي:

- قاس هو الإحساس الذي يذكرك دوماً مهما امتلكت من هبات هذه الحياة بأنك مجرد كائن مصاب بالخيبة، احساسك بأنك بعيد عن بلاد هي لك لكنك ممنوع من أن تلامس حتى حجارتها.

كانت في تلك اللحظة، تعيد غناء ذلك المقطع، وتنفث دخان السيجارة في الهواء، ونحن نعبر الممر الذي يأخذنا خارج الكنيسة

التي استدار حولها جدار من حجارة المكان ذاته. وقفت قرب شجرة زيتون حفلت بنقوش لأسماء عشاق زاروا المكان، وأخرجت قلماً من حقيبتها ونقشت أول حرف من اسمي متقاطعاً مع أول حرف من اسمها. عندما تمازج الحرفان شعرت بأن قدراً واضحاً وضعنا في طريق لن تكون سهلة، على الرغم من شموس البهجة التي تسطع في سماء قلبينا. قلت وهي تراقب طائراً صعد من الوادي السحيق، واعتلى جبين الهواء:

- الشجر يمكنه أن يحتفظ بالذكريات حتى وإن استأصلوه، وصّيروه مقعداً، أو طاولة، أو خزانة. الشّجر وفيّ للذاكرة يا خالد.

كانت تغني بفرح، والعربة تهبط الطريق إلى الطرف الآخر من الجبل، حيث اعتدت أن أمضي ساعات هناك، أقشر برتقال الوقت في شرفة السّهو. ركنتُ السيارة، وكان الجبل في ذلك الصباح قد لبس شال الاخضرار، فافترشنا عشباً فاح عبقه في الهواء الطري، الذي تحالف مع رغبتي بالاحتفاء بها، كما يمكن لرجل يود أن يبني حياة جديدة، تدهن سواد سنين قاسية ببياض أزلي. جمعت بضعة أعواد من الحطب، وحشرتها بين ثلاثة حجارة، ارتكز عليها إبريق الشاي، الذي ما إن وصل ماؤه إلى درجة الغليان، حتى فاحت رائحة الزعتر البري.

أخذت تحوم حول النار كفراشة تدور حول الضوء، ثم تفرد ذراعيها للريح، كطائر يتأهب للطيران للمرة الأولى، والريح تطاير خصلات شعرها، التي تناثرت كسنابل قمح في هواء البيدر، ثم ارتمت على صدري، وهي تردد وأنفاسها تعلو وتهبط:

- كم أنا سعيدة.

راحت تشرب الشاي كأنه نبيذ معتق، يُحدث لها دوخاناً لذيذاً، وفي حديثها تختزل من تكوينها آثار المدن البعيدة، التي نهشت روحها، وهي تعاملها كآلة، عليها أن تعمل ليل نهار، لتكون الحسبة في آخر اليوم كم دولاراً جنت، وكم صفقة تجارية عقدت. كنتُ في تلك اللحظة مستمعاً جيداً، لأنني أدركت حاجتها الملحة لاستعادة ذاتها، التي سُرقت على مرأى منها، وهي تقول:

(حينما تركت عمان، كنت في ذلك الوقت أداوي الجرح بالملح. فقد خرجت من قصة حب فاشلة، وذهبت نحو زواج تقليدي، وصفقة مربحة، اخترتها بنفسي. لقد اخترت سجني بنفسي يا خالد. كنت أعاقبني على خطيئة تقتلني من الداخل. قرعت والدته الباب، وتحدثت لساعات مع والدتي، ثم غادرت، لتضعني والدتي أمام تفاصيل ذلك الرجل، التي لا تتعدى حدود هالته أكثر من كونه رجل أعمال، تحسب زيادة ثروته بالدقيقة. لم أره في البدء. إذ بقيت أمه تكرر الزيارات لبيتنا، وهي تمهد الطريق أمام ولدها الذي سمع عني من بنات الجيران. في أول الأمر رفضت توسلات أمي التي كانت ترى أن ذلك الرجل يمتلك مفاتيح السعادة لأي امرأة ترغب بالزواج. فقد ولد في حينا وغادره مع عائلته قبل أن يعي الأشياء من حوله. هناك صنعت عائلته ثروة كبيرة، وأصبح من ذلك النوع من رجال الأعمال الذين لا يتوقف الطموح لديهم بنمو ثروتهم. في تلك الأيام لم أكن أرغب بأي شكل من أشكال الارتباط. في البدء رفضت لكنني فيما بعد رحت أنحني عند رأس

والدتي، وهي منهمكة في حياكة ثوب يهمها أن تقتل الوقت عبره أكثر مما يهمها الثوب ذاته:

- أنا موافقة يَمَه.

فهرعت للهاتف، تتحدث لوالدة رجل لا أعرفه حتى هذه اللحظة، وهو يتنقل بين أحضان عشيقاته، واحدة تلو أخرى، ولا يتوانى عن كيل الجراح لي، مرة تلو أخرى. تماماً كأنه اشترى ذلك الكيس المحشو بالقطن، يتدرب على لكمه كل يوم ليشتد ساعده. فتكمن في تصرفاته تلك أغرب تناقضاته التي أهلكتني حد الموت. في زياراتنا العائلية يبدو رجلاً رقيقاً في غاية اللطف مع النساء اللائي يحسدنني عليه. وأنا أخفي وراء جدار كرامتي صورة بشعة لرجل لا تربطني به سوى حاجة أولادي لأب يبقى قريباً منهم. لكنني كنت أعي أن قرار زواجي به ومغادرة عمان بمثابة سجن اخترته بنفسي. كنت أعاقبني على خطيئة، باسم الحب ارتكبتها دون وعي)

توقفت عن حديثها فجأة وراحت ترتجف، وقد تلبستها ملامح الارتباك، وندم خفي أثار شكوكي وتساؤلاتي. وكأنها كانت تود الاعتراف بشيء لكنها تراجعت. ثم عاودت الحديث وهي تدخن بنهم:

(الشيء الوحيد الذي راح يلح علي هي الرغبة في مغادرة البلاد. كنت أريد أن أتخلص من كل شيء، الذكريات، الروائح، الأصوات، الشوارع، الطرقات، الليالي، الأمسيات. حتى أحلامي وأمنياتي كنت أرغب بأن أستل مسدساً ما وأقتلها دون رحمة وأختار سجني بيدي.

عندما وافقت على الزواج به، وكنت قد اتقنت ذلك الدور أمام عائلتي بأنني سعيدة بما يحدث. رأيته في البدء ذلك الرجل الذي يتعلق بي بصورة غريبة كأنه يعرفني منذ أمد بعيد. كان يعاملني كما يعامل أمير أميرة. في فترة الخطوبة القصيرة قبل الزواج. يصطبحني كل ليلة إلى أماكن لم أعهدها من قبل، ويقدمني إلى أصدقائه، وصديقاته في مجتمع لم أكن معتادة عليه. وأنا أطل من نافذة الطائرة التي أقلتني من عمان كطفلة تُسحب من حضن أمها، بدت لي الذكريات كغيوم ترافق الطائرة. حلمي بحزب يحقق لي صوتاً عالياً يمكنه أن يجابه الخراب، اللحظات التي أمضيتها مع أصدقاء الحلم، عملي في الصحيفة، حيث ألوذ بالكلمات لأعبر عن ذاتي المشروخة منذ أمد بعيد، ولأرسم لها عالماً مهما كان خيالياً يُمكِّنني أن أعيش حتى ولو بابتسامة مزورة. أمي التي كنت أحس بأنني أراها للمرة الأخيرة، ولن أعود إلا لأتقبل العزاء بموتها. لذلك كنت أدرك عبر سنين الغربة، أن امرأة مثلي اقتلعت كنبتة من تربة بلادها. ستغدو مجرد فكرة في الهواء دون رجل يصير لها وطناً، يعوضها عن وطنها، الذي سرق على مرأى من عالم لا يحتفي إلا بلغة المال فقط.

عبر تلك السنين الموجعة مع ذلك الرجل، أدركت أن حياتي صارت رهناً لأطفال علي أن أعمل ليل نهار لأكون وطناً لهم. ورهناً لمؤسسة الزواج التي لم تمنحني سوى قوانين غير نافذة إلا علي كامرأة مستنزفة باسم الواجب والمسؤولية فأحظى بالقيد. إنها قيود كلما كبرنا، اكتشفنا زيفها. واكتشفنا كم خسرنا أمام حياة كان علينا أن نعيشها كما ينبغي لرحالة ما إن تطأ قدمه بلاداً حتى يحن إلى بلاد

أخرى. إنها تلك الحالة التي نحس حيالها بالحرية وعدم الالتزام لأي شيء مثلما يصيبك بالفرح، يصيبك أيضاً بالكدر.

في الليلة الأولى، وفي السرير معه لم يكن بمقدوري أن أكون تلك المرأة التي تحتفي بليلة تحلم بها أي فتاة، وتبدي مزيداً من الحب والشهوة. كنت باردة جداً إلى درجة كنت فيها مجرد جسد يرتمي فوقه رجل ظل يأكل منه حتى شبع. عندما عبر بوابة الحمام، وراح يرشق جسده بزخات الماء الساخن، ويردد أغنية بانتشاء المنتصر، بقيت أراقب الدم الذي كان يسيل من بين فخذي دون أي إحساس لعروس تحتفي بليلتها الأولى، والمشاهد في مخيلتي تختلط ببعضها البعض، رجل ذلك الصباح الماطر الذي كنت اعتقدت وأنا أحتمي به من المطر أنني عثرت على فردوسي . مشهد لجاريّ السعيدين وهما يتضاجعان. مشهد للحي وهو يزخر بالضجيج. نمت في تلك الليلة وأنا أعي أنه علي أن أتقن تمثيل دور المرأة السعيدة مع زوجها لسنين طويلة حتى تستمر الحياة، لأن الذي يوجعنا من الداخل يبقى عصياً على أن يحس به أحد ينظر إلينا فحسب دون أن يتساءل ما الذي يحدث لنا بالضبط.

مع مرور الأيام التي كنت أبتكر فيها لحظات تجعله سعيداً، بدأت أستشعر كم أنا خاسرة. فمن السهل أن نداري الحقيقة عن الناس، لكن من الصعب مداراتها عن أنفسنا، خصوصاً في تلك الأوقات التي نضع فيها رؤوسنا على الوسادة، ونصبح فيها قادرين على التفكير وتأمل كل شيء. أصبحت مجرد شيء يقتنيه، شيء يعرضه أمام أصدقائه. لم يعد يبالي بكينونتي كأنثى أقسمت أن

تخلص له طوال الوقت. نساء كثيرات في حياته، إهانات كثيرة في حياتي. لقد تجلت شخصيته المتسلطة في أبشع صورها، حيث وصلت إلى ذلك النوع من الضرب الذي يترك جراحاً غائرة في الروح أكثر مما يتركه في الجسد.

عشرون عاماً مضت أنجبت عبرها أولاداً، وبناتاً بت بعدها غير متأكدة من أنني أرغب في ممارسة الجنس. إذ لم يعد لتلك العلاقات التي يمكنها أن تأخذ الروح فينا إلى مدارات للتحليق، ذلك القدر الكبير من الأهمية بالنسبة لي، حيث أنني أصبحت أشبع شهوتي بمفردي أكثر مما أشبعها هو كزوج لي في زمن سابق. نحن نعيش في بيت واحد ولا نعيش في ذلك البيت الذي لا يمكن أن يشيده إلا زوجان سعيدان. كنت عندما أغمض عينيّ يمكنني أن أبتكر أيّ رجل أريده، إنها تلك المساحة الوحيدة بلا رقابة. المساحة الوحيدة التي يمكنني عبرها أن أفعل ما أريد. قليلاً من سمرة البشرة التي من شأنها أن تنهر تلك الخلايا المعنية بالشبق. شعر أسود، وثقيل يتماوج قرب أذنيه. شارب حليق أعلى شفتين شهيتين لقبلة. عينان تشبهان رصيفاً ليس فيه سوى أشجار هادئة، وموسيقى بيانو خفيفة تجيء من مكان خفي. قامة متوسطة، بكتفين معتدلين، بلا كرش متهدل. يدان دافئتان. كثير من الجنون في صوته حينما يتحدث بلهفة، جنون في مشيته، في رغبته العارمة باحتضاني، في بريق عينيه وهو يدنو مني خالعاً ملابسه قطعة، تلو الأخرى. زخة عطر رجولي حارق يبتكر اللهفة. لهاث. تمارين في الغواية. اقتراب تدريجي. عناق طويل. جرأة في طلب اللذة. شهيق. شهيق.

شهيق. حينها أصرخ باللذة. ثم أشهق بدمعة مالحة، وأنام وقد رتبتُ ملابس القهر قرب وسادتي.

أمضيت بسبب نظرته الغريبة والعجيبة لي أوقاتاً طويلة وحيدة، وقاسية ،عبرها كنت أتألم وأكابد حلمي بالحياة. كنت من وقت لآخر لا أشعر أنني امرأة متزوجة. فقد أصبحت بعد خمس عشرة سنة مضت بقسوة، مشمئزة منه لأقصى حد يمكن أن تذهب إليه امرأة، عرفت منذ ليلتها الأولى أنها مجرد عقار يمتلكه تاجر . إذ لا أجد حرجاً في القول أنني خلال الفترة الماضية لم يرتعش جسدي في حضن زوجي، لهذا اخترت أن أكون عازبة. الأمر الذي أتاح لي قضاء أجمل فترة من حياتي، التي رغم وحدتي فيها كنت منكبّة على القراءة، وعلى عمل كان يأتي على أوقاتي كلها. حيث ساعدتني تلك الطريقة في الحياة على حصد مزيد من استقلاليتي ومواهبي بحيث بت لا أعتبر تلك الفترة كفاصل زمني، بل هذا ما كنت بحاجة إليه في الماضي. كان صعباً للغاية العثور على أحد يعجبني، ويجذبني، ويحترمني في الوقت الذي لا يمارس ضغطاً علي. عندما عرفتك، أدركت أن ثمة متسع لوطن يمكنه أن يستوعبني بكل شروخي وتناقضاتي. أشعر بأنني كاملة وسعيدة وحرة في كل ما أحس أو أفكر به، الغضب، الحماقات، القلق، الأفكار العامة، اللذة، ردود الفعل على مواقف مسلم بها. نحن شيء واحد يا خالد. وما حدث لنا هو ذات المصير. أنت رحلت إلى معتقلك، وأنا رحلت إلى بلاد لا تفهم سوى لغة المال، وها نحن نعاني زمن المعتقل الإضافي. كل منا كان معتقلاً. أنت أمضيت عشرين عاماً في معتقل في أقاصي

الصحراء، وأنا أمضيت عشرين عاماً في بلاد كسجن كبير لا تحتفي بإنسانيتي)

بعد أن انتهت من حديثها هوت في حضني كما يهوي نجم في سماء ليلة صيفية، وكان الجبل أخضرَ كقلبها الذي منحني لهجته، فصار فراشنا على مرأى من البحر ومن فلسطين. أنفاسها تلفح وجهي، ولشفتيها طعم العشب الطري في لحظة صار فيها فمي كوناً مصاباً بالعطش، وصارت القبلة لحظة مسكونة بدهشة ذلك العالم الذي يبدأ بالتجوال في الدم، مغمضي العينين.

بدا جسدها وهو عارٍ كلوحة خلفيتها الإخضرار.

كانت تهذي ونحن نتعارك في سرير العشب، بكلمات أقل ما يمكنني أن أصفها بأنها شِعر صاف. كأنها في تلك اللحظة تعادل بين البلاد التي ذهبت سُدى، وبين حضني، الذي كان يلوذ بها أكثر مما تلوذ به. فأخذت أتكور في حضنها، وألتقم نهدها، كما لو أنني طفل يرتد إلى عوالم طفولة ذهبت في طريقها نحو الريح، وهي تمسد شَّعري الذي دب البياض به على غير موعده بيد، تمنحني نهدها بيد أخرى.

في المدى ثمة عصافير كانت تؤدي مشهداً بصرياً يحتفي باتساع الأزرق السماوي اللانهائي. وكنا كغصني شجرة يحتكان ببعضهما، تفسح السماء بدنها لشهيقنا، الذي حينما حلّق في الهواء، استحال إلى نجمة ستبقى تلعج حتى في النهارات.

* * *

وفي ملاذي البارد الغائر في جسد «نيبو» أسندت جسدي على الجدار أكثر، فأكثر، بينما أشباح الوحشة تتسلق الجبل، صاعدة من الوادي حيث بدأ السيل يقهقه جارفاً معه كل ما علق بوجه التراب. فكنتِ من عمق العتمة تطلين عليّ يا سعاد ، وتمنحينني ابتسامتك التي تعنون صمتك القاتل. وأنت تعلمين أنني أحتاج ليدك تربت على كتفي، لأستعيد أجنحتي، التي لا تعود إلا بمهارة حبك في ترتيبي، فتصيرين لي وطناً، يحميني من سقوط مدوٍ يحيلني إلى أبشع خسارات لا تتراجع إلا في مواجهة حب جارف كان عليه أن يكتمل لنا. فيغدو الحب وطناً آخر، لا بديل عنه. وطناً يجعلك تتعايش مع أي خسارة تمنى بها، تماماً مثل مريض ليس لدائه دواء. لكن ماذا لو داهم زلزال هذا الحب ودمّره، فتحول إلى ركام في مشهد عبثي لا يمكن لمخيلة أن تحتمل وجوده في ملفاتها؟ حينها ستحل الكارثة، إنها ليست كارثة تلاشي حب عوّلنا عليه فقط؛ إنما كوارث الخسارات أيضاً، والتي ستستحضر نفسها كما لو أنها كانت نائمة وشيء ما أيقظها.

خفتت أضواء الكنيسة، التي كانت تؤنس وحدتي، لحلول الضباب في الجبل ، فبدت ناعسة. ازداد هطل المطر على الجبل متفهماً عطش الكائنات للماء. طيف ضئيل لتلك الفتاة التي كانت تضع رسائلها قرب بوابة البيت في عمان يوم كنت طالباً هناك، لامس زجاج القلب فأجفل سهوي. رسائل محمّلة بحب جارف من امرأةٍ لا أعرفها. طيف على الرغم من سطوته إلا أنه كان يهرب بسرعة مخلفاً وراءه سؤالاً يقع في دائرة المصائر التي يمكن أن تحدث عبر

امرأةٍ واحدةٍ ممتدة، مرّت كطيفٍ منتقمٍ في زمنٍ أولّ وطيفٍ يطلب المغفرة في زمنٍ آخر، كيف لي أن أغفلَ عن أمرٍ واضحٍ كهذا. المرأةُ لا تطلب المغفرة إلا وقد اقترفت ذنباً لا يُغتفر. والذنب كان عشرين عاما اقتطعتِها من عمري يا سعاد! كم احترفت أنت التلفيق وكم احترفتُ أنا التصديق!

كانت حاجتي الملحة لحضور أنثوي في المعتقل يجعل فكرة الاعتقال أكثر قبولاً. ثمة صوت خفي ما انفك يردد لي:

«وأنت تحلم ببلادٍ بيضاء تفضح سواد الخونة، لا تنس أن حلمكَ هذا بحاجة لامرأة تسنده، تماماً مثلما تسند الطيور وجه السماء الذي ارتخى لفرط الدماء وهي تسيل من جبين الإنسان. لحظات يحتاجها السجين، وهو يرى زمن المعتقل يتناقص ككيس بثقب صغير ينز منه الرمل بكل كسل»

أشعلت سيجارة ورحت أفتش الحاسوب النقال عن رسالة تأتيني منكِ. ولم أجد إلا رسائلي التي لم يتبعها أي إجابة تُدْلي عليك. رميت بضع أغصان ناشفة في حفرة النار، التي صعدت في فضاء المكان تطارد العتمة، والوحشة. اسندت بدني على كوع يدي اليمنى مستسلماً لتفاصيل صباح، كان النزلاء فيه ما يزالون يغطون في نوم عميق في العنبر، بعد ليلة أمضوها في نقاشات حول الرؤى المختلفة لتوجهاتهم السياسية، انتهت بعدم الاتفاق على وجهة نظر معينة. إحساس بالفقد كان يتعربش روحي العالقة كورقة بحقل شوكٍ في يوم عاصف. شعور غريزي في تلك اللحظة، جعلني أفكر بحاجتي لامرأة. أي امرأة، تقتادني من يدي إلى سريرها، وتحضنني، فيغور

رأسي في صدرها. حينها سأتنهد بعمق، كدلالةٍ على خطوةٍ أولى تفضي إلى إغفاءة بلا قلق.

«إن كان البنسلين مضاداً لفيروسات الجسد، فحضن امرأةٍ تغدق عليك حبها مضاد للحزن والقلق»

على الجدار، كانت صورة (سماح)، التي رسمها عبدالغفار على مهل، وفي كل يوم يصحو فيه يأوي إليها ثم يعود لعالم المعتقل اليومي. اقتربت من الصورة، وسحبت الكرسي الذي اعتاد عبدالغفار الجلوس عليه أمام الصورة، وناديت:

- سماح.

كنت أحاول أن أقلد عبدالغفار، على الرغم من أنني كنت في تلك اللحظة أرتكب فعلاً لم يجرؤ أحد من النزلاء على فعله.

- ليس هناك امرأة أحملها في داخلي، أجلس قبالتها، أتحدث كما يتحدث إليكِ عبدالغفار. كلنا نحسده عندما نراه يُكَلّمّك مرة بحزن، ومرة بفرح. أحتاج لامرأة تكون لي الصديقة والحبيبة والوطن. المرأة المستحيلة التي يحلم الرجال بامرأة مثلها، ولا يجدونها.

جعلني صوت عبدالغفار وهو يسعل في سريره، أنهض مرة واحدة، وأفر سريعاً. كأنني كنت أحدث زوجته النائمة في سريرها.

وحين اجتمعنا لتناول طعام الغداء كالعادة اقترب مني عبد الغفار قليلاً، وهو يمضغ قطعة من الخبز، وقال :

- سماح لا تتحدث إلا إليّ.

صمت قليلاً، ثم أضاف:

– لدي أصباغ وأقلام وألواح من الطبشور. يمكنك استخدامها لرسم من تحب.

لم أخبره في تلك اللحظة أنه ما من امرأة تعيش جواي يمكنني رسمها، لألوذ بها متى شئت. مع علمي أن ما من شيء في السجن يمكنه أن يجعلك متصلاً بما وراء الجدران، والأسلاك الشائكة، مثل ذكرى امرأة بينك وبينها ذاكرة بحجم الحب، جبهتنا الأخيرة العصية على السقوط.

❋ ❋ ❋

بقي المطر خارج الملاذ يهندس وجه الجبل من جديد. بينما الليل يتمادى في لغته السوداء محتجزاً كل شيء لصالحه. زدت حفرة النار حطباً وصوت «بوتشيللي» يئن في المكان بأغنياته التي لها أن تهدهد قلباً متعباً مثل قلبي، لم يُقدّ من دبر فقط، إنما قُدّ من جبينه الذي بات عرضة لأي تقرح يمنح الوجع. على لسان النار وضعت إبريق الشاي الذي منحني صوت طقطقته، ورائحته التي فاحت منه وهو يغور بحضن الجمر المتقد، شيئاً من ألفة تعوزني، حيث أعطت الطبيعة ما عندها من وحشة أجهشت مقلة القلب في ليلة جئت فيها إلى ذلك الجبل طريداً لصدى الخسارة بعينها عندما تكون الأحلام معوْلاً يقصم ظهر قلب، طريد سجن بحجم حلم بالحياة، مدفوعاً بالأمل. وطريد الذكريات التي عادة ما تبدو في لحظات الغياب كأنها جمر يحرق بطن الذاكرة. حينها يتداعى كامل التكوين بالوجع

والقلق، وتبدو الحياة ضرباً من الوهم. حيث تولد الأسئلة وحيدة دون اجابات، وحيث تصير الروح كجسد مصاب بالأيدز، عرضة لأي طارىء يرهقها ويسبب لها الألم. إنه الحب ذلك المقاتل الذي ما انفك يذود عن جهاز الروح المناعي. الحب وحده هو المضاد لانهيار الروح قبالة فيروسات العتمة وميكروب الخذلان. وأنا أسكب كأساً من الشاي، بدا العواء الجنائزي لذئب كان يرش المدى باللوعة، أخف وطأة على صدر روحي التي كانت تهيم في فضاء الجبل بكل عواصفه وجنونه. أشعلت سيجارة وشهقت بها، وبالحنين الذي ما توقف يقتحمني. حيث نداءات عشق ولدت في لحظة طازجة كأنها لم تكن من قبل. نداءات، كانت تتقافز كظبية تحدها الجدران، فتصير لي معتقلاً ثالثاً. هوت رشفة ساخنة من الشاي في جوفي البارد، فتملكني حزنٌ يتساءل: هل كنتُ أستحقُ منكِ ما منحتِني عبرَ هذا العُمُرِ من شيبٍ في الشعر وملامحَ للأسى ؟

رحت أحدثك كأنك تسمعينني عبر زعيق الرياح التي كانت تكاد تقتلع الجبل من مكانه:

(قاس زمن المعتقل يا حبيبتي، والأكثر قسوة أن يصحو الواحد منا في مكان لا يعنيه أبداً، ولا يخص إحساسه بالزمن، هذا يعني أن الحياة تمارس عليك شكلاً من أشكال الاعتقال. بعد تلك الأحاديث الطويلة التي كانت تحدث بيني وبينكِ، كما يحدث نقاش بين الماء والتراب فيولد العشب ؛ أدركت بفطنة العاشق أنك تعانين ما أعاني، كأنك كنت تودين القول بأن المعتقل ليس ما عشته بتهمة فقط، ولموقف سياسي ملفّق، سرق من حياتك عشرين عاماً، بل إن

هناك أشكالاً أخرى للاعتقال أكثر قسوة مما نعهده في اللحظة الواقعية للأشياء، كالبلاد التي لا يعنيك شيءٌ بها سوى أنها تنتهك من حياتك سنين لكي تبني بيتاً، أو تشتري سيارة، أو تعلم أولادك، أو تدخر مالاً يعينك على ما تبقى لك من العمر. كأن تكون امرأة في سرير مع رجل وهي تعلم جيداً أنها لا تكرهه لكنها لا تحبه أيضاً، حالة لا يمكن أن تحدث فيها تلك اللحظات الصادمة المليئة بالدهشة، تماماً كتلك الدهشة التي تولد في داخلك نتيجة قراءتك لمقطع شعري صادم.

كنت أدرك أننا نعاني شكلين من أشكال الاعتقال، ربما هذا ما خلق بيننا حكاية حب بقيت تمر منذ بدايتها بتوترات صاعدة وهابطة، تماماً كالرسم البياني، دون أن ندرك أننا نلهث وراء حقنا في الحياة، في زمن أصبحنا نرى فيه جيداً مشاهدَ سابقة من حياتنا، كم ضحيّنا لأجلها، وكم صار لزاماً علينا الآن أن نكون ما نريد. نعم يا حبيبتي نحن نعاني زمنين مختلفين، ومتقاربين في اللحظة نفسها من أزمنة الاعتقال)

* * *

اضطجعتُ فبانت السماء عبر بوابة الملاذ، كأنها ملاءة امرأة أسرفت بالحداد، إذ هبطت حينها من سقف السواد، ذكريات الجدران الخانقة، والقضبان، والأسوار العالية التي كانت تطوق المعتقل. فرأيت في صفحة التذكر خيطاً من الضوء يسقط في بؤبؤ عيني، عبر النافذة الضيقة. ما أن فركت عيني بيدي ثم مسحت العنبر الذي

ضم أسرة عديدة يغفو بها النزلاء؛ حتى أدركت أنني لست في غرفتي في القرية أو في المدينة التي كنت أدرس بها. للحظات لم تكن قصيرة، شعرت أن لا قدرة على الحركة تكمن في جسدي، إحساس بالشلل يسري في بدني ويجعلني كتلة هامدة. لحظات وبدأ النزلاء بالنهوض تباعاً، فدبَّ شيء من الضجيج في المكان، سعلات متكررة سببها التدخين المستمر، وهجمات العواصف الرملية التي ما أن تهجم، حتى تحيل الأشياء كلها إلى لون صحراوي مغبر، تحيات الصباح تأتي على شكل همهمات مخنوقة، سباب يجيء بفعل عدم نظافة الحمامات التي تمنح مرتاديها شعوراً بالقرف. صوت الراديوهات التي تبث أغاني فيروز، ونشرات الأخبار التي تحمل معها أخباراً لم يتغير مستوى ما تمنحه من إحباط منذ سنين. كان سليم ما يزال مندساً في فراشه، عندما مررت قربه متجهاً إلى الحمام. ألقيت عليه تحية الصباح، فردها ببطء وعلى وجهه ابتسامة مختلطة بشيء من الحزن فردّ التحية متثاقلاً وهو يتأمل العنبر:

- لا أستطيع النهوض في هذه اللحظة، تتلبسني حالة من الاشتهاء.

جلست قربه بطرف السرير، والتقطت سيجارة من علبة سجائره، وأشعلتها، فأشعل سيجارة مثلي، فقلت متحسساً حجم وجع سرى في روحه:

- بحق هذه مشكلة.

وضع الوسادة تحت رقبته، واستند قليلاً، ثم راح ينفث دخان سيجارته، وقال:

– أن تعتقل لسنين، في مكان مرهون للون ومزاج واحد؛ هذا يعني أنك تبدأ بالموت البطيء. لست حيواناً لأبقى آكل، وأشرب، وأنام، وأستخدم المرحاض، ثم إنني أكره الموت، أكرهه. يجب أن تسير حياتي وفق ما أريد. لكن كيف يحدث هذا في معتقل ينهش روحي على مهل قاسٍ؟

* * *

بينما كنت أوغل في عزلتي الجبلية، راح المطر يغسل وجه المدى، الذي أعلن عن حلكة تمنح السماءُ انفجاراتها، والبرق تنين أسطوري يسرد سيرة غضب عتيق. شرعت الرياح تركض في الجبل، وتؤدي زعيقاً موحشاً، كأنها طائرات تعلو إلى رأس السماء، ثم تهبط مرخية أبدانها وهي تقذف نكايات البارود المولع بالخراب. اقتربت من حفرة النار، وأهديتها بضعة أعواد من الحطب، فدبت في المكان ألفة جديدة. كان «بوتشيللي» قد استراح قليلاً، وهو يطيّر عصافير صوته عبر فم المسجلة المتّكئة إلى نتوء في الجدار. فأخذت نفساً عميقاً من سيجارتي، أغالب دمعة كادت تهبط على خدي، الذي لم يأبه ببردٍ يتبختر في الجبل، كما يأبه بالبرد الذي يتسلل من واد سحيق في دواخلي. سكبت كأساً جديدة من الشاي الدافىء، فمنح الجوف دفئاً مؤقتاً، ثم ضغت زر حاسوبي الذي بدا في الكهف كندبة في جبين أبيض. فالكهوف لا تحتفي بالزمن الجديد الذي يربطك بأي شطر من هذا العالم، ويأخذك إلى حيث تريد. ما إن تغلق باب هذا العالم، حتى تحس بأنك قد كنت على ضفة نهر جار، وعدت مع ذلك تكابد عطشك.

أشرعت كل أبواب البرامج الإلكترونية التي يمكنها أن تصلني بسعاد، بعد أن لاحظت أن إشارة الاتصال الإلكتروني قوية، وهي تشير إلى إمكانية التواصل، رغم ليلة عاصفة في جبل ليس في جسده نفس آدمي سواي. لكنها كانت غائبة. فكتبت لها:

(يساورني شك بأنك كنت محض حلم، لم أصحُ منه بعد. يحدث، لمخيلة كمخيلتي التي بقيت تقاتل غول المعتقل عشرين عاماً، أن يختلط سحر الحقيقة فيها بالخيال. ربما أصابها العجز عن أن تستوعب واقعاً جديداً لم يعد يحتفي بزمن يبدو بالياً في نظر حياة سريعة لا تهتم بأمر أي خطوة متمهلة. ها أنت تغيبين. على الرغم من كل التناقضات التي كلما أوغلت في منحها لي، أحكمت قبضتك على حنجرتي فيتباطأ الأوكسجين وهو يغذ خطاه نحو رئتيّ. بيد أسقيتني السم، وبعد كل هذا العمر جئت تداوين ما حل به الخراب!

كان عليك يا سعاد أن تلتفتي لتوسلاتي التي أفضتها ذات يوم على كتفيك، ونحن نغرق في لهاث لذة ما من شيء قادر على منحها بسخاء مثل الحب. كان عليك أن تكتبي ولو كلمة واحدة تشير إلى أنك ستمضين دون عودة إلى حُبٍ كان صوفه يدفىء جوف القلب، كأن برداً من هذا النوع القارس لن يأتي ذات يوم تديرين ظهرك هكذا بصمت. هل كان ضرورياً أن تحركي المصباح لأرى وجهك الآخر الذي كنت انت قد تناسيتيه؟ وكنت أنا قد تناسيت وجع عشرين عاماً مضت في المعتقل دون ذنبٍ ارتكبته!

لا أصدق أنك لا تعلمين أن الصمت ردة فعل قاسية توجع أكثر من سياط الكلام. كان عليك أن تتركي لي على الأقل إشارة

واحدة تدل على غيابك، بما أنك عجزت عن أن ترفعي سماعة الهاتف، وتتمثلي وعي امرأة من باريس على سبيل المثال، وتقولي ما عدت أحس بحب يمكنه أن يدفع بحياتي وحياتك قدماً إلى الأمام. كان عليك أن تقولي مثلاً أنك لا تحتفين بحب أبدي كالذي يحتفي به الشرق، وأن الحب عندك مرحلة يبدأ التلذذ بها والعاشق يطالع حصاده من الذكريات الجميلة. لكنني يا حبيبتي لن أستطيع أن أحتفي بذلك البيدر، ويدي تكابد ذلك الشوك الذي حظيت به وأنا أجني بيدر الذكريات. ألم أقل لك بأني أحبك إلى تلك الدرجة التي سأسامحك فيها على أي شيء)

*　　*　　*

عبر بوابة الملاذ، كنت أراقب الوادي السحيق المعبأ بالظلمة، وأراقب الغور المعتم إلا من إنارات الشوارع والبيوت التي تطل من طقس المطر وقد بدا موحشاً أكثر من المعتاد. في تلك اللحظة هجم عليّ شبح المعتقل كغيمة سوداء أسطورية. فرحت أتذكر تفاصيله التي بقيت لسنين أتناول بسببها عقاقير وصفها لي صديقي الدكتور ويلسون. فأتناولها دون نتيجة تفضي إلى الخلاص من زمن شوكي تمنيت أن يتلاشى على يديكِ يا سعاد.

إذ تذكرتُ ذلك اليوم الذي كنتُ فيه في العنبر أتهالكُ على سريري مسترخياً، أود لأشياء كثيرة في تكويني أن تستريح. كانت الرياح خارج العنبر، تطوف في الامتداد الصحراوي الشاسع، وتنثر موسيقاها الموحشة حد البكاء المر. أطبقت جفنيّ، فانهالت العتمة

مرة واحدة، تخضب ذلك الامتداد اللانهائي من فراغ يطلُّ على مطلق سرمدي يفضي للإجابة التي يلح عليها سؤالي. امتدت يدي، التي كنت أحس بها في تلك اللحظة جزءاً غريباً مني، إلى جانبي حيث طاولة صغيرة، عليها علبة تبغ وولاعة قرب منفضة السجائر. التقطت سيجارة، وأشعلتها، فبدا وهج الولاعة في تلك العتمة الجزئية، كفكرة ولدت للتو دون مقدمات. رحت أشهق دخان تبغي، وأزفره ببطء إلى الأعلى، وكأني أحاول أن أعلّق بخيط الدخان الخفيّ أشياء تحوم داخلي، لعلها ترحل معه وهو يتلاشى في عتمة العنبر كجنيّ يظهر فجأة ويتلاشى فجأة. زخّة ضوء خفيفة كانت تتلصص من نافذة تقبع في أعلى الجدار الذي يحاذي سريري، تخترق تقاطع القضبان الصدئة، لتلقي على أرضية المكان ظلالا مشتتة، تشبه لوحة سريالية، ينزف من مساماتها مزاج موغل في العويل المتقطع. راقبت تلك الظلال فبدت كأنها تفتش في تداخلاتها الشكلية عن إجابة ما. رياح تلك الليلة من ليالي شهر كانون كانت ترسل إلى مسامعي أصداء حركاتها المستفزة لأطراف الجسد، في اللحظة التي كانت تمارس فيها قصتها البدائية، على مسرح الصحراء الموغلة في الصحراء، وفي أحادية اللون الذي اختزل كل الألوان ليبقى هو وحده. أشعلت سيجارة أخرى، ورحت أنفث دخانها متقطعاً. ضربات أحذية الحراس الذين يطوفون حول المعتقل، كانت تصل إلى مسامعي بين الفينة والأخرى، وسعلاتهم تختلط بأصداء الرياح .

وأنا أسمع شخير بعض المعتقلين، أطبقت جفنيّ، فعاد الفراغ اللانهائي الضالع بالأسود مرة أخرى. كنت أحدث نفسي، وأنا أوغل في تلك الحرية السوداء الشاسعة:

(أبلغوني أنني سأغادر المعتقل غداً، لتكون هذه الليلة الأخيرة في صورة تراكمت بها سنين من العذاب المر. تلك السنين التي لم تمض سريعةً أو حتى اعتيادية؛ بل كانت رحلة سلحفاة تصعد إلى قمة جبل من قعر واد تحترق حشائشه الجافة. سنين اختزلت نفسها إلى عوالمي الجوانية، إلى تلافيف ذاكرتي التي سأحملها معي مرغماً غداً ، وتحملني هي إلى الوراء، سترافقني في وقت أحاول أن أبتعد فيه عن هذا المكان. هل ألفت هذا المكان إلى حد العبث بكل موازيني؟ تساءلتُ بعد مضيّ عشرين عام هنا ، في هذا المصحّ العبثيّ لروحٍ مترعة بالحزن. ثم ما هذا الشعور، الذي على الرغم من الخسارات كلها يداهم قلبي، وكأنني أهم بترك حبيبة كوّرت لي السنين بمعيتها، لحظات نورانية)

فتحتُ عينيّ دون أن أعثر على تفسيرٍ واحدٍ يضجّ في المخيلة لهذا التاريخ المهشم حد الهستيريا، فابتعد ذلك الأفق الأسود حين تسرب ضوء باهت يتلوى في المكان.

أشعلت سيجارة أخرى، وشهقت دخانها بعمق أتأمل تلك السنين التي مضت وقد غادر عبرها معتقلون، وأتى آخرون في زمن حافل بالمضرات لا بالمسرات. منهم من مات فعاد جثة إلى دياره ليبتلعه التراب كقطرة ماء تتلاشى في تراب صحراوي. ومنهم من واجه الحياة بصمت المصاب بقلق سنين الاعتقال. في الصباح تحلق المعتقلون حولي، وعلى وجوههم ابتسامة مشوبة بالوجع. كنت أكثر حزناً من ذي قبل وأنا أرى صمتاً صحراوياً يتلبس وجوههم. عانقتهم واحداً واحداً، وكأنني أحاول أن أستل منهم كل العذاب والخسارات، لآخذها معي وألقي بها بعيداً عنهم.

قال سالم وهو يغالب نوبات سعال استفحلت به مؤخراً:

- قد ظُلِمتَ يا خالد، لكننا نتمنى أن تستأنف حياتك بعيداً عن كل الكوابيس التي كانت تنتابك في منامك.

راح عبدالغفار يفتعل ابتسامة وهو يشد على يدي:

- الحياة في داخلك. ليس مهما أن يضر المعتقل ببصرك، ومفاصلك، ورئتيك. المهم أن تبقى تتذكر أنك كنت أقوى من أن تمتد يده إلى قلبك، مخدع الحياة.

أشار عبد الغفار إلى صورة سماح ثم قال وهو يحدق ملياً بي:

- أعلم أن ما رآه الرفاق على الجدار ما هي إلا لوحة، لكنها عبر كل تلك السنين قاتلت الموت داخلي.

اقترب سالم والآخرون ثم وضع يده على كتفي قائلاً:

- لا تقلق. وقت قصير وسوف نتبعك لنعيش حياتنا. هنالك أنباء تبشر بذلك.

انحنيت لألتقط حقيبتي الصغيرة التي جمعت فيها كتبي وأوراقي، ورسائل أودعها المعتقلون لعائلاتهم. كانت دموعهم تنساب بسخاء، وتتلوى في فناء العنبر، أصداء مخنوقة، تنز عن خفق صدورهم التي ما إن تركتهم حتى انفجرت في نشيج موغل في الحزن، فعدتُ لأعانقهم مرة أخرى، والجندي يغالب دمعتين سقطتا خلسة على خده المتعب.

* * *

استلقيت على جانبي الأيمن ووضعت الحاسوب قبالتي، بينما الرياح تزداد عويلاً عند باب الملاذ، وبقيت أنتظر رداً كما فعلت في الأيام القليلة الفائتة، لكنك لم تجيبي. ربما كنت تقرأين ما كتبت. ربما كنتِ مناماً، أو ورقة عبرت شرفتي ما إن قرأت تلك الكلمات التي تعلقت بسطورها؛ حتى استسلمت للريح ومضت في طريقها. ربما كنتِ وهماً. وربما حقيقة. والوهم ما هو إلا حقيقة عرجاء تبقى تسلب أبصارنا وتبقيها معلقة بها أينما تروح . إنه مصير من مصائر الحالم، الذي لن يكتشف جرائم حلمه إلا حينما يستقر رأسه بين فكيّ المقصلة. حينها لن يفيد أي اكتشاف من هذا النوع في شيء.

اختلط عواء الذئبين. ذئب البدايات الأولى لعمر في معتقل، يتقن دوره الزراعي، يبذر الشوك في حقولنا الداخلية، ويعدك بنموه الأبدي دون قطرة ماء واحدة. وذئب يجيء صوته من مكان ما في الجبل، كصوت امرأة ثكلى، ترفع ثدييها للريح، وتشكو خساراتها الكثار. أدرت مفتاح المسجلة ليرتفع صوت «بوتشيللي» أكثر فأكثر، وفي البال حرقة كان علي أن أداويها بالموسيقى.

ابتعدت قليلاً عن حفرة النار، التي صعدت منها ألسنة تشكل ظلالاً غرائبية على الجدران. واحتضنت رأسي بين كفي فبدت المشاهد ضبابية في تلك اللحظة، تتقاطع كرؤية دائخ بقي يترنح ثم استقر. حينها طفى في البال المتعب يوم تركت المعتقل ورائي، وأنا أقع ضحية لشعور غريب متناقض يشي بحزن الرحيل. إذ بقيت العربة العسكرية، التي أتعبتها تقلبات المزاج الصحراوي النزق، تتقافز على امتداد الطريق المتصدعة، الحافلة بحفر كبيرة

وكثيرة، أحس بها دون أن أراها. كنت أجلس في الجزء الخلفي من العربة الكبيرة، جزء مظلم مقفل من الجهات كلها، كاستنساخ للأسود السّادر في حلكة الليالي الشتائية، لكي لا يقذفوا بي دون إشارات أولى، ومقدمات إلى عالم مترع بالألوان.

تذكرت ما قرأته في كتاب باشلار، على امتداد الطريق الصحراوية، التي تنساب عنوة، وتركض إلى العاصمة. باشلار الذي تحدث بإسهاب عن الملاذ الآمن والأعشاش ودفئها.

بقي المعتقل خدراً في ذاكرتي، لكني كنت أحس به يبتعد تدريجياً. أخذت رائحة الرطوبة تتلاشى من أنفي، وقد ضجت في مؤخرة العربة، التي تئن على صدر الطريق كرئة متعبة، رائحة العادم الحريفة. بعد ساعة من السير المزعج، شعرت بهدوء في مشية العربة، فأدركت أن الطريق باتت معبدة بشكل أفضل مما كانت عليه، وانفصلت جزئياً عن ذلك التقافز مع جسد العربة، لتنفتح مخيلتي على ما أنا ذاهب إليه، عائلتي، الناس، رفاقي في الحزب، والحياة الجديدة. أطبقت جفني لدقائق، ورحت أتسلى بتلك الحالة من التفكير بلا شيء. فتحت عينيّ على عتمة العربة، وقد تناهى إلى مسامعي صوت العربات التي تعبر الطريق. أغمضت عينيّ مرة أخرى، ورحت أتأمل الأمور بريبة كسولة:

(كيف سيستقبلني الرفاق؟ من بقي منهم ومن رحل. هل كتبوا عني، هل كانوا يعتنون بجدتي ويُطَمْئِنون الأعمام ؟ آه يا جدتي يا صاحبة الحزن والحكمة، يا أيقونة الشرق، ويا كتابي الذي كلما

ضيعني يقيني، بثَّ إلي يقيناً آخر. عشرون عاماً ترافقني الآن في هذه العتمة التي تطبق عليّ، كما تطبق المقصلة على رأس الحالم بالحياة)

كانت العربة العسكرية هزيلة، تسير باتجاه عمان بهدوء مفروض، وكأن تياراً مغناطيسياً يسحبها قسراً. تسللت البرودة، التي كلما أوغلت العربة شمالاً، بدت وخزاتها أكثر ألماً، وقشعريرة.

انبثق من ذاكرتي صوت اليوم الأول، من سنين المعتقل التي سقطت من مفكرة احتمالاتي، ضالعاً بالتشظي والخيبة. كان يوماً بارداً وقاسياً على شاب، كان ينتهز النوافذ الأولى التي كانت تفضي إلى أحلام ذلك الجيل، الذي ما خلفت له الأيام سوى هزائم عبثت بكل شيء، وخلطت الألوان بيد صماء، لا دم ولا أوردة فيها.

* * *

دفعتُ بساقيّ إلى الأمام ووضعت الحاسوب عليها، بعد أن نكشت حفرة النار، فهجم عليّ وهجُها، مبدداً شيئاً من صفعات البرد التي تتدفق في الملاذ. كان وجه سعاد يلح عليّ بقسوة، تتبدى من حقيقة أنها توغل في غيابها الذي يفتك بي كسرطان بحنجرة مغنٍ ظل طوال عمره يمنح المسامع خبز قلبه الطري. كنت وأنا أحتضن حاسوبي، الذي تزودت لأجله ببطاريات احتياطية في عراء يخلو من الكهرباء، آمل أن أجد منها رسالة تهدهد كتف الحزن الذي يئن على نفسه داخلي.

أخذ المطر في تلك اللحظة ينسج خيوطه المائية على باب الملاذ الصخري كعنكبوت منهمكة بصنع بيتها. شغلت الحاسوب، ولم

أعثر لها على وجود في «الفيس بوك». لم تكن هناك، ولم تترك ولو سطراً فارغاً. ثمة فراغ موحش إلا من تلك الرسائل التي لم تجب عليها. شعور عارم بالوحشة اعترى قلبي، كما تعتري القشعريرة مسامات الجسد. شعرت لحظتها أن ثمة قضبان راحت تقترب مني، وهي تحتك مصدرة صريراً، إلى جانب جدران تتحرك نحوي، والسقف الذي يحفل بنتوءات مدببة راح يهبط، بينما عواء الذئب يجيء متقطعاً على جناح غراب ينثر الليل بكل شهوة للكائنات. رحت أتململ في مكاني مرعوباً، وأفتش بعجالة عن أي مهرب ينقذني من ذلك الزحف الذي سيهلكني، ويحيلني إلى فراغ الموت الذي بقيت كل حياتي أرفضه بشده.

كنت ما أزال في مكاني، بينما الحاسوب مرتكز على فخذيّ، ويدي اليمنى على لوحة المؤشر في وقت اقتربت كل تلك الزواحف بهديرها المخيف، حاملة معها هلاكاً حتمياً. تسمرت عيناي على شاشة الحاسوب قبل أن يضغط إصبعي بشكل لا إرادي على زر المؤشر، فرأيتني أعبر الشاشة، وقد تلاشت أصوات الجدران والقضبان والسقف، التي كانت تزحف نحوي.

عبر دارات كهربائية، وأسلاك دقيقة، وكوابل ألياف بصرية ضخمة وطويلة، تحولت إلى ذرة صغيرة وخفيفة، وبسرعة تفوق سرعة الضوء، ولجت كوناً آخر. فوجدتني في مدينة ملونة بألوان الحياة. ألوان الطيف القزحي. ألوان بدت كأخوة، كل واحد يعكف على لعبته ويلهو بها. تتوزع بتناسق يحيل إلى دهشة يمكنها أن تلد الصرخة عنوة. تبدّى لي ذلك وأنا أمسح تلك المدينة الملونة بنظرة

واسعة، وأقف ببابها ساهماً، ومصاباً بالدهشة، تهاجمني رعشة فاضحة، جعلتني أتساءل بتمتمة حول ما يحدث لي. كل شيء هناك كان آسراً، المنازل شجرية. كأن تلك المدينة وليدة فكرة عن الاخضرار، منازل تصعد في الهواء بشموخ هادئ، وقد شُيّدت من أشجار تغرس جذورها في التراب، توغل في سخائها، وهي تمنح أوراقا خضراء يانعة، لم يطلها فصل الخريف. النوافذ بدت بهية بالبلور الرقيق، الذي يضج منها لامعاً، وهو يعكس أشعته التي تركض في الهواء كأنها خيوط نيازك في ليلة معتمة. رأيت فيها رأيت أن الماء يمشي في الشوارع على هيئة آدميين، وحيوانات. تارة ترى الماء بهيئة امرأة تتبختر في الطريق، وهي تربي تلك الخطوات الأنثوية التي تشيع في القلب نشوة غامرة. وتارة تراه في هيئة شاب يمسك بآلة موسيقية، يعزف عليها دون توقف، وأخرى على هيئة غزالة، تتقافز في الحقول ذات التراب الأرجواني، الذي يتنفس بهوادة وهو يكترث بالورود، التي بدت مصابة بالخدر؛ تماماً كما نتنفس عندما نحس بهدوء قَرَعَ أبواب القلب بعد تعب طويل البال.

موسيقى لذيذة لآلة غريبة كانت تعزفها امرأة عارية ترخي قدميها على غيمة كانت تطوف في سماء المدينة. كان لتلك الموسيقى سطوة ترطب داخلي جفافاً ما، فشعرت بسعادة غامرة، تشبه السعادة التي تجتاح الروح يوم يرتعش الجسد وهو يصل إلى ذروة النشوة في حضن امرأة يحبها. سعادة جعلتني أتململ في مكاني، لفرط إحساسي بغرابة مختلطة باللذة والدهشة.

ما إن تحركت قليلاً حتى أدركت أن الجاذبية معدومة في تلك المدينة. فصار بإمكاني أن أحلّق كما كنت أرى في المنامات سابقاً. قفزت في الهواء، محاولاً اقتناص الفرصة بالتحليق، فرأيتني إلى جانب قاطني تلك المدينة، الذين طفقوا على الهواء مرة واحدة، أحلق كما الطيور، ماداً ذراعي لتعتلي الريح. كنت كلما ارتقيت درج الهواء مرتفعاً إلى الأعلى أهوي ثم أستقيم، فارداً ذراعي وبي نشوةٌ تحدث للواحد منا عندما يجد نفسه في خضم حالة طالما حلم بها.

دفعني الفرح الغامر في التحليق للصراخ عالياً، وانتشرت نشوة عارمة في أوردتي لفكرة التحليق ذاتها.

من الأعلى، بدت المدينة التي خلت من أسلاك الكهرباء ومولداتها، ومن العربات وضجيجها، ومن الطائرات وزعيقها، كما لو أنها قصيدة لم تكتب بعد. كانت حالة مدهشة جعلتني فاغراً فاهي. كنت أتساءل في تلك اللحظات التي بدت لي خارج إطار الزمن البشري:

«أي مدينة هذه التي تخلو من الكهرباء، وأدخنة العربات، وقاطعي الطرق، ورجل الأمن الذي يخبئ وراء نظارته السوداء تربصاً بأي كلمة يمكنك أن تنطق بها. سكون لذيذ كان يعتري الأشياء بكل جسارة، لا ضجيج، ولا صخب في تلك المدينة. مدينة لا جنود فيها، ولا بنادق، ولا سجون. كأن قانونها الماء والشجر. كانت الشوارع خضراء طرية هلامية . هكذا شعرت حين وُجدتُ فجأة هناك.

عدت من رحلة التحليق فرأيت الأشجار تمشي على الأرصفة، والطيور الخضراء تتناوب على حقن تلك الأشجار بمادة خضراء

حتى لا تبهت فيها عين الاخضرار، ثم تعود محلقة نحو الشمس التي تضع يدها على خدها تراقب الكائنات بكل روية. عندما عبرت الشارع الذي خلا من العربات، واستويت على الرصيف، قافزاً عدة قفزات. هرعت نحوي شجرة برتقال ومدت ساقها، ثم منحتني حبة برتقال من غصنها قائلة:

- لا نسمح بالعطش هنا.

استغربت مشهد شجرة تتكلم. أمسكتْ بالبرتقالة، وقربتها مني ثم ضغطت عليها، ليندلق السائل المنبعث منها في فمي، مبدداً العطش الذي أصابني جراء رحلتي القصيرة البعيدة عبر الدارات الكهربائية وكوابل الألياف البصرية. قفزات قصيرة في الهواء، جعلتني قرب خط من الماء في منتصف حشائش، يصدر عنها هسيس موسيقى تشارف على الانطلاق. يصعد ذلك الخط نحو السماء، ويهبط، بينما يعلو هسيس العشب. ما إن مررتُ بجانبه حتى مشى الماء نحوي، بهيئة زرافة تطاولت على العلوّ:

- أهلاً بك.

تساءلت بفزع، في مواجهة ماء يتحدث إليّ:

- من أنت؟

ضحكة مغناجة حلقت في الهواء، رشقتني باللذة:

- أنا أنت. وأنت أنا. رفيق تلك الشمس التي ترعى الأشياء في شرفتها العالية.

ثم رأيت الماء، يطبع قبلة على فمي:

- ها أنا قد أكدّت فيك الحياة.

قال ذلك وعاد إلى رقصته البهلوانية في الهواء. بينما كنتُ أتابع رعشة تسري بي كما يسري المخدر في الوريد. قفزت في الهواء محلقاً فوق الشق الآخر من المدينة. ثمة رجل كان يضاجع امرأة على غيمة صارت سريراً لحب ناصع اتضح من تناغم حل بينهما جسداً لجسد، وروحاً لروح. وفتى كان يغمس ريشته في سحابة، ويكتب في ورقة بين يديه. وامرأة تضطجع على سحابة أخرى وتقرأ كتاباً.

- يا إلهي، كل شيء هنا مصاب بشهوة التحليق.

هكذا عبرت عن دهشتي عندما هبطت في الشق الآخر من المدينة، فشاهدت حقولاً واسعة عجت بأناس يقطفون ثماراً، ورجل يقف على ظهر غيمة، يغني للحقول المستسلمة للغناء الرقيق، الذي كلما ارتفعت وتيرته أوغلت الأيادي بقطف الثمار، التي لم أشاهد مثلها من قبل. لم يكن هناك خارج الحقول سواي. رأيت شجرة تمسك بيد كهل وتساعده على عبور الطريق، التي تمضي إلى خارج الحقل. كان الكهل يمشي بهوادة المسنين، والشجرة تمشي هي الأخرى بهوادة، مبدية اهتماماً بمشية الكهل، الذي ما إن مر قربي حتى قال باسماً:

- في أيامي الأولى هنا وقفت مصاباً بما تحس به الآن.

كنت ما أزال ساهماً بالكهل الذي غطت خصلات شعره البيضاء كتفيه، عندما أضاف قائلاً وهو يشير للسماء:

- لا عليك؛ ما إن تختطفك تلك المرأة التي تعزف موسيقاها على ظهر تلك الغيمة حتى تصبح حافلاً بما نحفل به الآن.

عندما أوغل في خطواته، وامتطى ظهر حصان بأجنحة، حلق في السماء مبتعداً، بدت الموسيقى التي تجيء من بطن الغيمة التي تجلس على ظهرها امرأة عارية، أكثر عذوبة وسطوة، وهي ترطب نحر القلب، وتشيع في البال أغنيات عن التحليق.

أنين الذاكرة

راح «نيبو» يفرد ذراعيه للريح التي أرسلت في تلك اللحظة سفيرها البرد بديلاً عن صوتها، فانتشرت القشعريرة بجسدي أكثر من ذي قبل. بقي عواء ذئب يصلني صداه متقطعاً يطرق باب الحزن في قلبي. ينطلق حزيناً من مكان ما في الجبل، مليئاً بوحشة تفضي إلى حالة يحس الواحد منا فيها بأنه محض كائن منبوذ. شيء داخلي يجوح. وذئب في مكان ما من ذلك الجبل يعوي معه. وفي الذاكرة، عواءُ ذئب بقي على مدار سنين الاعتقال يصلني مارّا بانسياب الرمل على مدّ تلك الصحراء، التي مثلما تمنح لذعة الجمال عبر انتمائها لتلك الصرخة من الحرية؛ تمنح صرخة مكتومة تخلفها الوحشة ذاتها.

سكنت الريح تماماً، كأنها لم تكن، لكنها منحت الرذاذ الخفيف حق التجوال ليؤنس تلك اللحظة. اعترت القشعريرة جسدي. فألقمتُ فم النار بعضاً من جثث الأشجار. إذ دب الضوء فجأة في عتمة المكان.

من وراء الجبال الغربية، لاحت فلسطين بأضوائها كعروس اغتصبها الغرباء وهي في طريقها تُزَفُّ إلى الحبيب. كنت أراها في النهارات، عبر ذلك المدى الصافي الذي ما إن تشتهي رؤية القدس؛ حتى يكنس الغيمَ، ويمنحك حق رؤيتها ورؤياها. كنت أراها عبر تلك النافذة الهوائية وهي تفرد ذراعيها، وتمنحني فرصة الإطلالة.

ونيبو، يستريح على بدنه العشبي، ويعطيني حبلَ المشهد لأقترب من باحته، والمشهد قصيدة، ولوحة، وأغنيات. عبر خط البصر الذي يرفرف كطير حر، إلى هامة الغور الذي يلوح البحر الميت فيه كجرح في التراب، إلى ما وراء الجبال الغربية، حيث تلوّح القدس بيدها وتهزأ بالغياب.

فاحت رائحة الميرمية من فم الإبريق حينما غار بحضن الجمر، كما يفوح عطر سعاد من بدن الذاكرة، فسكبتُ كأساً، تصاعدت أبخرته كغيمة أطلقت الريح سراحها. ارتشفت بتلذذ، وأشعلت سيجارة، وشهقت دخانها، وأنا أسرّح بصري في المدى المعتم، بينما شيء جوّاي يتساءل:

أينكِ؟

لا أحد في الجبل إلايّ. حتى الذين تركوا أصواتهم ههنا؛ غابوا إلى غيمة في البعيد. الأنبياء، القديسون، الرعاة، الفرسان، النحاتون الذين زوجوا الحجارة بعضها ببعض؛ فصارت فسيفساء تشير إلى زمن ليس كهذا.

لا أحد في الجبل إلايّ، والليل نهر أسود، يهبط من مفازات السماء. يجيء من الشعاب والوديان. من وراء الجبال والتلال والأشجار. يجيء حتى من الكلمات التي تسبح في بحر الحياة.

وغبت يا سعاد، كما تغيب بهجة صارخة!

تمتمتُ بصوت خفيض ورحتُ أدسُّ القش تحت الحطب كمن يستعد لأغنية على حافة الريح. أقدح نار الولاعة مرة أخرى،

فتنطلق النار بتمهل في الهشيم. تماماً مثل العويل الذي يدب في هشيم روحي كلما غبتِ واندحرت بعيداً إلى ما وراء المسافات. أنفخ على الجمرات لتشعل النار في جسد الحطب، الذي ابتل بالماء كما يبتل قلبي بالحزن. أنفخ بقوة كأنني أعاتب الخشب على مسمع الرياح التي رغم بذخها، كانت تراقب رئتيّ وهما تستجمعان الهواء وتطلقانه فأصاب باللهاث. حتى الريح رغم بذخها تغيب. يصير العتاب محض سياط مازوشية أجلدني بها. هل أتوقف عن بيانات العتاب؟ ربما علي أن أسلك درب صمت يشبه صمتك القاتل كي أشفى.

استلقيت قرب النار وصوتكِ يجيء من دار الذاكرة، بعد أن عاتبتك ذات يوم على الغياب بكل مرارة يمكن أن يمنى بها عاشق يحلم بامرأة تخيط جبين قلبه الذي شجته حجارة الحياة:

(في كل طالعة شمس يا خالد، أبتكر شكلاً جديداً من أشكال المقاومة؛ كي تعينني على العيش. المقاومة التي يجيء الصمت كأقسى أشكالها، الصمت حيال زوج يهديني شكلاً من أشكال الخيانة. لذلك يصير الصمت سلاحاً فتاكاً. يقول لي (ليش ساكته؟)، فأستمر في صمتي. فيثور وأبقي على زوابعي حبيسة دواخلي، التي منيت بالقولون العصبي. أفعل كل ما أفعل لكي لا أنهار. ربما تتساءل يا خالد، لماذا أعتمر قبعة الصبر هذه، فأقول لك أنني أدرك أن هكذا شكل من أشكال الزيجات ليس أبدياً. ولكن اللحظة الحاسمة لم تحن للآن. حينها سأعبر إلى مرحلة ثانية، تلك المرحلة التي ليس شرطاً أن تكون ممهورة بتوقيع شريك آخر. عندها، سأخرج نحو عالمي الذي أحلم به، وأنا أدرك أنني لا أكرهه، لكنني لا أحبه أيضاً)

يومها كنتِ غاضبة. ثمة شيء كان يحدث في بيتك، وشيء كان يحدث لي وأنا أدرك أنني أحب امرأة ليست لي، امرأة تحترم امتناعي عن الخوض فيما يحدث لها، إلا إذا أرادت هي ذلك. في اللحظة التي أعقبت كتابتك لما أطلقت عليه بوحاً، شعرت برغبة شديدة بمهاتفتك. عندما استأذنتك بذلك عبر ذلك «الفيس بوك» اللعين، جاءني صوتك هادئاً. كأنك قلت أشياء كانت تؤلمك واسترحت. لكنني في تلك اللحظة الصعبة على واحد مثلي يحب بكل حواسه؛ لم أقل لك بأن وخزة ما لعجت، كما يلعج الضوء في خاصرة القلب. تلك الوخزة التي ما زالت ترافقني، وأنا هنا في وحشة هذا الجبل. بعد أن أنهيت المكالمة معك، أخذت أراقب صورتك التي كان الاشتياق لك لحظتها قد أخذني نحوها وهي تنزلق على شاشة حاسوبي دون وعي بما يحدث لي. ليت هذا الحاسوب كان رفيقي في المعتقل.

كيف لم يخطر ببالي عبر كل تلك السنين الجامعية، التي انتهت بالاعتقال، وقد أمضيتها غارقاً في المحاضرات نهاراً، وفي نقاشات حزبية تنتهي عادة بآلام رأس المعدة مساءً. كيف لم يخطر ببالي أن أؤثث تكويني بامرأة تجعلني أتلمس خطاي على حقيقتها في هذا الكون. في المعتقل أكثر ما كان يعوزني امرأة تعادل الوطن الذي عض يدي. امرأة غير التي جعلتني أؤمن بها إيماناً مطلقاً لفائض شعارات حملتها، فكفرتُ بها ليلة أن وجدتها في أحضان صديقي، يتضاجعان أمام صورتي، التي كانت تنزلق على الجدار كشاهد ليس باستطاعته أن ينطق. حينها نسيتها بشكل كامل، كما لو أن أداة ميكانيكية جواي أوقفت ما كنت أحس به نحوها. إذ صادفتها أكثر من مرة، وكأنني أصادف أي امرأة تعبر الشارع، امرأة لم تكن تعنيني قط.

كان الشوق الجارف كالسيول التي تأخذ معها كل شيء في الوديان الهابطة من هذا الجبل، هو وحده الذي جعلني في تلك الليلة أمرر مؤشر (الماوس) على شفتيك اللتين رأيت فيهما ارتخاءةً تصور إيقاع القبلة الأولى، ثم أغمض عينيّ، وموسيقى غريبة كانت تجيء من عوالم جوانيّة تخفق بي. تلك الموسيقى التي لا نسمعها إلا في لحظات كهذه، بينما تقف أحاسيسنا البشرية في بهو البال قبالة مرايا كونية. فالحب الذي نقف بسببه قبالة مرآةٍ، نتلمس ملامح الطفل فينا، سيأخذنا من ياقة القلب للمرآة نفسها، لنكتشف كيف رفعنا راية الإنسانية فينا، ونحن نكابد إيقاعات الشوق، والحنين، والغياب، والجنون.

ثمة دوخان لذيذ كان يسري بمجرى الدم في الأوردة، بينما يهبط مؤشر الماوس المتحرك على شاشة الحاسوب لتمسح أنحاء جسدك الشرقي بامتياز. صدرك الذي ما زال على الرغم من السنين الأربعين، يحتفظ بأناقته الأنثوية. هذا جنون. لقد كان جنوناً مني وأنا القادم من زمن لا يمكن أن يشبه هذا الزمن بشيء؛ زمن اختلف فيه حتى الشِعر. كنت ألامس بأناملي وجه هذا الحاسوب، فأسمع خطواتي وهي تتقدم نحوك خطوة، خطوة.

أتعلمين أن احتضان امرأة لرجل يعادل حياة بأكملها! هذا يعني أن العالم بأكمله سيبقى خارج سياق اللحظة، وتصير اللحظة لجسدين أصبحا كائناً واحداً، عالماً واحداً.

لم أكن أعي أن صدفة من هذا النوع سوف تبدل كل شيء حولي، كل شيء قرأته، كتبته، وكل شيء آمنت به. «الكلمات وحدها هي التي تؤثث بيت الحب، والحب بيت ليس له جدران ولا سقوف. إنه الشساعة بعينها.»

ثمة كلمات تلمستها ذلك الصباح في عينيك اللامعتين، وابتسامتك التي كادت تفرّ من الصورة. لأتذكر وصفَ «ميرلين» للكلمات الجميلة بأنها (كالعينين الجميلتين تلمعان من وراء النقاب).

فقد كنت أمرر مؤشر (الماوس) على صورتك المطلة من شاشة الحاسوب، وكأنني أستجدي هذا الزمن التكنولوجي أن يمنح روحي ما يجعلها قادرة على التحليق مجدداً. ترى أيهما أكثر متعة للروح، الحالة التي أصابتني ذلك الصباح وأنا أراقب ملامحك عبر هذا العالم الافتراضي وأتشربها ملمحاً، ملمحاً؟ أم حالة الوصال التي حلمت بها خارج سياق العالم الإفتراضي هذا؟

* * *

وقفت بباب الملاذ الذي أطلّ على سماء قدمت كل ما عندها على طبق ليل بحجم العطش. ورحت أصرخ بأعلى صوتي:

- أيتها السماء السخية بمطر غزير كأحزان العاشقين تحت سياط الغياب، هذه ليلة عرس الماء على فتاة أسمها التراب.غداً ستحبل الأرض، وبعده ستضع مولودها العشبي، فتتبدل لهجة الرياح، وتصير لهجة الشمس أكثر دفئاً، فتتنهنه الكائنات بالملذات. إلا من في قلبه غصة عشق حارقة. وغصة حالم عضّت البلاد أصابعه وهو ينفض غبار المارقين عن جبينها. أيتها السماء السخية ها أنا، مثلما يرمي الولد سِنّه اللبني للشموس، أرمي قلبي إليكِ، في هذه الليلة التي على الرغم من ألحانها المائية، حد الشهيق بالنغم. وطبول الرعد الشبقة، حد التفصد من جسد السهو. ورقصات البرق

الكرنفالية على قماش أسود مشدود قبالة بصر الكائنات. ليلة مع كل ذلك الصخب الغزير، إلا أنها تبدو ليلة موغلة بالوحشة حد نحيب يغرق صوف الروح، ويجفل خلايا البال. أيتها السماء السخية، خذي قلبي هذا الذي كلما ازداد حلماً؛ ذابت المسافة بينه وبين حتفه. خذيه هناك حيث البروق بشهوة الكهرباء الكونية ستصعقه وتمنحه انتفاضة على رثم الوجع الذي يقربه من المقصلة.

تهيأت لأرمي قلبي للسماء، أطوحه بيدي، أطوحه، وأطوحه، لكنك ساكنته التي لا تبرح مكانها الفسيح. سماءه الشاسعة التي مثلما تدب فيها العتمة؛ تسطع فيها شموس خرافية. أقف بالباب، من الداخل تلحقني موسيقى «بوتشيللي» كأم ترتب هندام طفلها خوفاً عليه من أسنان البرد. أصير قبالة جنون الطبيعة الجميل، الذي يصفعني دون هوادة، يبدو الغور كأنه منجم للعتمة، وإنارات البيوت المخنوقة كأنها عمال المنجم يتبينون طريقهم نحو بوابة نفق طويل. أرفع رأسي قدام الماء كما كنت أرفع رأسي قدام شلال مياه المطر التي تنشجها المزاريب في البيت الكبير، البيت الذي عدت إليه بعد عشرين عاماً رتبتها لي يد خفية في معتقل فقأ عيناً ما في دواخلي. أرفع يدي قدام البرق، وأصيح مشيعاً حزني لليل غارق في حلكته. أشج صدري لكائنات الرعد، وأعوي كما يفعل ذلك الذئب الذي منذ اندحرت في هذا الملاذ ما انفك يجوح على مسمع السماء الغزيرة بالشتاء. فكلما بكى عاشق، أورقت صخرة، وأدمعت عيون السماء.

* * *

ترنخت بالماء كإسفنجة سقطت بحضن النهر، فأهداني البرد رعشة تشبه رقصة على حواف المنحدرات. عندما عدت لمكاني كانت ألسنة النار قد منحت الملاذ دفئاً، ووهجاً يرتب شيئاً من ألفة تعوزني. اقتربت من حفرة النار، ورحت أرمي إلى فمها بقايا الحطب فارتفعت أكثر. وضعت على كتفي بطانية، وارتشفت من كأس الشاي، وأنا أحس بدفء السائل يهبط إلى جوفي. إلى جدار الملاذ اتكأت لأصير رهينة ذاكرة سخية كسخاء السماء الذي لا ينقطع.

قادماً من الذاكرة أخذ زمن المعتقل يتقاطع مع زمن الكهف، الذي مثلما يثير بي الغبطة وسط شتاء جن ليله، يثير بي الوحشة. فيجيء زمن المعتقل، وتعود ملامح الطريق الطويلة، كالحكايات المملة، وهي ملقاة على الرمال الصحراوية باستقامة لا يمكن أن تلتفت يميناً أو شمالاً، كخيط أسود بلا بداية ولا نهاية. تساءلت لحظتها، وأنا أغادر المعتقل، وقد ضجت في ذاكرتي صورة مشابهة وسواد يندلق دون توقف في البال، بينما العربة تركض نحو العاصمة:

(أي مرآة، تلك التي تكرر المرارة والفجيعة وتعيد استنساخها، بكل هذا السخاء)

خيوط من الضوء الحاد، كانت تسقط من ثقوب تناثرت في سقف العربة العسكرية المحكمة الإغلاق، التقطت عيناي واحدة منها، وأنا مستلق على ظهري، والعربة تحبو على كف الطريق. أغلقت على خيط الضوء عيني اليمنى، وانحدرت دمعة ساخنة من العين اليسرى على خدي المتعب، فتمتمت بحشرجة باكية:

كيف تمارس بلاد، كل هذه القسوة على مريديها؟

أخرجت من جيب معطفي علبة السجائر، وولاعة وأشعلت سيجارة. مع اندلاق الوهج في العتمة، أطل وهج أزرق لذاكرة الأيام الملقاة على أشجار الدروب. تذكرت بحزن يشبه القرف، ذلك اليوم الذي قرأت فيه أول نشرة سرية للحزب على يد أحد أقاربي:

قال لي وقد ارتسمت على وجهه قسوة مبررة:

- اتبعني أريدك.

صعد تيار من الأحاسيس المتلعثمة عبر أوردتي، ثم استقر على وجهي، فتبعته وأنا أقول وقد تخللت صوتي زخة خفيفة من الارتعاش:

- حاضر.

أغلقت الباب خلفي، وأدرت المفتاح، فأحدث صريراً ارتدت أصداؤه في مخيلتي، وباتت أنفاسي تعبر مكانها بدقة لا تناسب إلا هكذا لحظات.

أخرج بضعة أوراق كانت في دولاب قرب السرير، وتفحصها برهة ثم قال:

- اقرأ هذه الأوراق، اقرأها بعناية، لك اليوم كله.

ترك الغرفة، بعد أن أغلق عليّ الباب بالمفتاح محدثاً صريراً مزعجاً. تنفست بعمق، ثم رحت أقرأ إلى أن رحت أردد في سرّي:

- آه يا وطني. كل هذا يحدث!

عدت لأقرأ الورقة مرة أخرى، فلاحظت التوقيع المتعربش في ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الحزب، فغزت دماغي أحاسيس، جعلتني أحس بأنني معني بما يجري.

بعد أشهر أخذت أقرأ بنهم تلك الكتب، والمجلات، والصحف التي كان اقتناؤها في ذلك الوقت بحد ذاته جريمة تقود إلى المعتقل. بعد عام من قراءة ذلك البيان صرت عضواً في حزب يحلم أعضاؤه بحياة بشرية عادلة. لكن الزمن تغير، فبقيت الفكرة وسقط كثير من المؤمنين بها، وهم يلوّنون جلودهم بألوان المرحلة. كنت أعي تماماً حقيقة أنني لست حرباء؛ إنما كائن بشري حالم بالحياة.

* * *

النار في العتمة أنيس وفيّ، يبدد مرامي كائنات سرمدية توزع الوحشة في الأشياء. ثمة عواء أطلقه ذلك الذئب الذي كنت أحس به قريباً من ملاذي. وهو يجيء كبوق نفير للحرب، يركض في صفحة السماء ويُهطل اللوعة. آه ما أقسى لوعة ذلك الذئب! ما بين عواء وآخر، زمن قصير. جوح يقطع نياط قلبي، ويثير بي وحشة مكمنها إحساس غريزي ، بهذا الإيقاع الغريب.

بعد أن تلاشى صوت، وبينما ألسنة النار تنعكس على جدران الملاذ، وعلى الصخور المتناثرة أمامه، فخلقت ظلالاً متحركة تشبه أجساداً محنية، شعرت بحركة غريبة تجري قرب الباب ثم حولي، فتحريتُ مصدر تلك الحركة التي أثارت بي شيئاً من الخوف لكنني لم أجد في الخارج سوى الرياح، والبروق، تلعج في المدى. لم أعد أثق

بقدرتي التي يمكنها أن تفصل بين الواقع والخيال، بين الوهم والحقيقة. فعدت إلى مكاني قرب حفرة النار، أتسلى بأوراق الذاكرة التي كانت تتتابع واحدة تلو أخرى. أوراق الذاكرة التي لم تحفل بالرقم الذي يتعلق بذيل الصفحة. أوراق تُركتْ على طاولة قرب نافذة مفتوحة، عبرتها رياحٌ شرسة خلطتْ الذكريات ببعضها البعض، ولتعيدَ ترتيبها؛ كأن تحرثَ البحر. أوراق يمكن قراءتها دون ترتيب، لقارئها أن يعتبرها إحداها البداية. وله أن يعتبرها النهاية. ما دامت الذكريات كلها تصب في بوتقة واحدة تثير بدن الحنين، وتثير بدن الوجع.

* * *

اشتد البرد وأنا أختبىء في تجويف صخري، لم يخطر ببالي أنني سأمضى فيه ليلة جعلتني أقف قبالة نفسي، متوحداً بعزلة كان لها أن تفسّر لي معنى أن يكون الآدمي سجين حياة تحولت إلى معتقل كبير. راح صوت قضبان المعتقل يتصاعد من مكان خفي، لأشعر بها تقترب مني مُبدية نهماً وحشياً مخيفاً. ثمة صدى لصوت جوقة من محققين كانت تعدني بتهمة جديدة، وبمعتقل جديد. بدأت الجدران، وسقف الملاذ بالزحف نحوي بشراسة قوية. حينها سارعت باحتضان الحاسوب، وضغطت زر المؤشر، فتوهجت الشاشة وظهرت في لحظات تلك النافذة المشعّة وأمدتني بقوة الجذب ثم ابتلعتني، فتحولت كالمرة السابقة إلى ذرة تسير بسرعة الضوء عبر دارات كهربائية، وألياف بصرية، لأجد نفسي في المدينة الملونة من جديد، إذ

كان الوقت مساء رائقاً، فبدت الشمس غافية نصف إغفاءة، وهي ترعى شؤون المدينة الملونة التي بدت مغرورة بسحرٍ يتقاطر من كائناتها وأشيائها. انتشرت في سمائها طيور تبدد العتمة بمصابيح ملونة تطل من صدورها. طيور بأجنحة غزيرة الريش وطويلة جداً، لها صدور واسعة تحلق بخفة، وهي تتوزع في السماء بانتظام، وتحمل على كاهل تحليقاتها الواسعة توزيع الضوء الذي يتساقط على بدن المدينة وكائناتها فتبدو الأشياء، ساحرة كأنها ولدت للتو بدافع تلك الطزاجة التي تهاجم حواس ناظرها في مدينة بدت في ذلك المساء كسيمفونية حالمة، قبالة طيورٍ تحبب قاطني المدينة بفكرة الليل، الذي يعقد مع النهار صداقة واضحة.

كان قاطنو المدينة الملونة يهبطون من السماء تارة، ويصعدون لها تارة أخرى. عندما كنت أتأهب لفكرة التحليق التي كانت تستهويني بشغف كبير. قبل أن أقفز تلك القفزة، سمعت أصواتاً من حديقة مجاورة للرصيف الهلامي الذي هبطت عليه. قفزت قفزات خفيفة، جعلتني أسترق النظر عبر الأشجار التي تصطف بجانب بعضها البعض، تصغي السمع لمسرحية تعرض على ظهر غيمة هبطت من السماء، كأنها مسرح فسيح. للمرة الثانية في تلك المدينة ، يصيبني الذهول جراء مواجهتي لتلك الأشياء التي تبدو خارج سياق عقلي البشري المهموم بأشياء كثيرة. أفسحت لي شجرة تفاح كانت مستغرقة بتأمل ما يجري على ذلك المسرح، ثم عبرت إلى الداخل حيث ضج المكان الفسيح بروّاده من الشجر، والطيور، والحيوانات الغريبة، والآدميين الذين يتأملون ما يحدث بكل استمتاع ودهشة واضحين. شهدت هناك المشهد الأخير.

أربعة ممثلين يقومون بلعب أدوارهم على ظهر تلك الغيمة التي صارت مسرحاً متحركاً. الماء يتخذ هيئة غزالة رشيقة تقفز بخفة ساحرة، ورجل بشعر طويل وملامح بدائية كما لو أنه أول الخلق، وامرأة عارية بشعر طويل ونظرات واسعة مليئة بحزن خفي يتقاطع مع دهشة واضحة. إضافة إلى التراب وهو يخفق على ظهر الغيمة كخفق الذهب تحت الشمس، بلمعانه المعهود.

كان الماء يتقافز على مسرح الغيمة، وتجيء الموسيقى التي تعزفها تلك المرأة من غيمة في السماء، حانية تمنح المشهد إطاراً درامياً يعزز الفكرة. بينما الماء يغني سارداً انتصاره على اليباب، بكلمات تؤرخ للحياة، صادفه الرجل ذو الملامح البدائية، الذي ما إن احتك به الماء حتى توهج، وتوهجت معه المرأة التي تحلق في سماء المسرح الغيميّ فاردة ذراعيها، والمتفرجون يرددون كلماتها التي تحفز على الحياة، في الوقت الذي نهض التراب من مرقده على ظهر الغيمة معانقاً الماء في مشهد تعالت فيه تصفيقات المتفرجين، حتى الأشجار كانت تصفق بأغصانها وسيقانها. فخيل لي أنني انضممت إلى المشهد الأخير من تلك المسرحية.

عندما خرجت من تلك الحديقة، هبط رجل من تحليقة واسعة في سماء المدينة، وهو يمسك بنجمة صغيرة معلقة على غصن شجرة نائمة، ووضعها على قلبه مبدياً عدداً من ارتعاشات اللذة، ثم أعادها إلى مكانها بعد أن ازداد توهجاً. كنت ساهماً به حين اقترب مني، وكأنه يدرك ذهولي مما رأيت:

- كنت مثلك غريباً عن هذه المدينة. لكن ما إن تختطفك تلك المرأة التي تعزف موسيقاها هناك على تلك الغيمة، التي تحوم في سماء المدينة، حتى تتخلص من غربتك.

كان قد تأهب للقفز نحو السماء قبل أن أسأله:

- أراك تضع هذه النجمة على قلبك.

ابتسم وهو يضع يده المتوهجة على كتفي:

- لأن القلب هو نبع الحياة الدافق.

قلت:

- وهو الأرض التي تستقبل هطل الوجع أيضاً.

قال وهو يمسح بيده على جبيني المتعب.

- الوجع نتاج للأسئلة. لكن الحياة نتاج الأسئلة أيضاً.

- أنتم هنا بلا وجع.

قال وهو يشير إلى السماء:

- ما دامت تلك المرأة تعزف تلك الموسيقى باستمرارها الأبدي. لن يعبر الوجع باب هذه المدينة.

راقبت المرأة التي تعزف موسيقاها بكل لذة، ثم تساءلت بدهشة:

- ولماذا النجمة؟

في تلك الأثناء رأيت النجمة تهتز على غصن الشجرة لتقترب مني:

- لأن النجوم وحدها القادرة على أن تجعلك تحلم بالبعيد.

تساءلت مرة أخرى:

- إذن، أنتم تحلمون مثلنا؟

- إن توقف الحلم، لن ترى تلك الألوان في هذه المدينة.

قال الرجل مبتسماً، وهو يتأهب للقفز:

- لهذا السبب كانوا يخيفوننا من انتشار الثآليل ونحن نعد النجوم على محمل الأحلام في السماء قبل أن تختطفنا تلك المرأة.

قال ذلك، وقام بقفزة طويلة، فحلق في السماء إلى أن أختفى. فتبعته بوثبة واسعة إذ حلقت في السماء قريباً من تلك المرأة التي تجلس في حضن الغيمة، وقد أنيرت في ذلك المساء بألوان زاهية. كانت الموسيقى التي تنبع من آلة موسيقية غريبة تعزف عليها المرأة، تشبه كائنات صغيرة كالفراشات ما إن تتطاير من جسد الآلة حتى تتوزع في الهواء ثم تنتشر باتجاه المنازل التي كانت تتنفس، بفعل أصلها الشجري، كصدر لآدمي نائم. فبدت تلك الترتيلات كما أنها طاقة تستهدف المدينة بأكملها. طاقة حتى الشجر، والطير، والتراب يقفون أمام رشقاتها محتفين بكل تلك الارتعاشات التي تدل على أن كهرباء ما، غير الكهرباء التي نعرفها تسري في مسامات الأشياء، وتحيلها إلى حقيقة يمكنها أن تبقى كقلب لا تخطىء نبضاته، وهي تنبض في جسد فتي، وقوي.

- ألا تتعبين من عزفك المتواصل؟

قلت ذلك، وأنا أحوم حولها بكل رشاقة طالما رأيتها في مناماتي، تماماً بخفة الفراشات اللائي يحمن حول الضوء. لكن المرأة كانت مستغرقة في عزفها الرشيق، فلم تجبني. كررت تساؤلي بشيء من القلق:

- أنت أيتها المرأة أجيبيني.

كانت ما تزال تعزف موسيقاها العجيبة عندما أجابت:

- وهل يتعب من يبتكر الحياة أيها الغريب؟

- يتعب، بالطبع.

ضحكت،وهي تنشط بوتيرة عالية من الموسيقى، فأنتشرت تلك الكائنات الساحرة التي تفر من جسد الآلة أكثر فأكثر، ثم قالت:

- أنت تقول ذلك لأنك ما زلت مهموماً باغترابك الذي جاء بك إلى هنا.

قلت بعد أن صعدت عالياً في الهواء، أحتفي بانتشاء القدرة على التحليق:

- لكن ها أنا أحلّق. أترين؟

أطلقت ضحكة خفيفة، كإيقاع مناسب لتلك الموسيقى التي تهطلها على الكائنات ثم سرحت بصرها عميقاً في المدينة:

– التحليق وحده ليس كافياً لتسقط عن جبينك تلك العبارة التي تقول بأنك غريب عن مدينة لا تحتفي بالغرباء سوى أياماً معدودة.

فوجئت بها قالت:

– ألم يخبروك أنك ستبقى هنا لأيام معدودة ؟

قالت ذلك، ثم استفاضت بموسيقاها التي بدت حانية أكثر. ففردت ذراعيّ، كما تفعل الطيور وهي ساكنة في الهواء عند نقطة واحدة:

– الموسيقى؟

– الموسيقى ضوء الكون. وهذه مدينة تكره العتمة.

قالت ذلك واستمرت في عزفها. وبقيتُ أحلق في سماء المدينة الملونة الغارقة في لذاذاتها الكونية.

* * *

نهنهات متتالية

أينكِ يا سعاد؟

ألم تصلك إشارات قلبي لتنبئك بأني اشتقت إليك إلى حدّ التماهي بالريح، كأنني غبار يتطاير في بهو الهواء؟

إشارة الإنترنت في حاسوبي قوية، لكنك لست هنا. غيابك يذبحني ويقصم ظهر القلب. هاتفي يخلو من «الرصيد» تلك الطاقة الإلكترونية التي يمكنني أن أرسل عبر مجازها رسالة قصيرة لك، وتسرد ما يحدث لي. إنه زمن «العولمة» التي هتكت بكارة كل شيء، وهي تمكنك من امتلاك أي شيء حديث؛ السيارة، الهاتف النقال، الحاسوب، الستالايت، لكنها تبقيك فقيراً في اللحظة نفسها. وحبيس دائرة لا يبقى فيها سوى مَن هم وقود نار أشعلها أرباب المال.

في هذا اليوم الذي جئت فيه للجبل طريد وحوش الغياب، دبّ الليل في الطرقات بكل نهم، ربما بفعل طقس أواخر الشتاء التي تجيء حيرى، وهي تلملم حقائبها للرحيل. فبدت الأشياء متلفعة برداء موحش. وصارت الكائنات مقصداً لفرشاة الوحشة. في الوحشة تصير الحبيبة حاجة مُلّحة ربما تعادل حالة الاشتهاء. البارحة اشتهيتك أكثر مما يمكنني أن أصف شكل شبقي. قلت لطيفك قبل أن أغادر للنوم «أرأيتِ كم أنا مجنون»؟، وضحكت بملء فمي،

ضحكةً تخفي عويلاً متقطعاً. وأخذت أردد بصمت، كأني أحاول أن أرتب فوضاي:

- وأنت توغل في الحبّ تذَّكر أي الأبواب عبرتْ. تذكّر جيداً، أو توقف، ثم التفت، وامنح ذاكرتك فرصة أن تتشبع بتفاصيل المشهد الطريّ، أفعل كل هذه الأشياء، ربما وأنت تتعمق في طريقك تُفاجَأ بنهاية مسدودة. حينها يتوجب عليك العودة سريعاً كي لا تقع رهينة للتيه. لذلك تذَكّر أي الأبواب عبرت.

في الطريق من مقر عملي إلى البيت، ذلك المسار الروتيني اليومي، أبدو كالجمادات ملتهياً بصمتي، مقابل غيابك الحارق. وعبر تلك الوحشة التي كانت وحشةٍ تولد حتى من الصخب، كنت أفكر بك. التفكير بك هو الشيء الوحيد المتبقي لدي، والذي يشبه قطرات ماء تهبط كل ساعة في فم رجل أغشي عليه من فرط العطش في صحراء لا تمنح إلا الجفاف. وكنت أفكر بي وأحدّث نفسي:

أيها المجنون أنت تحب بكل حواسك البدوية، كأنك على رأس جبل تضع كف يدك على حافة حاجبيك، وتمنح كل بصرك للبعيد الذي ربما لن يؤتي شيئاً. وحين تفقد الأمل، تهبط طريقك، وأنت تحس بزيغ البصر.

يا إلهي، هل يمكنني أن أسمي هذا النوع من الحب (حباً طائياً)؟ إذ لم يفكر «حاتم الطائي» عندما ذبح فرسه لضيفه، بشكل اليوم القادم؟ لقد كان أسير لذةٍ سريةٍ تفوق كل أشكال الخسارات. فكان يحس بأن ثمة مدائن مشتعلة بالبهجة، شيدت من معادن ثمينة

لا يراها إلا من يعطي دون مقابل. ليس هناك مقابل إزاء هذا السخاء الذي أغدقه على قلبي عبر انصياع غير مسبوق؛ انصياع حتى لعطرٍ يشبه عطرك، أشمّه يفوح حتى من امرأة تمر قربي ثم تعبر الشارع، فأصبح كالممسوس أتبعك عبر وهج الذاكرة الذي أشعله عطر فاح من قميص امرأة لا أعرفها.

* * *

نفد الحطب وخبت النار. فخرجت من الملاذ، أفتش عن حطب ناشف لم يطله الماء. صعدتُ كتف الجبل، أتلمس خُطاي في العتمة، وصوت «بوتشيللي» يلاحقني من فم المسجلة، وهو يمتطي هبّات الرياح التي تتدفق بعنف، كولد يمسك بثوب أمه. ثمة أشجار يبس بعض أطرافها علي أن أصلها، كي أستزيد من مؤونة الدفء في ليلة مجنونة حدّ حزن الوحشة ذاته.

من الجهة الغربية التي بانت من سوادها أضواء فلسطين، ركض البرق فجأة كمهر أسطوري ثم دوى الرعد، مانحاً أصداءه حتى لمسمع الصمت، فأجفل الكائنات. ثم ما هي إلا لحظات حتى بترت يدٌ ما بطن السماء لينهمر مطر غزير كأنه ضباب تصعب عبره الرؤية، راح صوته يتصاعد تدريجياً، فمنح اللحظة إيقاعاً من رعب جديد. صارت خطواتي أكثر تشتتاً بفعل العشب الذي صار جاهزاً للإنزلاقات. البرق والرعد يتتابعان، وهما يمهران الإضاءة بالصدى. ثمة رغبة اعترتني لأتحرر مني في تلك اللحظة. حشرت الحطب الذي كنت قد جمعته في مخبأ صخري. وصعدتُ إلى صخرة

تنتصب في امتداد الليل كرجل طويل القامة. أخذ المطر يصفعني مرة أخرى، ويصفع الأشياء من حولي دون هوادة. بينما يشق البرق بطن السماء لينثال المطر بعد صوت الرعد الذي يقفز في المدى كممسوس نهرته يد خفية.

رفعت رأسي تحت الماء، وفتحت فمي، ومن وراء البرق ودوي الرعد جاءت أغنية تسرد سيرة رجل يقتله العطش، وجوح الذئب يتصاعد مع خط الريح والمطر. استعادت ذاكرتي في تلك اللحظة صورة لم تفارق مخيلتي قط. إنها صورتي، طفلاً يركض تحت المزاريب في بيت جدي، يوم كان يؤثث حياتي بحضوره النادر، كحضور الضوء في طرق معتمة. كنت أرفع رأسي عالياً وأمد ذراعي في الهواء. الهواء الذي بدا ككرنفال صاخب. وكان طيفك يا سعاد معي . رحت أسائل الريح والمطر والرعد والبروق، بصمت:

«أينكِ؟ أيتها المرأة التي بقدر ما منحتني حبّاً، منحتني تساؤلات، وكمّاً هائلاً من المتناقضات. تركت البلاد ترقد في منتصف نار يشعلها أرباب المال والسياسة، بينما أهلها يشتهون الحرية، إكسيراً يبدد شبح التعب. هل قلت لك أنني طلقت السياسة، بعد خروجي من المعتقل؟ عندما اكتشفت أن البداية خاطئة، وأن الحزب الذي ينادي بالديمقراطية لا يفهم معنى أن تكون ديمقراطياً. وأن نصفه «مخبرين»، ونصفه الآخر انطلت عليهم الخدعة. فما معنى أن تكون في حزب تعمل لأجله الكثير، في حين يظهر قادته وجهاً غير الذي يضمرونه، ينادون بحقوق الطبقة المسحوقة، وهم يتلقون الهبات سراً، وينامون في أسرة وثيرة، ويشتمون أعداء تلك الطبقة في عقر دارهم.

قال لي رداد بعد زمن من الصداقة التي كانت كجدار استنادي يحميني من كل سيول الحياة الجارفة:

(أنت تعوّل كثيراً على أشياء تحدث لك، وأنت تنظر إليها عبر منظار المرابح فقط، دون أن تنظر ولو لمرة واحدة عبر منظار يريك شكل الخسارات. عليك أن تتوقع الفشل قبل النجاح. لا تختبر قدرتك على الاستمرار فقط؛ كي لا تصاب بخيبة تقصم ظهر روحك، وتنهش لحم فؤادك عندما تكتشف أنك غير قادر على المشي قدماً ولو لخطوة واحدة. تعبث الخيبة بالخطوات التي يجب أن تبقى محتفظة بحيويتها على الدرب. بل تقتلها ببشاعة)

عندما صدمت بالحزب، الذي كنت منذ سن المراهقة المليء بالأمنيات، أحلم بالانضمام لصفوفه، كان رداد بجانبي يخفف من وطأة الحزن الذي يسلب مني الكثير، الكثير من الإقبال على الحياة. مع أنه نصحني بأن لا أعوّل على كثير من الأشياء التي تحدث لي. بعد أن طلقت الحزب ثلاثاً، أدركت أننا قوم ذكوريون في كل شيء. في البال حزن كبير لأحباب تركوني وحيداً، وجلسوا في شرفات الموت. نحن نتسلى بالذكرى. لكن الحقيقة أن الذي يموت يذهب إلى غير رجعة، حتى المنامات التي نجتهد بتأويلها ما هي إلا حالات من صنع وعينا لا غير.

لكن رداداً لم يقل لي أنه على دراية بتفاصيل كل ما حدث لي. لم يقل أنه متآمر معكِ -دون أن يقصد- على ترميم وجه التلفيق الذي اقترفته يداك. كم من الوقت أمضيتما وأنتما تتحدثان في مقهى (البيغال) الفرنسي عني، بينما صوت (إديث باف) من خلفكما يغني

للحب. الحب الذي منحتنني بسببه السجن، وجئتِ بعده تمنحين الحياة، ثم غبت كأنك لم تكونين!

* * *

عدت إلى مكاني ثم أشعلت النار من جديد، فعاد الدفء الذي افتقده جسدي وأنا أقف أمام مطر سمع مني ما أوجعه فازداد هطلاً، أشعلت سيجارة ورحت أتأمل ما يحدث لي وأنا أدرك أنني عندما توجهت للجبل، كنت أعتقد أنني تركتني ورائي في غرفتي التي بتّ سجينها، عبر عزلة أنجبت عزلات أخرى جديدة. حيث تصبح الحياة محض سجن كبير، وأنت تتلقف الخسارات تلو الخسارات. تلك العشرين عاماً التي مهدت الطريق لشيب نما في شعر الروح. تلك السنين التي أعقبت زمن المعتقل الصحراوي، لتكتشف أن الاستنساخ ليس مقتصراً على نعجة (دولّي) ، بل يمتد إلى استنساخ معنويّ كالذي يحدث لي، وهو يصيبني بنوع متفرد من القهر. وسجن سعاد الذي منحته لي دون مقدمات. ومنذ غابت فجأة رحت أشهد صراعاً موجعاً بين عقلي ضحية تناقضاتها وتساؤلاتي، وبين قلبي الحالم المضمخ بكل تفاصيلها، وبكل ذكرياتنا في سرير اللغة، ثم في سرير وثير انزلق قرب نافذة شهدت أضواء عمان في تلك الليلة ولادة لي من جديد. فعدت طفلاً يتكور في حضنها، ويرضع نهدها، يود أن يغفو مستسلماً لمكابدات النعاس. ذلك الطفل ولد مصاباً بثقب في حقيقة ما حدث له، فلفظ أنفاسه قبل أن يدرج على قدميه، وهو يتعلم المشي كأن روحه لم تصب

بشموس الأربعين الحارقة. بعد ذلك كله أخسر أكثر حينما أقف أمام مرآة خفية في النفس، وأشحذ همتي لأتخذ طريقاً جديدة لي، تنقذني من مصير ذاهب إلى الهلاك.

تفشى البرد في رئة الجبل. هطل المطر مستمراً كأنه لم يزر الأرض منذ دهر. لا أصوات آدمية تبدد الوحشة، سوى صوت الرعد، وصوت أنين الأشجار تحت سياط الرياح العاتية، والزخات الرعدية للمطر، الذي سال في الوديان والشعاب، بشبقٍ ينبثق من بدن الطبيعة في طقس كهذا الطقس.

اضطجعت مسنداً رأسي على كف يدي قبالة المدخل، دون أنيس سوى طيفها، والنار، وصوت بوتشيللي الذي يمسح قلبي بزيت الموسيقى الحاني. ثمة خيالات أتت من الذاكرة للعربة، وهي تقلني لعمان يوم خروجي من المعتقل، ما لبثت أن تنامت في البال من جديد. كان السائق والجندي يدندنان بأغنية قديمة، بدفء الصوت البدوي الذي يرش لوعة الصبر، ورائحة الصحراء، والطريق طويلة لا تحتمل الصمت؛ كأنها اختبار قسري لطبيعة الإنسان.

كان صوتها يطلّ علي، كحبات عنب ناضجة، أوقدت في صدري رغبة تشبه البكاء المختلط بالغناء. اقتربت إلى النقطة التي يتسرب منها ماء الصوت، كفراشة طافت عند كوّة ضوء لعجت للتو في قبو مظلم، رحت أحشر صوتي، الضالع بحزن عتيق، في تيار صوتها لنصير جوقة واحده تدندن على امتداد الطريق.

قال السائق للجندي عندما توقفا عن الغناء، وأنا ما أزال أخضب عتمة الجزء الخلفي للعربة بصوتي:

– ألم تسمع صوته من قبل؟

– لا، لا لم أسمعه.

– سمعته ذات ليلة، عندما كانت خفارتي بالقرب من نافذة العنبر. كانت ليلة صيفية مقمرة ، تستطيع فيها أن تلتقط حبات «السبحة» إذا تناثرت منك.

كان يغني بشجن لم أعهده من قبل، كان صوته يعلو تارة وينخفض تارة أخرى، حزن عميق كان يتقاطر من كلماته، كلمات لأغنية لم أسمعها قط، ولم أفهمها، لكنها اقتلعت الدموع من مخبئها عنوة يا صديقي. بكيت في تلك الليلة بسخاء، وكم شعرت بالراحة في تلك اللحظة.

لا تقل لي إن الرجال لا يبكون. إنهم يبكون إذا ما وجدوا ما يبكيهم.

حاولت أن أغني معه، وأردد ما يقول، لكنني لم أستطع، وكأنه كان يبتدع تلك الكلمات وأنغامها في تلك اللحظة نفسها، والكلمة التي تصعد إلى النافذة لا تعاود صعودها مرة أخرى.

قال السائق بشيء من الفضول:

– أريد أن أراه.

قال الجندي بصرامة، وقد خبت الحرارة في كلماته:

– لا، لا ليس الآن، ستراه عندما نسلّمه لهم في المدينة.

تساءل السائق ساهماً:

– ألم تنتهِ مدة اعتقاله؟

قال الجندي:

– لقد انتهت، ولكنهم طلبوا رؤيته، قبل أن يرحل إلى بيته.

* * *

وحيث أنا في هذا الكهف راقبت شاشة حاسوبي. ليس هناك أي رسالة، أي حرف، أي إشارة تفيد بأن سعاد في مكان ما في هذا العالم، ويمكنها أن توقف هذا النزف الذي لن أصمد أمامه طويلاً. إنه نزف غياب تعسفي. والغياب التعسفي في الحب؛ رصاصة من النوع الحارق، الخارق، المتفجر ما إن تخترق سطح القلب، حتى تتشظى من ذاتها في عقره محدثة خراباً كارثياً يصعب علاج نتائجه.

أشعلت سيجارة، وشهقت دخانها بعمق وألم، ثم صرخت كالذئاب بأعلى صوتي:

أينكِ يا سعاد؟

ليست مصادفة يوم قلت لها، أنها بالنسبة لي كمن صادفه جذع شجرة وهو يكابد أمواج البحر وحيداً في ليلة معتمة؟ أعرف أن هذا الإحساس فيه من الأنانية الكثير الكثير. لكن هذا ما يحدث لي بالضبط. أريدها أكثر من أي وقت مضى لأنني اشتقت لي، ولداً يعرف طعم البهجة. فليس هناك أجمل من بهجة يمنحها الحب. ولا من سكين أكثر حدة من سكين المسافات، التي تقتلك وأنت تقف حائراً وفي يديّ قلبك أسئلة كثار.

تبّاً للمسافات. التي كلما توهمنا أن أفكار العالم التكنولوجي الجديد انتصرت عليها؛ اكتشفنا حقيقة كبرى أسمها الواقع الافتراضي. تماماً كأننا أمام حقيقة وهم، ووهم حقيقة.

أينكِ؟

كان لنا أن نكون كهذا الليل؛ يدثر عورة الكون،

ويسترها من فضيحة اللهاث

كنا كوكب شطرته الحقيقة؛ فصار نصفين سقطا على جبلين متباعدين

يديْ من غبار خفيف النجم

ويدكِ الهواء.

أينكِ؟

إنني متعب كنبيّ عاتب على أتباعه. مثل شجر ملّ انتظار اللقاح. مثل امرأة جفف الغياب ماء روحها فاستحالت إلى يباب.

رحت أتصفح عبر حاسوبي، رسالة كتبتها لكِ ذات ليلة، اتخذ وجع غيابها شكل شوكة في الوريد:

«ها أنا أكتب لك. سأترك الحديث عن الحياة في الزمن العربي، تلك الحياة التي تطحنني منذ شروق شمسها حتى الإغفاءة. سأكتب. المهم أن أتحدث ،أليكِ هاتفي مستلق على الأريكة كجسد بلا روح، كتب تطل علي من وراء زجاج مكتبتي لم أقرأها للآن. التلفاز يعرض بصمت صوراً للخراب في البلاد العربية. الستارة

تهتز بفعل نسمة هواء خفيفة تجيء من وراء الجبال. وأنا ممدد على طرف الأريكة كأي شيء مهمل في هذه الحياة. فكرت أن أقرأ. بالمناسبة، هل قلت لك أن رغبتي في القراءة تتناقص ؟. لا أدري لماذا.؟ ربما لإحساسي بطغيان لون الدم ورائحته على لون الحبر ورائحته. أو لتراجع إيقاع الحب من شرفة الكون لصالح نزعات ليست إنسانية. ها أنا أتشعب في الكلام. أستلقي على ظهري، وأراقب السقف، أتذكر كلماتك، وأصفها على طاولة توقي إليك، وأتفقدها واحدة، واحدة. يصيبني الحنين، ويرفع قلبي إلى حيث تطير العصافير.

هل قلت لك أنني أكره من يصيدون العصافير؟ مَن يصيدون الحرية. كتبت كثيراً عن الحرية. لكني أعيش في زمن يكتم الأنفاس. كأن جبلاً يربض على صدري.

أشعل سيجارة، أحس أنني أخونك عندما أدخن.

(حبيبي، لا تدخن كثيراً)

عبارتك هذه تخفق داخلي، فيها رائحة الحبيبة والوطن. ذات مرة تساءلت:

أيهما أقل إيلاماً لنا؛ سقوط حبيبة أم سقوط وطن؟

الحبيبة وطن. وأنت وطني الذي سأبقى أقاتل لأجل تحريره، هذا الوطن الغائب فيما وراء برد المسافات وصقيعها، أحس بأن السقف سيسقط علي، ربما لأنني أعاقر الهذيان. عمل كثير متراكم أمامي. ليس بي رغبة للعمل. أشتاق لك، أشتهيك، أريدك بلا

حدود. وأعرف أنني رجل يمزقه الوقت. سبب بسيط هو الذي حال بيني وبينك هذا اليوم وتلك الأيام الفائتة. ليست هذه الدنيا بكل ما فيها من سلبيات. إنما هذا الهاتف اللعين الذي فارقته روح اعتادت أن تشيع كلماتي إليكِ.

* * *

ازداد هطل المطر، مصحوباً بإيقاع ينهر كبد الحنين. المياه تسيل من كتف الجبل، محدثة هديراً للحصى والحجارة التي يجرفها الماء. احتميت بالتعرج الصخري. ألقمت النار بضعة أعواد من الحطب، الذي جلبت منه الكثير. دفعت بإبريق الشاي ليقتحم النار أكثر. من حقيبتي أخرجت رغيفاً من الخبز، وبضعة أقراص من الجبن، وحبات من البندورة. حشرت حبات البندورة في مخدع النار، ووضعت الخبز على الجمر المشتعل كعيون الذئاب حين تغضب . فاحت رائحة الخبز، فصارت لذيذة وهي تختلط برائحة العشب. هاتفي صامت. ككائن أخرس. كنت أتفقد إشارة الإرسال فيه، فأجدها قوية، يمكنها استقبال مكالمة من جزر الواق الواق، التي ما عادت مثالاً على البلدان البعيدة في هذه العاصفة الإلكترونية.

وأنا أعبث بالجمرات المتقدة أمامي بعود خشبٍ أمسكه، رحت أناجيكِ:

أينك؟

ولا شيء يأتي سوى صدى لصوت غريب عني في شرفة الجبل، وهو يتقافز بين الصخور:

أينك؟

وضعت على كتفي بطانية تحمي جسدي من البرد، والدنيا تنفجر رعوداً وأمطاراً، في ليلة يكاد قلبي أن يرفع راية الاستسلام في مواجهة نبال حبك. فتحت صفحة إلكترونية في حاسوبي، ورحت أكتب:

(حينما قررت الكتابة، أدركت أن أشياء كثيرة يمكن أن تجيء بقرار الموت والحياة والرحيل والغياب... الدولة، الثورات، الحروب، الاغتيالات، الأنهار، المطر.في هذا العصر، كل تلك الاشياء تأتي بقرار. لكن الشيء الوحيد الذي يحْدث هكذا خلسة دون قرار مسبق، بلا استئذان، هو الحب، هذه المفردة التي منذ أن تخلع الشمس رداءها إلى أن تسقط في جحرها، مروراً بقطار الليل السرمديّ تطيْر في فضاءاتنا، كفراشة مهما اقتربت من كوّة الضوء تبقى عصية على الأفول.

كنت أهجس برأس الصفحة بأن لا يكابر أحد على نفسه، فليس هناك امرأة قررت أن تحب رجلاً، ولا رجل قرر أن يحب امرأة، بمحض إرادتيهما ، خصوصاً في البلاد العربية، التي تخفق كل يوم في هذا الامتحان الإنساني.

ترى هل ما نعلمه عن الإرادة حقيقي؟

وهل ما أنجزناه في حيواتنا جاء بفعل الإرادة؟

وإن كانت الإجابة نعم، إذن لماذا تتلاشى هذه القوة الأسطورية أمام هذا الذي يدعى حُباً؟

أمام هذا اللغز، هذا الذي يتبدى، راديكالياً، فضولياً، متطفلاً، يجيء دون استئذان يخلط الأوراق، يزعزع كنه اللحظات، التي كنا نعتقد أنها راسخة بثباتها الأزلي، ثائر رومانسي يجيء كيدٍ تعبر صدورنا، لا بل تخترقها بكل عزم، تقتحم القلب، تعصره، تعصره، تعصره، ثم ترفعه بكل قسوة منمقة أمام برق بحجم الكون، يمنحه شحنته الكهربائية المصحوبة بتفتق عتيق، ثم تهوي به مرة واحدة، ليصير كطفل مصاب بدوارٍ لذيذٍ مؤلم، دوار ساديّ كالشّعرِ، كالروحِ، كالحداثةِ، ليس له تعريف.

سدّوا آذانكم عن ضجيج هؤلاء الذين لا يتوقفون عن تعريفه. من يعرّف الحب، ما هو إلا مشروع عاشق فاشل.

لا أسعى لتعريفه، فأنا أحد ضحاياه، سقطتُ صريعاً ذات حلم مفاجئ، ومن خارج تكويني كطيف ما، كريشة تسيّرها الريح، ككلمة تتطوح في شرفة الكون أكتب. أكتب، وأنا فاقد لقدرتي على اتخاذ قرار من شأنه أن يجعلني أكثر حنكة، أقل رعونة، أكثر ضحكاً أقل شهوة للريح.

كانت جارة الطفولة تضحك بملء جسدها، عندما يُبتَر شريان السماء ويهطل المطر، وأنا أبكي كطفل (أضاع الجهات وأقعى ينتحب). ينهض شوبان في ذاكرتي رشيقاً متقافزاً، ينثر موسيقاه على عتبة روحي، فيدب في أنامل لثغتي وتر الجنون، وتتمطى في نهر دمي كل أساطير أجدادي البدو، ويصير جسدي أصل الشهوة وأصل النار وأصل الكون وأصل الأصل.

من منكم جرّب أن يشهق ببكائه بينما السماء تشهق بأمطارها؟ هل تخجلون؟ هل تعتقدون أن هذا مستحيل في البلاد العربية، التي ما زالت ترى وجوه القادة ونياشينهم على سطح القمر؟

ذات يوم ماطر، كنت أقف إلى نافذة غرفتي التي خلفتها ورائي في مادبا، وكان المطر قد انهمر بغزارة، أو كما تقول جدتي البدوية بامتياز:

(كأن عرقا من السماء قد انقطع)

رأيت الشوارع تسيل سواداً، سيل جارف من الماء، يحمل على أكتافه أوساخا وعوالق شتى، رأيت البيوت، وقد عاد جزء من ألوان طلائها إليها، رأيت الأشجار خضراء، خضراء كأنها غُرست للتو. دون تردد، خلعت ملابسي، وهبطتُ درج البيت إلى الشارع عارياً على هيئتي التي شهدت صرختي الأولى. كان المطر صاحب كل امتيازات الجنون في تلك اللحظة، ويد ما كانت توزع في روحي أرغفة الحنين. رحت أرقص، وأرقص، وأرقص، كأن كل رقصات أجدادي الأولين نمَت في أوردتي مرة واحدة، أرقص وأتعربش خيوط موسيقى كانت تتهادى إلي من مكان خفي، موسيقى لها إطلالة البرق على كل القفار. لم يشاهدني أحد، ولا أدري لماذا؟ ربما لأنني حرصت على أن لا يشاهدني أحد، في تلك اللحظات.

كنت أفتح فمي محاولا أن أشهق قامةَ المطر كلها، فكرت أن أشج صدري علَّ الأمطار تفعل فعلها داخلي، لكنني هنا وعند هذه النقطة بالذات لا أملك القرار. كان من الممكن أن أغرس سكينا في

حنجرتي، وأجرؤ على الموت، لكنني كنت أخشى على قلبي حيث تختبئ حياة بأكملها هناك»

*　　*　　*

وأنا أقف عند باب الملاذ كانت السماء قد أماطت اللثام عن نوافذها، فزادت من هداياها للجبل. صار صوت الحجارة والحصى، وهي تركب صهوة الماء، الذي يتدفق من الوديان والشعاب، إيقاعاً يضبط رثم موسيقى يعزفها المطر. واستحال ارتطام حبات الماء بالعشب، إلى عزف «تشيللو»، يعرف كيف يرتب شَعر الحنين. صار مرور الماء بين أغصان الشجر، شهقة كمنجات في خاصرة «الكونشيرتو». بينما جاء تدفق الماء من جرح في الصخر، صارخاً كأنه صوت «سوبرانو»، يرتقي إلى ذروة البوح، وهو يركب صهوة النوتة. في الطبيعة موسيقى لا يمكن لأحد أن يسمعها سوى العاشق. وأنا عاشق أشعل بكهرباء القلب كل المصابيح وأقعى يخاف عتمة تغذ خطاها قادمة من البعيد.

دخلت الملاذ وجلست قرب النار التي ازدادت اشتعالاً، ثم خلعت ملابسي المبللة بالماء، وعلقتها بنتوءات الجدار. كانت الدنيا تسيل مطراً وتنفجر رعوداً، وبروقاً. وأنا الكائن الوحيد في ذلك المنعرج الصخري يلوذ بذاته التي يشتهي استردادها حول بضعة أعواد من الحطب، تتسلى ألسنة النار بيباسها. إحساس جارف باليتم اقتحم تكويني الآدمي الذي ما عاد يمتلك القدرة على استيعاب الأشياء. أردتك كما يريد الوثني إلهاً يخلصّه من ترهاتِ آلهةٍ ليست سوى أصنام لا تعرف إلا لغة الحجر.

رحت أسكب كاساً أخرى من الشاي. وأشعل سيجارة وأدخن، حارقاً مع تبغها وجعاً يتناسل من بعضه البعض. ثم أطيع إلحاح الذاكرة، وهي تجلب لي صوت حبات البرَد على جسد العربة العسكرية، تأخذني من معتقل التَهمَ عشرين عاماً من عمري. كان للبرد غبر تلك الطريق وقع مفاجأةٍ لذيذة أفاقتني من إغفاءة قصيرة، فاستقمت، وتلمست معدتي التي داهمها ألم خاطف اعتدت عليه.

كان الضجيج يرتقي الوثبات الأولى نحو صخب عمان، فأدركت أنها بداية الطريق إلى المدينة التي فارقتها منذ حلم بعيد. ضجيجها الذي أنعش صوراً قديمة غافية في ذاكرة كانت الطريق تدب في أنفاسها لوعة التذكر، لتستفيق على سنين لم تعبر خلسة. تذكرت المرة الأولى، التي ولجت بها عمّان قادماً من قرية تعيش الحالة الوسطى بين البداوة وحياة القرويين. المرة الأولى التي وطئت بها المدينة لأقدم أوراقي للجامعة.

كان يوماً صيفياً ضالعاً بحرارةٍ تنثر كراريس تعلن عن تموز بطقوسه الاستثنائية، فكانت حبات العرق الساخنة تتلعثم على وجهي الأسمر كوشم لقاطني هذه البلاد، بدت لي المدينة ككتاب مفتوح يعلن عن دروبها، ومبانيها، ومكتباتها، ومقاهيها، ونسائها اللائي أيقظن في رؤوس أصابعي، كلمات أولى لقصيدٍ مغموسٍ بفنتازيا الفؤاد، عند رجلٍ مثلي ما زالت المرأة عند وجدانه وردةً تتمايل في بستان محفوف بحراسٍ لا نراهم، لكننا نحس بسطوتهم.

أشعلت سيجارتي، واستلقيت على المقعد الخشبي الممد هو الآخر في خلفية العربة، ورحت أتذكر :

وقفت أمام امرأة بعينين تقودان إلى سحابة من حداء غجري، يمطر نشوة، تتمطى على مرأى من قامة الوقت الذي كان يمنحني مزيداً من خجل بدوي بقي يتلبسني لزمن. قدمت لها أوراقي، ورعشةٍ تتسلق شراييني تفي لرغبةٍ في كوب ماء، قالت لي بعد نظرة خاطفة:

- املأ هذه الاستمارة.

أخرجت من جيبي علبة سجائري، والتقطتُ واحدة ورحت أشعلها وأفكر!

قالت، وقد رأتني أزفر نفساً عميقاً من سيجارتي، وحالة من اللاتوازن تنوء بي:

- اهدأ قليلاً، هل لديك مشكلة ما ؟

أحجمت عن الكلام لبرهة، ثم طفت على وجهي ابتسامة عبرت طرقاً بعيدة إلى قامات الصخب:

- لو قلت لك ما يدور في خلدي الآن سأغضبك ربما.

قالت، وقد ترنحت في وجهها دفقة استرخاء:

- لا. تفضل قل ما تريد، لن أغضب منك.

ابتلعت ريقي، ثم شهقت نفساً آخر من دخان سيجارتي:

- أنا لست من هنا، أقصد، لست من هذه المدينة.

قالت:

- ألاحظ ذلك.

ثم أضفت، وقد انتشت في بدني قوة أخرى للكلام والبوح:

- أن أقف في حضرة امرأة جميلة مثلك، هذا يعني بالنسبة لي الكثير الكثير، امرأة تستوعبها أحاسيسي كجنية نزلت من لجين القمر.

ضحكت وبانت حمرة جذابة على وجنتيها:

- لا يزعجني ما قلته أبداً، هل أنت شاعر؟

أصبحت أمتلك ناصية أنفاسي:

-لا أعلم هل أنا شاعر أم لا، لكن أحاسيس من هذا القبيل، استفاقت في صدري في مدينة لم أشاهدها إلا عبر مخيلة أشعلتها الكتب وذاكرات الآخرين. لكن الشيء الذي أنا على ثقة منه الآن أني عشقت هذه المدينة منذ النظرة الأولى، هذا هو طبعنا نحن البدو. نحبُّ من النظرة الأولى.

* * *

وقف البرد بباب الملاذ، يحمل بيديه خناجرَ تلمع تحت صليات الرعد والبرق، وهو يتقدم نحوي. في وقتٍ عادت فيه قضبان السجن تملأ المكان لتحاصرني، وخلفها الجدران تصدر أصواتاً تعدني بالفناء. شعور متطرف من الاختناق كان يهاجمني، ويكاد يسرق الأوكسجين من رئتي. ضغطت زر المؤشر في الحاسوب، لتظهر النافذة المشعة فعبرت المسافات الإلكترونية، وهبطت في

المدينة الملونة. كان الوقت ما بين الظهيرة والعصاري، فبدت المدينة مكتظة بقاطنيها الممتلئين بالحياة، وهم يحلقون في سماء مدينتهم الملونة، أو يمشون على أرصفتها الهلامية التي تتبختر عليها الأشجار، والطيور، والماء في مشهد يجعل الناظر إليه ساهماً ليوم بأكمله.

حلّقتُ في الهواء بعد قفزات متتالية اعتدت عليها؛ فشاهدتُ البحر صفحة عريضة تدعوني للاقتراب. عندما هبطت على الشاطىء، رأيت امرأة تحتضن جديلة ماء كانت قد تواطأت مع سهوها. ُخّيل إليّ أن الماء كائن يمكنه أن يحس بما نضمره في القلب، كانت المرأة تحتضن تلك الجديلة كأنها تحتضن رجلاً شيد لها عمراً من الحب واللذاذات. كانت جديلة الماء تمسد شعر المرأة الذي بدا ذهبيّاً تحت أشعة الشمس، التي توشوش بكلمات شمسية على محمل الحياة، وهي تميل قليلاً في سماء المدينة.

عندما رأتني جديلة الماء متجهاً نحو المرأة، التفتت إليّ المرأة ذاتها. قالت وهي تبتسم بعد أن أطلقت سراح الماء من حضنها فعاد إلى سرير البحر:

- أصبحت تحلق جيداً أيها الغريب.

ثم أضافت، وهي تستند قليلاً من ضجعتها بتمهل أنثوي:

- التحليق هو الخطوة الأولى التي ستوصلك إلى تلك المرأة وموسيقاها الأبدية.

- وهل رأيتني قبل هذه اللحظة؟

قلت ذلك، وجلست قربها، أراقب جديلة الماء التي عادت إلى البحر، كما لو أنها كانت في مهمة ثم انتهت:

- كل أهل هذه المدينة يرونك.

قلت باستغراب:

- كلهم يرونني؟

قالت وهي ترفع رأسها نحو السماء:

- نعم كلهم يرونك، فأنت الوحيد في هذه المدينة الذي لم تختطفه بعد تلك المرأة التي لن تتوقف عن عزف موسيقاها على ظهر تلك الغيمة.

نظرت لتلك المرأة التي ما توقفت عن العزف، ثم تساءلت:

- ماذا عليّ أن أفعل لتختطفني تلك المرأة. لقد سئمت غربتي هذه.

قالت وهي تنثر شعرها الذهبي في هواء المكان:

- ثمة إشارات يجب أن تصلها من قلبك. حينها ستختطفك دون أن تعي.

- إشارات؟

- نعم إشارات.

بحنو لامست وجهي المتعب بأناملها، ثم أضافت:

- كثيرون هم الذين جاءوا إلى هذه المدينة ولم تختطفهم تلك المرأة. وكثيرون فازوا باختطافها.

لامست عيني بأصابعها:

- الإشارات برهان على رغبتك بخطوات تشتهي المضي بها.

قلت وأنا أسرد رغبتي بالحياة:

- لكنني مليء بالحلم.

قالت وهي تستلقي على الرمال:

- الحلم هو بادئة أولى، إن توقفت عندها ستبقى محض حالم، يرى الأشياء من بعيد ويكتفي بوصفها.

خرجت موجة في تلك اللحظة من عرض البحر، وعبر الرمال التي بدت بلون وردي، اقتربت مني متخذة شكل طائر يتأهب للتحليق:

- لا يمكن لتلك المرأة أن تختطفك دون أن تستفيض بالتحليق حولها أيها الغريب.

قالت ذلك، وانسابت إلى حضن البحر، الذي يرتب أثاثه لاستقبال الصيادين ليوم آخر.

من جهة السماء، جنح طائر كبير في الهواء، ثم هوى حيثما أجلس يرفرف بأجنحتة الكبيرة ثم قال:

- الحلم بالأشياء فقط ليس كافياً لتنتزع ما تريده في هذه المدينة.

ثمة صوت عرفت فيما بعد أنه صوت الهواء كان يطوف بي وهو يردد:

- الغربة الأبدية دلالة على هشاشتك أنت. لا على أن تلك المرأة التي تعزف موسيقاها لم تخترك.

بدأت الأصوات تهاجمني من كل حدب وصوب، وهي تحثني على قتل غربتي، التي يقرأ عبارتها كل قاطني المدينة على جبيني المتعب. ربتت المرأة التي كانت تحتضن جديلة الماء على كتفي، وهي تفرك جسدها بالرمال الوردية:

- يسمح لك بدخول هذه المدينة عدة مرات. إن عدت دون أن تختطفك تلك المرأة ستبقى خاسراً طوال حياتك.

تساءلت كأن النتيجة باتت نصب عيني:

- وما الذي سوف أجنيه من اختطافها. ما دمت أحلق. وما دمت أرى هذه المدينة بكامل جمالها.

نثرت حفنة من الرمال الوردية التي راحت تتلألأ في الهواء، وهي تصدر صوتاً موسيقياً يشبه صوت الموج:

- أن تكون ما تريد. أليس هذا حرياً بأن تستجمع قواك وتنطلق؟

أخذت أراقب كل الأشياء حولي، وأنا أردد عبارتها بصوت خفيض:

- أن أكون ما أريد؟

- نعم أن تكون ما تريد.

قالت ذلك، وركضت إلى البحر، وهي تقفز قفزات بهلوانية على سطح الماء، ثم حلقت في الهواء وهي تردد:

- هيا قم وحلق حولها. ما دمت هنا بعيداً عنها؛ ستعود خاسراً لا محالة.

قفزات قصيرة أخذتني نحو السماء، حلقت بقوة تجعلني كطائر يركب الهواء ويرى الأشياء بأكملها من العلو. ويحس بأنه يمتلك تلك الريح التي تفرد له بدنها اللامتناهي ليكون منساباً دون توقف. كانت الموسيقى تجيء كسحابة بدأت تتلاشى من ذاتها، فتوزعت مساماتها في الريح لتبدو كنتف من ثلج صوفي اللثغة. كانت امرأة الغيمة وصاحبة الموسيقى، ترخي قدميها على ظهر الغيمة مستغرقة في موسيقاها التي كانت توزعها للمدينة الملونة. حلقت حولها:

- يا سيدة هذه التراتيل التي تمحق الغربة، وتعلي من شأن وهج الوجود.

قالت وهي تحس بحاجتي ليديها، تختزلان من دمي ما علق بها من قضبان الوجع:

- نعم أيها الغريب.

- جئت إليك، والقضبان تلاحقني من ذلك المعتقل الصحراوي البعيد، تضع على عاتقها مهمة سجني الأبدي.و الحبيبة التي أعتقدت أن ليديها القدرة على اختزال تلك القضبان من مداي منحتني بكل قسوة قضباناً أخرى، ورصاصة في جبين المسرات.

قالت وهي تمعن في موسيقاها:

- لكل واحد يدان فيهما السر، على أن يمحو ما يريد، ويكتب ما يريد.

قلت وقد دب بي نواح كنواح الذئب الذي بقي لعشرين عاماً يهدهد كتف القلب قبيل النوم في المعتقل:

- لكني أرى يديّ تحلقان. نعم أراهما تحلقان.

قالت وهي تمسح المدينة بنظرة واسعة من عينيها:

- اليدان اللتان ستمحوان ما تريده، وتكتبان ما تشتهيه، تستقران في قلبك. أنت تسجنهما. اطلقهما، حينها سيصير لك ما تريد.

- لكنهم كبّلوا كل شيء. ثمة أشياء في السجن كنت أحس بها تتساقط تماماً كجثة تبقى تحت الشمس دهراً، ما إن تمسها الريح حتى تتهاوى.

نشطت بموسيقاها:

- اكسر قيدهم.

- لكنها أضافت قيداً آخر؛ تلك المرأة التي وعدتني بالحياة، ثم اختفت كأنها لم تجيء.

قالت وهي ترمقني بنظرة قاسية:

- اكسره ما دمت تراه قيداً.

حلقت عالياً في الهواء، ارتقي المسافات، التي كلما ذهبت عبرها إلى الأعالي، بدت لي المدينة الملونة أصغر، وأصغر. بقيت

أصعد حتى بدأت أسناني تصطك لشدة البرد. إلى أن أخذت أهوي وذاكرتي تشرع أبوابها لكل شيء، فرأيت حياتي تتناثر في الهواء كتراب تذروه الرياح، بينما الموسيقى التي تعزفها تلك المرأة تجيء على شكل طيور ضخمة تقترب من صدري، وترشقني بماء بارد يصيبني بالرعاش. وأنا أهوي كنيزك سقط من مستقره، راحت الغيمة التي تجلس عليها العازفة تنفتح، فصارت كما لو أنها بوابة لجهة ما. كانت العازفة تقف على ظهر الغيمة تترك آلتها الموسيقية تعزف من تلقاء نفسها مزاجاً موسيقياً غريباً لم أسمعه منذ أن جئت هذه المدينة، وترفع يديها كأنها تود أن تحضن الرياح التي هبت بجنون مفرط في تلك اللحظة، وشعرها تناثر مع الرياح، ثم أنساب مرتفعاً فوق المدينة كأنه مظلة بحجمها. تجمع قاطنو المدينة وأشجارها وحيواناتها، وماؤها وهم يرفعون أياديهم في الهواء، يطلقون من حناجرهم رثماً موسيقياً واحداً بمعيتها، بينما كنت أهوي، وأهوي إلى أن ابتلعتني الغيمة.

الذئب ورذاذ الحنين

«إذا كان عليّ أن أصرخ مع الذئاب، فإنني سأفعل، ومن حين لآخر سيقول لي الذئب: «أنت تصرخ أفضل منا نحن الذئاب»

فريدريك نيتشه

عواء متقطع لقلب قبالة

كونشيرتو المطر

أمعنت الرياح في عويلها الموحش، تنثر في هواء الجبل المستسلم لهوس الطبيعة بالخروج على السكوت، بيانات الصقيع الحادة. يتسلل جزء منها عبر بوابة الملاذ، الذي نحتته يد الطبيعة بالصدفة، في صدر الجبل المشرع لمدى واسع، حفل في تلك الليلة بشتاء مجنون.

إنها رياح الثلج الذي لا يأتي فجأة. بل يرسل، وهو يعقد مع الكائنات اتفاقاً مسبقاً، مكاتيب البرودة، تنذر بتجمد حبات الماء التي تلفظها غيوم، تكابد المسافات. بدأ البرد يتسلل تحت جلدي، ويثير بي قشعريرة كتلك التي تخالج قلبي في غيابكِ.

هل كنت بحاجة لبرد آخر غير الذي عانيته طيلة عمري؟

تعالي إذن، وخذيني بحضنك مرة أخرى، وامنحي جسدي الدفء ليعيد لأطراف الروح التي تيبست شيئاً من نتف الحياة.

أي حياة تلك التي ستحدث لي خارج فضاء عطرك المموسق الذي يأخذني من ياقة روحي نحو جهة صالحة للتحليق، كلذة سرية تسح على غشاء القلب، كسعادة الشاعر بقصيدة استراحت بحضن الورقة قرب رأسه، وهو يخنس في سرير نومة عميقة حد الموت اللذيذ.

أي حياة سوف تسندني بعيداً عن كركراتك الضحاكة، ونحن نترك طاولة المقهى الخشبية، التي اشتاقت لأصول شجرية في التمايل على إيقاع الوله. أي حياة يا حبيبتي دون رأسي وهو يستريح على صدرك، وأناملك تمسد رأسي، وأنت تحدثينني عن الموسيقى التي تسري عبر وريدك كالدم دون توقف. أي حياة أيتها الغائبة المخلفة وراءها حزناً يشبه حزن فقد الأمهات، اللواتي غزلن لنا من شموس الصباحات قمصاناً، ونسين أن أجسادنا بقيت عارية تحت رحمة الصقيع، وهن في سماوات بعيدة ليس لها طريق للعودة.

قاس غيابكِ، إلى درجة أتفصد فيها من ذاتي ككرة زجاجية تسقط على أرض صلبة. قاس إلى درجة خسرت فيها كل أسلحتي التي أدافع بها عن حقي في حياة ليس من السهل عيشها.

قاس غيابك الذي يجعلني صريع احتمالات لا أملك من حقائقها أي شيء.

هل ما حدث بيننا هو حب مع سبق الإصرار والترصد؟ أم كان شبهة جنائية؟

أتتني إشارات الإعجاب على صفحة الفيس بوك منكِ ، بكلماتٍ ما كانت تعبر عن حياتي، كما كانت تعبر عن حلمي بالحياة. عبارات الإعجاب الخاطفة التي تكون عادة مشفوعة بابتسامة إلكترونية، تشير إلى بهجة تحدث لك، وأنت على بعد محيطات مني وصحارٍ شاسعة. ثم الرسالة الأولى، التي أوصلتني إلى كل ذلك الحب بحلوه ومره.

حدث كل ذلك لي دون أن أعي أن ما جرى كان مبيتاً؟ وكان رداد شعرةً تصل ما بين حجرين في سماء بلا جاذبية. لو انقطعت تلك الشعرة لما التقينا يا سعاد.

هل أناديكِ سعاد، أم سحابة؟

أو ربما علي أن أفتش عن اسم ثالث يحمل جانباً من الحقيقة التي أنهكت دماغي وأنا أفتش عنها.

أي امرأة فيك التقى بها رداد في ذلك المقهى الباريسي، ذات سفر له، وسفر لك؟

هل كان يعي أنه يتحدث لسحابة، تلك المرأة التي ذهبت بمحض ندمها نحو عشرين عاماً في سجن رجل يفهم جيداً لذة التملك؟

كان عليك أن تختصري كل ما حدث في عبارة واحدة. كأن تقولي:

(لأني أحببتك بعمق فعلت، ما فعلته بعمق) أو تقولي (لأنني أحببتك بجنون، فعلت ما فعلته بجنون)

وها أنت تغيبين، كأنك لم تكوني هنا، تاركة لي أسئلة تنخر عظام مخيلةٍ ما عادت قادرة على فعل شيء.

هل تجمدت الكلمات بفمك إلى درجة ما عدت قادرة فيها على البوح إلا في اللحظات الأخيرة؟

أم أن ما جاء بك من جديد محض احساس خالص بالشفقة؟ ومجرد من أي حب توهمته؟ فاستشاطت بك الشفقة أكثر وأنت

تريني أتعلق بك كما يتعلق طفل بثوب أمه، فعدت أدراجك لا تلوي إلا على قرار يجنبني وجعاً إضافياً!

هل يحدث أن تحب امرأة رجلاً كي تنسى رجلاً آخر؟ أو ربما تنسى الرجل نفسه عندما تحبه من جديد. هل يحدث أن تحب امرأة الحبيب ذاته كي تشفى من إساءاته القديمة؟ هل يمكن لامرأة أن تقسّم قلبها كرغيف خبز بين رجلين؛ واحد اتخذ طريقاً نحو ضباب الغياب بعد حب طويل كليالي الشتاء، وآخر حصد بيديه حقول الشوك من طريق قلبها كلحظات الفرح الخاطفة؟

الغياب لوثة تترك كل التفاصيل أمامي؛ كتاباتك، سفراتك، غياباتك المتكررة، اعتذاراتك المفاجئة عن موعد لقاء. تناقضاتك. الغياب لوثة يمكنها حتى أن تصنع الشك الذي لا يخلق سوى الخراب.

❊ ❊ ❊

اشتد هطل المطر أكثر من ذي قبل، فرحت أسمع صوت تكسر أغصان الشجر، وصفير الريح، وهدير الماء، وهو يجرف كل شيء معه عبر المنحدرات، والوديان، والشقوق الترابية التي أثثت نيبو. خفت أن يداهمني السيل، فيأخذني للأسفل، حيث ينحدر الماء إلى البحر الميت، عبر شبكة الوديان التي تلتقي في مكان قريب من شاطىء البحر. كان من الممكن أن أتراخى عن حذري من أن يأخذني السيل معه إلى حيث تصير الأتربة، والحصى، والحجارة، والشوك، شيئاً واحداً في خضم الهدير؛ لكن ليس إلى بحرٍ ميت، يخلو حتى من سمكة واحدة يمكنها أن تستفيد من جسدي.

خارج الملاذ وجدت حجراً بحواف حادة، فحفرت قناة؛ لتأخذ الماء بعيداً عنه. حول القناة رصفتُ حجارة لتكوّن جداراً من سلسة صخور. شعرت بشيء يئن في الداخل، وأنا أعود إلى ملاذي، لكن لسعات البرد التي داهمت جسدي، المبلل ، أشغلتني عن التفتيش عن مصدر ذلك الأنين. في الداخل خلعت ملابسي لأجففها، ونشرتها على الجدران.

ارتفعت وتيرة الأنين، فإذا بي بمعية ذئب يرتعش برداً ويقطر ماءً؛ ذئب بملامح كسيرة مثلي. في ضوء ألسنة النار بدت ملامحه أكثر وضوحاً، وأنا أداري خوفي الذي راح يتلاشى بخفة. شعرتُ بألفة غريبة نحو ذلك الذئب منذ الوهلة الأولى فاتكأت إلى الجدار، وأغمضت عينيّ؛ لينداح من الذاكرة ذلك العواء الذي بقي على مدار عشرين عاماً في الصحراء يداهمني كصلاة مجوسية، في عنبر يضم عدداً من المعتقلين. لكن ما من أحد كان يسمعه سواي. فتحت عيني، وما زال العواء يجيء من رحم الذاكرة، بينما الذئب ممدد على قوائمه قرب النار التي تلاشت ألسنتها، وما تبقى سوى دفء جمرها المتقد يبتكر لونه الأحمر. رحت أتساءل:

أتراه ذلك الذئب بعينه؟ هل يمكن للذاكرة أن تلد ما منحته المخيلة ذات يوم فيصير المتخيل واقعاً ماثلاً أمام أعيننا ولن تصدق ما تراه. أم أنه صورة للذئب العربي الأصيل الذي قرأت عنه ذات يوم، بجسده النحيل وأذنيه الكبيرتين، أتراه هو الذي يتمدد أمامي، وتنعكس في صفرة عينيه ألسنة النار الحمراء فتبدو بلون آخر.

كان جاثماً قرب النار التي انعكست ألسنتها في عينيه المقوستين، ثم انسحبت إلى شعره الغزير، الذي كسا بدناً ارتاح على

قائمتين مَدّهما أمامه وأراح باقي بدنه على قوائمه الخلفية. بقيت لبرهة أقف متكئاً إلى الجدار، والدنيا في الخارج تقوم وتقعد مطراً، ورعوداً، وبروقاً، بينما «بوتشيللي» يخضب اللحظة بصوته، وإبريق الشاي الذي جثا هو الآخر على طرف النار، يُحدث طقطقة وبخاراً مطعماً برائحة الميرمية.

تفكرتُ في أمرِ هذا الذئبِ وما له في مخيلاتنا المشحونة بحكاياه المخيفة، هل أرى فيه اسماً مليئاً بالكبرياء أطلقه العرب على الرجل ذي البأس والقوة؟ أم عدوّاً للقطعان ورمز التعطش للدماء، أم أراه أنموذجاً للغدر والشراسة؟ أو ربما باعتباره رمز الشّيطان والشّر في مخطوطات العهد الجديد؟ أو عنصراً محارباً قورن بقبيلة «بينامين» لطبيعتها المحبة للحرب؟

كنت أنظر إليه فحسب، دون أن أتقاطع مع ما قرأته عنه، وكنت أفكر بحزن يتصاعد من غور البال:

«ما الفارق بيني وبين هذا الذئب في هذه الليلة التي تسيل ظلاماً سخياً.

هربتُ أنا من ظلمةِ معتقلٍ ما زالت تهجم على روحي ، ومن غياب سعاد الذي عاث بي وجعاً يصعب الخلاص منه. ويهرب هو من ظلمة معتقلٍ أكبر. فالصحراء تغدو سجناً كبيراً حين يخرج الذئب على القطيع، ويصبح منبوذاً، يحوم الصحراء وحيداً، دون أي معنى للحرية التي خرج على قطيعه من أجلها. أية طرائد نحن. وأي خاسرين»

اقتربت منه أكثر أحدثه:

«بيني وبينكَ ملح الخديعة أيها الذئب. بيني وبينك وجع حامض كطعم الخسارات، وبيننا شوك السؤال. منذ الليلة الأولى في المعتقل الصحراوي البعيد، والتي أطبقتُ فيها جفنيّ لينداح الأسْود مجللاً حتى ذكرياتي؛ كان «جوحكَ» يعبر قضبان النافذة التي بدت كجرح غائر في الجبين.

كان «جوحك» أيها الموجوع كغيمة طردتها الأشجار؛ يمشي على غشاء القلب ككاهن مزمّل بالبياض، وبحزن النايات حينما تصير الحقيقة سمّاً يسري في الوريد. كان ذلك الجوح يمشي على غشاء القلب بخطوات متتالية بينما تسحّ في مكان قصيّ من القلب دمعات مالحة. والأماكن القصية في القلب مخابىء للوجع، مثلما هي مخابىء للمسرات. عندما مسحتُ المعتقل بنظرة أخيرة، عبر نافذة العربة العسكرية، وهي تركض نحو المدينة، كنت أصخي السمع لأنين الرياح التي جاءت سادية، أتبينك عبر ذلك الأنين. أخرجت رأسي من بين قضبان النافذة، ورحت «أعوي»، فكان صوتي والرياح تحمله كاستغاثة المسافر حينما يستغيث بالذكريات. بقيت أعوي ولم يأتني جوحك ماشياًعلى غشاء القلب كما كان يحدث عبر العشرين عام التي أهدتني حزناً حامضاً. ارتميت على مقعد خشبي مسجى في العربة العسكرية كجثة باردة، وغفوت بعد أن أطبقتُ جفنيّ، وإذا بصوت جوحك يأتيني كصوت امرأة ترثي فقيدها الذي سرقته يد الموت من حضن الحياة. ها أنت هنا مرة ثانية في «نيبو» وجهاً لوجه، ووجعاً لوجع، وكأنك تسحب اللحظة من خيالها إلى حقل الواقع .

هل تعرف يا رفيق هذه الليلة أن الواقع ما هو إلا وهم نثبط به وجع الخديعة؟

ها أنت هنا مرة ثانية. بيني وبينكَ فحوى الخديعة. وبيننا هذه النار، التي تجعل هذا الملاذ يصير مفارقة غريبة في خضم جنون الطبيعة. أتيتُ إلى هنا بعد أن رأى القلبُ وجه الحقيقة القاسي. أكلت البلاد على جثتي تفاح الغواية، وشربت زنجبيل الخسارات. دسّت الحبيبة يدها في الصدر حيث القلب الذي انتزعته وبقيت مرة تسد فوهة الوريد بإبهامها، ومرة تتركه ينزف كسماء تسيل نايات حزينة»

أهدتني تهمة أتت بعنكبوت كونية، ونسجت خيوطها في داخلي الذي طالما تمنيت بأن تسطع الشمس في جنباته. تهمة خلقت سؤالاً كان يقرع باب دماغي في كل لحظة تمضي بي في تلك الأيام، التي لم تختلف كثيراً عن زمن المعتقل.

لماذا حدث كل ماحدث؟

كان عليك يا رداد أن تخبرني بأمر من لفّق لي تلك التهمة، وأنت تعرف بشأنها الكثير مما خبأته عني زمناً.

أتيت أيها الذئب الخارج على القطيع، لتضع يد قلبك بيد قلبي لأكونكَ وتكونني. النار التي بيننا، لا تدفىء القلب. دعنا نجوح، ثمة متسع للذئاب التي تحتفي حتى بالوجع بين فكيّ المقصلة.

كانت عيناه لا تكفان عن التحديق بي، وأنا أراقبه، إلى أن اكتشفت أنني عارٍ من ملابسي، التي تركتها لتجف. لمستها بأطراف أصابعي، وجدتها قد جفت قليلاً فلبستها. كان صوت أنفاسه

واضحاً كالحقيقة، حتى أنني أكاد رغم إيقاع العاصفة المتطرف أسمع نبضات قلبه. سكبت كأساً من الشاي، وأشعلت سيجارة، ورحت أفكر، بشأن هذا الذئب، الذي يشارك آدمياً ملاذاً واحداً، وهما المتنافران دوماً، الآدمي يخاف الذئب، والذئب يخاف الآدمي، وكلاهما في لحظات معينة يصيران وحوشاً ضارية. إن ما حدث في تلك اللحظة أكثر من نزعة إنسانية، ربما علي أن أقول أكثر من نزعة حيوانية، احتراماً لنزعته وانتمائه، لأننا تشاركنا في مكان واحد، وهواء واحد، وسلام واحد، ووجع واحد.

* * *

انضم الثلجُ إلى جنود الطبيعة الليليين، الذين قرأوا في تلك الليلة صك الشتاء. ثمة عراك كان يحدث بين المطر والثلج، يذوب الثاني بسطوة الأول، ليحمم بدن الكائنات.ارتميت قرب حفرة النار، أجسر المسافة بيني وبين البرد. شعر الذئب يلامس شعر رأسي. أنفاسه التي بدت هادئة تمر قرب أذني. نبضات قلبه مسموعة أكثر من ذي قبل، وهو يراقب الصمت، الذي تؤنسه النار في ملاذ، شهد كل تلك الوحشة في ليلة، ربما هي في الأصل منام عابر، كأي حدث سريع، يأتي ليمضي.

أغمض عيني، وأوغل بالتذكر، فأراني ألج عمان، وأنا في طريق العودة من المعتقل. عمان بكل ضجيجها، وازدحامها، وأصواتها، وحركتها التي لا تهدأ. كل ذلك بدا لي في تلك اللحظة كتيار ضمَّختهُ برودة خَجولة، حين عبرَت إلى بهو أعصابي، وقد

بقيت مخيلتي منفرجة على مصراعيها كنافذة تطل على كرنفال لرياح تطوف بذاكرة ربيعية. كنت أتمتم، والصور تتوالى، وقد أصبحتْ أكثر من مجرد رتوش لأزمنة موشاة بنقش الرحيل والانكسار، حينما كانت العربة العسكرية تعبر المدينة عبر كل ذلك الزحام:

نعبر الآن الشارع الرئيسي الذي يقسم المدينة إلى نصفين. هنا إلى اليمين، يقع المقهى بكل ذاكرته العتيقة. هنا كان الأصدقاء، وهنا كانت الأحلام بكل جنونها وتعقلها. وإلى اليسار تنحني الدرب التي كانت تقودنا إلى الجامعة زمن الوعي الأول بالحياة. من هنا كان الصباح، وكان الأصدقاء، والصديقات، والصبايا اللائي طالما بقيت حقائبهن تحتفظ بالقصائد التي إلى جانب الحلم بوطن بلا سماسرة، كانت تشرح الحلم بحب كالبرق يهتك بكارة الحرمان. العربة تشق صدر هواء المدينة التي ضمتني كأم رؤوم بين ذراعيها، ولكنها سرقت مني تماسكي مرة واحدة، وكأنها كانت تود أن تقول إلى يكفي هنا!

اتخذت العربة طريقا آخر، وأنا ما أزال أتبين الطريق عبر حدوسي. كانت مخيلتي تتلقف الصور، فتستشيط عند كل صوت، وضجيج، ورائحة القهوة التي طفت فجأة على سطح دماغي، ففجرت به دوخاناً لذيذاً:

أدرك أين نحن الآن! نحن نسيرُ بالقربِ من مصنع القهوة الذي اعتدت أن أشتري القهوة منه لجدتي، وأحملها معي إلى القرية. عندما كنت أقدمها لها كانت تضج في عينيها أجمل سعادة عرفتها،

وكأنها تتلقى كنزاً لا يضاهى. كانت تتباهى وتأمرني بصوت لا يعلن سوى عن بشاشتها الكثيرة:

- صب لهم القهوة، إنها قهوة ملوكي يا ولد.

*   *   *

كان نيبو يشهق بلذعة الجنون التي يمنحها المطر عندما رحت أتناول شيئاً من طعام وضعتُ نصفاً منه أمام الذئب.

- كُلْ يا ذيب.

رمقني الذئب بكبرياء ولم يُبدِ ردة فعلٍ لحديثي فأردفت:

- كل يا ذيب، نحن أصدقاء، وشركاء في هذا المكان الذي يجمعنا وسط جنون الطبيعة، التي أغرقت الكائنات مطراً وبروقاً، ورعوداً، في هذه الليلة. لم أشأ أن أناديك بغير اسمك، أنت طريد هذه الليلة الدهماء، وأنا طريد حب شج قلبي نصفين كما يشج شهاب بطن السماء. حب بلاد عضت يد قلبي. وحب امرأة قلدتني عقداً خرزاته هي التناقضات بعينها.

تردد الذئب في إقباله على الطعام لكن جوعاً دفعه ليقترب منه ويلتقطه بأسنانه، ليلتهمه كله. كنا نراقب وجوه بعضنا ونحن نتناول وجبتنا في تلك الليلة، التي كانت الأرض فيها تتناول وجبتها من الماء، وتحك جبينها بالبروق. رحت أحدثه، وهو يقعي قرب حفرة النار، يسرح بصره عبر البوابة، المُطلّة على هطل المطر وتساقط الثلج:

(لم يعد هذا الزمن زمنك يا ذيب، ولم يعد زمناً لي أيضا! من أي صحراء أتيت؟ ومن أي زمن! كأنك خرجت للتو من (لامية العرب) التي ما زال صوت «الشنفرى» يصدح بها على مر الصحارى، التي تصير عنواناً للبلاد العربية. كأنك هربت للتو، من تلك القصيدة، التي صارت بياناً للحرية والأنفة والكبرياء والسمو. تلك القصيدة التي حَكَت عن حجم القهر، والظلم، والحرمان. أراك قادماً من صحراء تلك القصيدة المترعة بالحياة، والفلسفة. حينما تغدو الحياة ذاتها سهام مصوبة نحو الروح. يا ذيب، تركت ورائي عالماً مترعاً بالتناقضات. لم أستطع الصمود بوجهه، وبوجه غياب افتعلته امرأة رأيت بها حياة أخرى، تنفض غبار سنين مرت كحصى في بلعوم مصاب بالعطش. قل لي، هل أحببت؟ هل رأيت الصحراء الممتدة مد الظن في البصر، أوسع مما هي عليه؟ وهل جربت الغياب.؟ الغياب الذي يجعلك ترى كل شيء ضيقاً كخرم إبرة؟ إن هذا ما يحدث لي. كل منا يجيء من معتقله إلى منفاه دون خليلة. حتى ونحن نعيش اللحظة الحقيقية في الوطن)

* * *

خطوات خارج القضبان

انتصف الليل. والدنيا رعود، وبروق، وأمطار، وثلوج ما توقفت عن رغباتها. زحفت قليلاً إلى حفرة النار ورميت لها بضعة أغصان ناشفة. إذ راح البرد آنذاك يتدفق عبر بوابة الملاذ كأنه هو الآخر يهرب من شيء ما. تفقدت خانة الرسائل في حاسوبي؛ لعلني أجد منك رسالة؛ لأتخلص من المراوحة بين سماء ممتلئة بالصقيع، وبين أرض مليئة بالشوك. لكنني لم أجد إلا فراغاً يلدُ حزناً يدمي مقلة القلب. فأيقنت وأنا أهمس لك بسري؛ أن الحكايات لا تُقال إلا بعد انتهائها. وقد فرغنا من ترتيب عناصرها واحداً واحداً، حتى يتسنى للمَشاهد أن تلتئم. حينها إما أن تخلق غماماً يهطل البهجة، وإما رياحاً تنثر الوجع.

نكشت حفرة النار بعود، ثم رحت أحرك الجمرات كأني أنكش حفرة الذاكرة التي أخذتني في تلك اللحظة مستذكراً الحركة المزعجة للعربة العسكرية وقد هدأت، لأدرك أنها نهاية الطريق، فلملمت كل الصور التي في ذاكرتي، وأودعتها في مكانها، وحشرت أنفاسي، وأحاسيسي وكأنني أتأهب للولادة من جديد.

قفزة الضوء التي انفلتت إلى عيني مرة واحدة، فضت بكارة العتمة، وأنا ما أزال في الجزء الخلفي من العربة، وأفقدتني ما كنت قد استجمعته من قوة تعينني على التركيز. أغمضت عيني دون قدرة

على مشاهدة المكان، وما حوله. اقتادوني إلى الداخل، ثقيل الخطى، محمّلاً بعشرين عام عبر بوابات، وممرات، وغرف عديدة.

قالوا لي:

- أنتظر.

كنت أجلس غارقا في مقعدٍ كذبيحة ما زال يجري في عروقها توق للحياة. فأتى المحقق وجلس إلى طاولته ورفع عينيه اللتين تختبئان خلف نظارة طبية ترتكز على أنفه بعد أن فرغ من قراءة أوراق أمامه. ثم قال لي بصوت منخفض:

- ما هي قهوتك أستاذ خالد؟

كانت أسناني تحتك بشفتي السفلى، فشعرت بأن سائلاً بارداً يتدفق في عروقي بدلاً من دمي.

قلت بصوت يشوبه الأنين:

- في الحقيقة، سأكون كاذباً ان قلت لك بأنني ما زلت أتذكر قهوتي إن كانت مرّة، أو حلوة. أحيانا أشك بأنني ما زلت أعرف اسمي أيضاً.

ضغط بإصبعه على زر أمامه، فأطل أحدهم من الباب:

- جيبلنا لنا قهوة. قهوة حلوة.

وبعد دقائق عاد العسكريّ يحمل فنجانيّ قهوة، وضع واحداً منها على طاولة أمامي وآخر على مقربة من يد الضابط. عاد المحقق يتفحص الأوراق التي بين يديه، يطيل النظر عند صفحة، ويمر

مسرعاً عند صفحات أخرى. أغلق الملف بعد أن اختلس نظرة تفحص بها قسمات وجهي المتعب وأنا أرتخي في كرسيي خائر القوى ثم قال:

- لماذا لا تشرب قهوتك؟

التقطت فنجان القهوة بكلتا يديّ وقد برزت عروق ظاهر يدي كهروب عشوائي لسيقان حشائش على تربة سمراء. ارتشفت جرعة واحدة دون تلذذ، ألَمَّت ارتعاشةٌ بيديّ، فوضعتُ الفنجان على الطاولة مُحدثاً صوتاً أجفل انسياب الصمت الذي أطبق على المكان.

قال المحقق وهو يحاول أن يقفز عن ذلك التلكؤ:

- أخ خالد، لم نأمر بإحضارك إلى هنا لنزعجك، لكنني أرغب بأن أقول لك شيئاً واحداً، وأرجو أن تستوعبه جيداً. الفرصة في الحياة ما زالت أمامك، وأنت صاحب عقل كبير، يمكّنك من فهم ما نريده.

صمت لبرهة، ثم أضاف:

- نحن ندرك الأبعاد الحقيقية لما تفكر به، صحيح أن الأمور اختلفت عما كانت عليه، لكننا نريد أن تكون نظرتك تجاه الأمور أكثر منطقية. أنت كنت قيادياً بارزاً في أخطر حزب محظور، وبسبب الديمقراطية التي ستأتي لنا بكثير من المشاكل الآن، أصبح حزبكم مصرحاً للعمل العلني. لذلك يا خالد عليك أن تنتبه لحياتك القادمة. ما كنت تنوي القيام به كان خطير جداً. كنت تنوي تخريب البلاد. الدلائل التي كانت في غرفتك، تشي بكرْه عميق لبلادك.

كنت، وهو يتحدث لي، أفكر بحزب تلاشت فكرة العودة إليه منذ الليلة الأولى لي في المعتقل. ليس بسبب سنين عمري التي قتلها المعتقل؛ إنما بسبب وهمٍ لم أنتبه له في حزب ليس له علاقة بالعدالة سوى اسمه. كنت أفكر بشأن تلك التهمة، والمحقق يصارع تساؤلات داخله عما يرى ويقرأ في الملف الملقى أمامه. هززت رأسي ثم تركت المبنى الكبير، وأنا أتحسس الهوذة المعتمة الكبيرة التي تفغر اتساعها كفمٍ بحجم العالم في روحي.

كانت أسناني تضغط على شفتي السفلى بقوة فجائعية، لتنحدر على مقدمة ذقني المزركشة بالسواد، بضع قطرات ساخنة من الدم المرتعشة.

عندما وقفت ببوابة المبنى، طاف في أقبيتي الجوانية نحيب مر. أخرجتُ من جيبي علبة سجائر، التقطت واحدة ثم أشعلتها، وأنا أتمتم بشيء من الارتعاش:

- لا شيء في هذا العالم يجعلنا نستسيغ طعم الألم ورائحته أحيانا كالسيجارة.

ابتلعت من دخانها جرعة، ثم زفرتها بتنهّد.

بعد غياب طويل، قفزتْ المدينة إلى عينيّ كوميض ساطع نبعَ من مرآة ضخمة، اصطدم بدواخلي عندما عبرتُ البوابة العالية التي تطل على الشارع؛ ليشتت توازناً ما قد أقامته المخيلة، والحلم معاً عن تفاصيل تموج في الوجدان منذ عشرين عاماً.

وقفت مشدوهاً وكأن جزءاً في تكويني قد آل إلى الخراب. للوهلة الأولى بدت لي المدينة حديقة من الحجارة المنمقة وهي تقف

بامتدادات هندسية، وكأن المشهد الذي تتراقص أمواجه على صخرة الحنين في المخيلة قد تلاشى للتو.

أصابني ذهول جراء منظر العربات التي كانت تزعق في الشارع. انتبهت إلى أنها ليست كالعربات التي رأيتها قبل عشرين عام. كأن البلاد تحولت إلى معرض كبير لما تنتجه مصانع السيارات. تلاشت البيوت التي تخفق الروح في جدرانها لمجرد النظر إليها ،عبر الشرفات التي كانت تحفل بأصص الورود، والنباتات التي تتسلق الجدران. ثمة روح إسمنتية تعيث جماداً في المكان. تدحرجت على انحدار الشارع، دون قدرة مني على ضبط رغبة ألحّت عليّ في الوقوف. عند مظلة معدنية يقف تحتها قلة من الناس، سألت أحدهم بعد أن توقفت:

– وين الباص اللي تودي على وسط البلد؟

رمقني شاب صفف شعره بعناية فائقة، بنظرة غريبة ثم منحني إجابة قصيرة:

– من هون .

أخذوا يراقبونني كأنهم يراقبون ذلك الطالع من أدغال التاريخ للتو، ملابسي القديمة، شعري المسترسل، بتسريحته التي بدت منتمية إلى زمن قديم. تلك النظرة المتوجسة في عينيّ. تراقبان الأشياء بنهم بدائي دون قدرة على استيعاب ما يجري.

اقترب أنين الحافلة، معلناً عن نية بالتوقف، فصعدت، وجلست على أحد المقاعد، أراقب مدينة غيرتها السنين وقد صارت

كبحر إسمنتي لا أسماك فيه. لا البوابات كالبوابات، ولا النوافذ كالنوافذ، أوركسترا دون آلات. كانت الحافلة تجوب طرقات المدينة كزمان ثقيل الظل، تقذف أناساً، وتلتقط من الأرصفة آخرين.

كنت ملتصقا بمقعدي كأنني هبطت مرة واحدة على كوكب آخر، أتفحص وجوهاً ليست كالوجوه التي رحلت في ذاكرتي إلى الزمن الصحراوي منذ سنين بعيدة. وجوه يعنونها إحباط ليس خفياً، ابتسامات مقيّدة كأن آلة ميكانيكية قد أنتجتها لتصلح لهكذا زمان، أفواه تقذف بأحاديث ما تلبث أن تذوب عند حرارة شمس حارقة.

إن ما رأيته ليس إلا مشهدا بارداً تؤطره موسيقى متهالكة على نفسها، تثير في سامعها شعوراً غريزيا متوحشاً، تارة نحو حزن جنائزي، وأخرى نحو نشوى متوحشة.

- هذا زمان آخر.

قلت ذلك، ورحت أفكر بصمت:

(ما هذا الجهاز الذي يستخدمونه، يضعونه على آذانهم ويتحدثون؟ أيعقل أن يكون في هذه الحافلة كل هذا العدد الضخم من رجال الأمن؟ هل كل هؤلاء الذين يحملون هذه الأجهزة يقومون بمراقبتي؟ يا إلهي، إنهم يصرون على أن أُبقي سجني معي. وما هذه الأطباق الجاثمة على أسطح المنازل، وكأنها أياد ترتفع إلى السماء تضرّعاً لله . هذه الطرقات الفسيحة. هذه العربات الفارهة. رجال بوسامة مصطنعة، نساء بجمال مصطنع، وكأنهن خرجن للتو

من فيلم أمريكي. هل هناك حدث كبير؟ أم أنا في مدينة فاقدة لروحها؟)

* * *

غابت الريح فجأة إلى كوّة في سماء الجبل، وتوقف المطر عن الهطل، والثلج عن التساقط، ثم صمت كل شيء، عدا صوت الماء وهو يسيل في الأودية، مانحاً اللحظة إيقاعاً تختلط فيه الوحشة بالألفة. بدت اللحظة لي كأنها خارج سياق الزمن الذي عشته من قبل. اختفت ألسنة النار، وتبقى الجمر الذي توهجَ كقلبي حينما يفكر بكِ. قرب الملاذ راحت الأشجار تقطر ماء كعروس خرجت للتو من تحت شلال ماء قصيّ بين الجبال. بفعل الحرارة التي يوزعها الجمر راح البخار يتصاعد من ملابسي.

بدا الذئب غافياً يستلذ بدفء قاوم ليلة من البرد، كان يفرد قائمتيه أمامه ويحني رأسه عليهما، وقد استرخى للنعاس كطفل ينام بسطوة حكاية. كنت أحدث الذئب عنكِ، ولا أدري في تلك الليلة ما الذي جمعني بذئب، فرّ من شبق العواصف، والشتاء، والبرودة. فرّ من وحشة تجلد بدنه كما لا يمكن له أن يتوقع. وأنا هربت من تلك الوحشة التي بقيت لأيام أكتب لك وأحدثك عنها. كنت تقولين لي:

(عليك أن تحتفظ بهذه الأشياء التي ترسلها لي لأنها كتابات جميلة حَريّة بأن يقرأها الناس)

ليتك في تلك اللحظة حاولت أن تبددي الوحشة التي بدأت تستفحل بي منذ أدركت أنني مجرد رجل في حياتك أتى ليمضي.

رجل أدرك فيما بعد أن اليد التي شجّت رأسه، لا تختلف عن اليد التي أتت تخيط جرحاً غائراً ازداد عمقاً. وأنت المرأة التي، على حد قولها، لا تحتفي بحب محاط بالمكابدات الليلية، وبأغاني الوصال، وباللهفة التي تفوح حتى من فم الكلمات عند مبتدأ الكلام. تلك الطقوس، على حد تناقضاتك، لا تخص سوى حب عتيق يذبح فكرة أن نستأنف خطواتنا من جديد.

لكنني في تلك الليلة، بقيت أحدث الذئب عنك وعني، وهو يستسلم للنعاس، وأنا أعكف على الحكاية تحت ضوء نار توهج في جبل يضعني كخرقة قبالة الرياح.

هل لك أن تتخيلي كيف حدثت الألفة بيني وبين ذئب، لم أشأ أن أسميه باسم غير اسمه، كنت أناديه (يا ذيب)، وكان يستمع لي جيداً، حتى وهو يتقاسم معي وجبتي. وكنت أنصتُّ له جيداً؛ لأنك إن لم تكن مستمعاً جيداً لن تكون متحدثاً لبقاً.

كان ينظر إليّ بعينين حزينتين، لكن وجهه يعلن عن ملامح قوة خفية لا تمتلكها سوى الذئاب الأصيلة. بقيت لساعة أراقبه وهو لا يشيح البصر عني، وكنت أعلم أنه يتحدث إليّ بصمت، وأعلم صدق ما قاله لي جدي ذات يوم بأن (العيون مغاريف الحكي). حديث طويل، قلت فيه ما يقال، ولا يقال، بعده رحت أدخن رغماً عن نصائحك لي بعدم الإسراف بالتدخين، وأشرب شاياً مطعماً بالميرمية، وأستمع لـ «بوتشيللي» الذي أثثني في تلك الليلة بالصبر على حب لم أتوقع ذات يوم أن يجعلني أشرع نوافذ قلبي له مرة أخرى.

* * *

صوت لطيور كان يصل واضحاً، في لحظة سكون أعقبت توقف المطر والرياح عن هز بدن الجبل. من حقيبتي أخرجت دفتر يومياتي، وقرأت ما كتبته فيه يوماً:

«إنه وقت العصاري هنا، في قريتي التي كانت قرية ذات يوم، قبل أن تتبدل بفعل الحداثة، البيت الذي يطل على المدينة (مادبا) من شبه مُرتَفع يفي بأن تشرب العينُ ماء المدى، حيثُ يجد الحَمَامُ متسعاً من المساحة لكي يطلق أجنحته للطيران، وبأن تأخذ الأذن حصتها من صوت الصبية الذين يمارسون طقوس طفولتهم. لم أذهب إلى عملي هذا اليوم، غفوت البارحة في وقت متأخر قبيل الفجر، ولم أضبط منبه الساعة الذي يبدأ الصراخ الإلكتروني عند الخامسة والنصف صباحاً. كنت قد أغلقت حاسوبي، وركنته في مكانه على رفٍ تصطف عليه مجموعة من الكتب ؛ دواوين شعر، روايات، كتب في النقد، كتب في السياسة وبعض المجلات، وقصاصات من صحف. رغبت أن أقرأ وأنا مستلق في سريري، لكن خطرت في بالي فكرة أن أستعيد بعضاً من أيام مضت، ففتحت دفتراً من دفاتر يومياتي. إنها عادة قديمة بدأت بالتعاطي معها منذ أن كنت في الصفوف الإعدادية، حيث الأحلام طازجة كنهد ما زال في ريعان ارتعاشه.

في كل عام أنهي دفتراً مليئاً بالحكايات، وفي نهاية كل دفتر أوشح تلك الصفحات بعبارة تختصر أحداثاً كثيرة في عام واحد.

قرأت الدفتر صفحة صفحة، يوماً يوماً، كأني أفتش عن صفحة أو عبارة أو كلمة أراها كنبوءة تفسر ما يحدث لي، وأنا أحملكِ

في دواخلي كما تحمل امرأة جنيناً في رحمها. أحملك وكأنني أنتظر لحظة الولادة التي لا أعرف إلى أي مصير ستؤول.

البارحة تحدثت إليك بيني وبين نفسي كما كنتِ تخبرينني سابقاً بأنك تحدثينني وأنت تعودين من عملك الذي يقضم روحك على مهل. قرأت ما يقارب نصف صفحات الدفتر، أو نصف أيام العام، وكنت في الأيام التي يلملم الربيع فيها حقائبه، ويقف الصيف بباب الكون متهيئاً بشموسه الحارقة، في قرية لا تصعد في سمائها ناطحات سحاب، ولا أدخنة مصانع. أرخيت الدفتر، فسقط أرضاً إلى جانب السرير. أشعلت سيجارة، ورحت أستعيد كل الكلمات التي قلناها، أستعيد ملامح وجهك التي لا يمكن أن أنساها أبداً، تلك العينين اللتين فيهما من مدى القرية الصافي ما يجعل رجلاً مثلي، يحب الفضاءات المفتوحة، أن يشهق كلما رآهما. وجهك الذي يبدو كوجه طفلة ما زالت تحتفي بأحلامها الشاهقة. شفتيك اللتين ازدادتا جمالاً لارتخاءةٍ تصير انعكاساً لقلب أجمل مما يمكن لي أن أتخيل أو أشتهي. فتصل لسعة السيجارة إلى أصابعي لشرودي بكِ، تنبهني لأطفئها .

حينها رأيت الدفتر ينفتح على صفحة ربما هي ما أفتش عنها. سأكتبها، لعلك تقرأينها ذات يوم، كما هي دون حذف أو زيادة، لسبب واحد هو أن ما من شيء يحدث لنا في هذه الحياة مصادفة دون إشارات أولى لا ندركها آنذالك ، إلا إذا عدنا إليها بعد زمن نكون فيه بأمس الحاجةلإجابات على أسئلة تنمو في دواخلنا:

(في لندن، وفي أكسفورد تحديداً، ومن شرفة فندق Shillingford Bridge Hotel حيث سفري الأول أو رحلتي الأولى بعد خروجي من المعتقل، وبعد عملي سنين في شركة للطيران، أسافر إلى بلاد لا أعرفها، سوى ما قرأته عنها في الكتب. يلوْح لي نهر التايمز المنساب في حضن التراب منذ زمن قديم، كجرح على سطح القلب، رفعت سماعة الهاتف، وطلبت فنجان (نسكافيه بلاك) بلا سكر، وكانت هذه المرة الثانية التي أشرب فيها مشروباً بلا سكر.. فأن أحب تناول المشروبات حلوة،و كأنني كنت أتوقع أن يجيء مذاق الدنيا كلها على هذا النحو.

(نسكافيه بلاك)! مجاراة مع مرارةٍ تتدفق في أوردة الروح، حين أقف أمام نفسي وألوّح لها عاجزاً.

الشمس بدت أكثر سخاء في ذلك الصباح اللندني، بعكس الأيام الباردة، والضباب الذي يجلل كل شيء، لحظة لها أن تكون كريشة تهفهف على أي قلب فتمنحه لذعة الجمال، لكن دوار امتد إلى كل زاوية في أنحاء جسدي، لم يكن الدوار الذي يُخَلِّفه القولون العصبي الذي يلازمني منذ أمد بعيد، إنما دوار آخر لا فكاك منه ما دام يربض في دمي وحش الغياب. غياب امرأة لم تأت بعد. امرأة انتظرها منذ أن بدأت أعي أنني رجل يحتاج لامرأة تسكنه ويسكنها. امرأة كنت في المعتقل أهجس بطيفها الذي كنت أعلم أنه سيأتي ذات يوم.

وأنا ما أزال في شرفة الفندق رنَّ هاتفي عدة مرات، لا أدري هل كنت أسمع صوت رناته أم لا؟ لكنني لم أرد في تلك اللحظة.

صمتَ وعاود الرنين مرة أخرى، فتذكرت حين راقبت شاشته أن الرقم يخص العمل فقط، فرقمي الشخصيّ، خلفته ورائي في الأردن، كان مديري على الهاتف يحدثني بصوتٍ بعيد:

(لقد رأيتك ليلة السفر متخناً بحزن شوكي يوجع حتى من هم حولك، هل هدأت؟ أنظر إلى التايمز كيف يسير بهوادة، تأمله جيداً واسترخ ولا تفكر بشيء، بعد الانتهاء من المؤتمر بإمكانك أن تمكث ليومين إضافيين ، لندن مكان جميل. إلى اللقاء)

أقفلت الدفتر، وحشرته إلى جانب دفاتر السنين الفائتة، في حقيبتي المزودة برقم سرّي. ولا أدري يا حبيبتي هل أنت المرأة المستحيلة التي كنت أنتظر مجيئها منذ أمد بعيد أم لا. المستحيلة التي تجتمع بها كل الأشياء والحالات: الوطن، الأم، الأخت، الحبيبة، العشيقة، الصديقة، القصيدة، الصلاة، الجنون، الفرح، الحزن، الانشطار، الالتئام. كل شيء، كل شيء، كل شيء.

❊ ❊ ❊

بضع قطرات من المطر حملتها الرياح التي كانت تعوي عند بوابة الملاذ، واستقرت على وجهي. خفت في تلك اللحظة أن يداهمني السيل، فرحت أتأكد من وجود الحاجز الترابي الذي شيدته حول المكان. بقيت للحظات أتأمل الجبل وماحوله من جبال غارقة في حلكة الليل وفي شتاء كان يزداد كلما أيقنت أنه سيتراجع. رأيت انعكاس إنارات الفنادق في البحر رغم صعوبة الرؤية في طقس مثل ذلك الطقس. تذكرت عبارةً ناجيت سعاد بها في غيابها تقول:

«عندما تأتين سأقول لك ما قاله البحر لامرأة تهدهد حزنها بالرذاذ»

لم أكن أهتمُّ كم عليّ أن أنتظر، مقتنعاً بمقولة (الطريق إلى الفردوس، أجمل من الفردوس ذاته).

همست لطيفها أمامي:

(هل تعلمين أنك تحتلين كل خلية من خلاياي؟ أراكِ الآن تطلعين عليّ عبر هذا الليل الحافل بالمطر، وتضعين رأسك على صدري، ترغبين بأن أقص عليك حكاية ما قبل النوم، أو عن يومي وتفاصيله. ماذا تريدين أن أقول لك عن يومي؟ ليس مهماً كل قامات التعب، التي تتقافز في طريقي. المهم أن وجهك يبدد كل تلك الأشياء التي تثير بي حالة من الحنق.

أعلم يا حبيبتي أنني أستحيل أحياناً إلى رجل يهرب من سطوة الواقع. وتعرفين أن الواقع بات كهاوية نسقط فيها بخطوة واحدة . أنادي عليك بصوتي الذي حشرجه التدخين فصار خشناً أكثر مما أتوقع، صوتي الذي يسير مع خط الريح متناثراً في مدى يحفل بالمطر، والرعد، والبرق، تماماً مثل صوت «بوتشيللي» الذي يتكسر على صخرة الريح كما ينفجر بالون مملوء بالماء على نتوءٍ حادّ في حجر فيتناثر الماء في الهواء ثم يتلاشى. قلت لكِ منذ نقرتِ بأناملك باب القلب أني أخاف، أخاف أن أشرع شبابيك قلبي ونوافذه. قلتِ لي: لا تخف يا حبيبي، لا تخف فأنا أعرفك منذ عمر طويل. يا إلهي كيف قلت هذه العبارة ومضيت دون أن تخبريني بأنك تقصدين ما

تقولين؟ قلت لك أنني لا أحتمل سقطة ثانية تسرق آخر أنفاسي. لكن الذي لم أقله لك، سأقوله الآن للذئب، الذي يشارك آدمياً نفس الحيز، نفس الطعام، نفس الهواء، وكأن تاريخ البشرية لم يعرف عداوة قَط بين حيوان مفترس وآدمي مسالم.)

يا (ذيب)

الحب عندي حياة جديدة، حياة أخرى تقوم على أنقاض حياة سابقة سقطت سقوطاً مدوياً. عندما رأيت أحلامي بالحزب تتفتت مرة واحدة على صخرة الواقع الذي لم أستشرفه جيّداً ذات يوم. اخترقتني رصاصة وجع، فأحدثت بي تلك القروح، والتمزقات الموجعة حد الموت. ربما لأنني كنت أرى ذلك الحلم عبر نافذة رومانسية خالصة. نافذة لم تكن تراقب الواقع كما ينبغي. لم أكن أعلم أن ما كنت أحلم به هو صورة رسمتها للأشياء في مخيلتي، بل الصورة التي أردتها أن تكون، وليست تلك التي تخفق في صدر اللحظة الواقعية. لذلك عندما رأيت ما لم يكن عليّ أن أرى، وعندما سمعت ما لم يكن علي أن أسمع، طلقت الحزب ثلاثاً. صدقني ثلاثاً دون العودة إليه.

عندما خرجتُ على القبيلة التي يأتي الاحتفاء بها كعدوّ لحياة مدنية نحتاجها كل طالعة شمس، وُجهتْ لي السهام برؤوسها المسمومة، لكنني كنت بعد كل سهم أكوي جُرحي بجمر الأمل. إن «أقسى أنواع الغربة هي الغربة في الوطن»، وأنا منذ أن بدأت أعي الأشياء حولي أحس بهذه الغربة تجلدني بسياطها التي خلفت في جسد الروح قروحاً، ونتوءات.

ماتت أمي دون أن تترك رائحتها في ملابسها التي أحضنها كل يوم، محاولاً إيجاد رائحتها، إلا أنهم أخبروني مراراً أن هناك أشخاص تغادر رائحتهم معهم، وهم يرحلون باتجاه الموت.

عليك أن تتحملني يا ذيب وأنا أسرد لك تفاصيلي بشكل متقطع، إنها دفقات الألم التي تعصف بروحي، أراك تراقبني وفي عينيك الوحشيتين كلام كثير. سأتحدث أنا أولاً، وحين أنتهي تحدثني أنت وسأستمع لك جيّداً.

هل أحببت مرة في حياتك ؟ أعلم أن الحيوانات أيضاً تحب، الأشجار تحب، التراب، المطر، الحجر. الحب ليس مقتصراً على الآدمي. أنت الآن صديقي، أنيسي في وحشة الغياب. وأنيسك أنا في وحشتك الجبلية هذه. أراك ترتخي قرب النار التي تعوضك عن حجم الدفء الذي سرقته منك وحشة الجبل، وبرده القارص وأراك معجباً ببوتشيللي، ارتخاءة تدب في أوصالك ليس فقط بسبب ملاذنا الصخري الدافئ؛ بل لألفةٍ تحدث الآن بيني وبينك، ولهذه الموسيقى التي تجعل للحظة مذاقاً آخر مختلفاً.

عندما عرفت سعاد، ظننت أن كل الذي تهاوى حولي وأحدث انهياراً جواي، سوف ينهض من رقاده من جديد ويشعل بي جذوة النهار. والنهار يا صديقي مطلبي الشرعي، صدقني لا أريد شيئاً غير نهار يوازي جمال الليل.

قلت لها أنني أستعيض بها عن الأشياء التي سقطت حولي، أريدها وطناً، وطناً كاملاً غير منقوص. تبّاً لهذا الفيس بوك. أعيد نفس عبارات سعاد وهي تلعن هذا العالم الافتراضي، الذي قرب ما

بيننا ونحن في الواقع أناس تفصلنا آلاف الأميال. نعم أقول الآن تباً لهذا العالم الافتراضي. وكيف لك ان تعلم ما هو «الفيس بوك» يا ذيب؟ سامحني يا صديقي ،لم أقصد اهانتك، بل أحسدك، فأنت ،على الأقل، تعيش عالماً واقعياً واحداً لا حيّز للافتراض فيه!

ما زلت أتذكر رسالتها الإلكترونية التي بعثتها تعلق على نصّ من رواية أكتبها، ولم أقل حينها أني أكتب لها، وأن أجمل الروايات تأتي بدافع الحب، حينها كَتَبَتْ:

(كأنَّ روحك ماء وكأن الكلام تراب. ما إن يصير طيناً وأنت تعجنه، حتى يصير حياة تمشي على قدمين من حبك للحياة. كأنك تعجنني من جديد فيصبح بوسعي أن أشرع نافذة غرفتي، وأملأ رئتي بهواء نقي لم يطرق باب صدري منذ زمن.)

منذ تلك الرسالة منحتني شجرة الحب ظلاً وارفاً يتمطى في بور قلبي، وبت أدرك أن الحب الحقيقي هو الذي يولد رغم المسافات، ويولد بفعل الكلمات التي تمتلك قدرتها على الغناء للحياة.

منذ تلك الليلة أصبحت واحداً غيري. كل شيء صار له مذاق خاص؛ مذاق بلذعة تدغدغ وجنة القلب. حتى الخسائر والهزائم تصير بمذاق خاص، مستساغ.

(أي شيء يا سعاد يجعلنا نصبر على الألم والوجع غير حب كبير مثل الذي حدث لنا.)

كنت أعلم أننا عندما نُحبُّ نصير أطفالاً أكثر مما ينبغي. نقف في منطقةٍ ننظر فيها إلى الأمام أكثر مما نلتفت إلى الوراء، في المنطقة

التي تصبح فيها خسائرنا في الحياة دونما إيقاع مؤلم، لأننا ببساطة نستعيض عن الحياة بشموليتها؛ بحياة يتقاطع فيها الخيالي بالواقعي. لكن الأخطر في الأمر أن الفشل أو السقوط في تلك المنطقة؛ سقوط ليس بعده نهوض، لأننا نكون في تلك الحالة قد استجمعنا كل قوانا الداخلية دون أن ندخر للسقوط أدنى درجات القوة، لإيماننا بأن الحب الحقيقي يخلو من تلك (البراغماتية) لذلك لم أكن دبلوماسياً أو براغماتياً في حبي لها. فكل ما رأيته، ذلك المشهد الذي يصور رجلاً لا يجيد السباحة يحاول جاهداً أن يعوم في محيط بلا جهات، وفجأة مدت له يد القدر جذع شجرة تعلق به، وراح يحلم بالوصول إلى الشاطئ، حيث تجري هناك حياة بتفاصيل يعوّل عليها. ربما يقال أن في ذلك أنانية، لأني أرى في حبها وسيلة لا غاية. هل تتوقع أن من السهل أن أستغني عن حبها بتلك البساطة ؟ وأعود بقدمي إلى ذلك المحيط الذي يحفل بالعواصف، والبروق، والرعود، والريح.؟ أنا لا أجيد السباحة وحتماً سوف أغرق. لكن الذي أخافه أن أذهب إلى لجة المحيط بمحض إرادتي، ولن يحدث هذا إلا إذا رأيتني أسقط. ربما تقول أنه علي أن أمتلك قوة أكثر مما أمتلكها الآن لأخرج من باحة السقوط باتجاه الحياة دوماً. لكنني أخبرتها أنني أعوّل على الأشياء التي أعاينها وأتعلق بها بصدق.

* * *

بوح على صدر الذئب

سكن ضجيج الشتاء فجأة؛ وكأن فرسان تلك الليلة راحوا يستريحون على قمة في أعالي السماء. فجاء صمت لا يتخلله سوى صوت قطرات ماء، تتساقط من أغصان الاشجار. خطوتُ بضع خطوات خارج الملاذ. كانت الساعة قد أشارت إلى الثالثة صباحاً. صعدتْ طائرة من سماء المطار الذي لا يبتعد عن مكاني سوى ثلاثين كيلومتراً. وبقيت تئن إلى أن استوت فسلكت دربها، ثم تلاشت بعد زمن في الظلمة وأضواؤها تغيب، كمسافر في الأفق، وهو يرحل مشياً على الأقدام. ثمة بروق بعيدة كانت تلعج في الأفق الغربي. نباح كلب، وثغاء نعاج أتت من مكان ما قريباً من الجبل. تبعه نداء رجل بصوت مبحوح وهو ينادي:

(عزك يا عزيز، عزك ياعزيز) قلت في نفسي أن الحقائق تبدو أوضح في الفجر. كأنها تأتي مجردة من أي رتوش يمكن أن تعيق فهمها. فكرت برداد وشعرتُ بأنني لست عاتباً عليه. رداد صديق أراد أن يمنحني شيئاً من الفرح في زمن تشح فيه تلك البضاعة. كان لقاؤهما صدفة. ومدينة مثل باريس معتادة على الصدف. وكانت هي تلك المرأة التي أرادت أن تكفر عن خطيئتها، حين اعتقدت بأن ظهورها الغريب، كسائق سيارة سباقٍ، انقلبت على الطريق، يحاول ان يعيدها إلى مسارها كي تواصل دربها نحو نقطة النهاية. وعندما

توهمت أنها نجحت بتلك المهمة غابت إلى حياتها التي باتت تحفل بكثير من الرجال. فحين تتيقن المرأة من انكسار قلبها؛ تكسر في داخلها قارورةً ادّخرت فيها ذلك الماء السريّ الذي يجعل للأشياء معنى حقيقياً يفضي دائماً للصدق.

سألتها ذات مرة وأنا أرى حولها كثيراً من الرجال:

- لِمَ يحيط بك كل هؤلاء؟

قالت وكأنها تعترف بحقيقة أشك بها:

- المهم هو أنني أحبك أنت.

رميت عقب السيجارة، فتناثرت شراراته عندما ارتطم بصخرة أسفل المنحدر الذي كنت أقف على حافته، ثم عدت إلى الملاذ، واستلقيت قرب الذئب وهو يغفو فوضعت رأسي قرب رأسه، وبقي ينصت لي وأنا أتحدث مفرغاً ما في جعبة الذاكرة من حكايات، وأحلام، وأمنيات. يلتصق جسدي بجسده. وتصل نبضات قلبه بنبضات قلبي. كان شعره يمنحني دفئاً يضاف إلى الدفء الذي كان يسري في بدن المكان. عادت الدنيا خارج الملاذ تخر ماءً وثلجاً وبرداً. وراح الرعد، والبرق يجفلان الكائنات بجنونهما. لاذت بنا رائحة العشب، والحشائش البرية ونحن نجثو قبالة أرواح الخشب التي تزهقها النار. فاسترخت الذاكرة بفعل موجة الدفء، فحبت بناتها نحو باب البوح. فوجدتني أفتقدك كما لم أفتقد أحداً في حياتي. افتقدك رغم علمي أن الحب الذي لا يمنحنا صدراً يطرد منا غربان الأسى، يصير كالأغنيات الخفيفة تموت قبالة آهة واحدة في أغنيات الزمن الجميل.

بدا الذئب غافياً، وأنا أحس بنبضات قلبه تأتي سريعة، حينما أوغلت في تخوم الذاكرة، فرأيت الحافلة التي أقلتني إلى قاع المدينة في أول يوم لي خارج المعتقل تسحبني من شعر روحي عبر زحام عمان. حتى استقرت بعد مسيرها في الجزء الآخر من مدينة لا تشبه بعضها، وأنا أعود من سنين اعتقال مرت كليل الموجوع؛طويلة وثقيلة الخطى. كان الزحام في تلك اللحظة المصحوبة بهطل كثير للمطر كجيش يدرج على درب المعركة، فتحولت الشوارع إلى شعاب يهدر بقلبها الماء.

وكأنه عبورُ من لون إلى آخر، رأيت ذلك المشهد الذي لا يمت بصلة لما رأيته في الجزء غير البعيد من نفس المدينة. فأدركت فيما بعد أن عمان شطران؛ واحد غربي طافح بثراء ولد بسرعة، يرى الآخر محض كائن يعيش ليموت، وآخر مغرق بفقر بطيء الخطى، يرى الآخر ابن كواكبِ بعيدة وغريبة عنه.

هبطت من الحافلة أتجول في وسط المدينة قبل أن أتجه للقرية. أصوات الباعة الذين يروجون بضاعة من الصنف الثالث، تتماهى، عبر صخب يبدو لاهثاً وهو يورّط المارة ببضاعته. رائحة الأطعمة المقلية تفوح من تلك المحال التي ازداد عددها وهي تقدم وجبات سريعة لأناسٍ يمرون بسرعة من قاع المدينة. لوحات إعلانية ضخمة مزودة بأضواء كهربائية لامعة تروّج لمطاعم بماركات أمريكية تبيع وجبات لذيذة في متناول اليد. بسطات تبيع أقراصاً مدمجة لخطبٍ دينية تتحدث عن عذاب القبر، وتتوعد المارة الذين يسمعون صوتها عبر مكبرات ثبتت في مقدمة تلك المحال. شبان يبيعون أقراصاً

مدمجة لأفلام «إباحية» تجد رواجاً وتهافتاً عليها. ازدحام في كل شيء، اختلس مني الحالة التي قد تُحدث لي توازناً لأواصل طريقي نحو القرية. وجوه لا تشبه بعضها، أعراق مختلفة، موديلات مختلفة، شباب يرتدون الجينز، وكأنهم ذاهبون إلى مدرسة تفرض عليهم زياً موحداً. فتيات يغالبن تعباً خفياً في وجوههن بمساحيق التجميل، نساء محجبات، ومتسولون.

لمسة حداثة بدت في المكان، لكن ثمة روح غادرت ذلك الجسد فبدا كأنه صنم لا يلوي على شيء. كنت أتجول في مدينة لا أعرفها. مشيت بخطوات حزينة. صعدت درجاً أوصلني للمقهى الذي تركت على طاولته زمناً من الذكريات. وقفت ببابه، فرأيت كل شيء قد تغير، لا الوجوه هي الوجوه، ولا الروح هي الروح التي ظننت أني سأجد بعضاً منها بعد كل ذلك الغياب الطويل. جلست إلى طاولة تطل على زحام المدينة، وطلبت فنجان قهوة، ارتشفت منه ورحت أدخن. على جدار المقهى انزلقت شاشة ضخمة، تبث مشاهد متتالية، وسريعة لامرأة تغني كلاماً دون معنى، يرافقها حركات راقصة لنساء بملابس سباحة على شاطىء البحر. وعلى طاولة تقابلني، رأيت شاباً وفتاة، يمسك كل واحد منهم بيد الآخر، ويمسكون بأيديهم الأخرى بخراطيم «النارجيلة» دون أن يتحدثوا وكأنهم عشاق ليس بينهم سوى تلاصق الأيدي فقط. الرف الكبير الذي كان قبل عشرين عاماً يضم عدداً من الكتب تلاشى وحلت مكانه صورة كبيرة لفريق كرة قدم إسباني.

ليس في المقهى ما يدل على زمن قديم سواي. فهبطتُ سلمه، وقد أدركت أن شيئاً سُرق من جيب المدينة فبدت على هذا النحو.

بعد أن عبرتُ الشارع الذي يخترق قاع المدينة، جلست على أحد المقاعد المتناثرة على جنبات الشوارع. أشعلت سيجارة، أراقب تلك الحالة الفسيفسائية التي تتصارع مع ذاكرة شربت المدينة كأرجوحة تتدلى من القمر. اقترب شابٌ مني، ثم جلس. قال لي بوتيرة مفاجئة تخلو من أي مقدمة للكلام:

- هل أنت من هنا؟

- هل تحدثني؟

- نعم.

صمتٌّ قليلاً، أفكر بهدوء، بهيئتي التي لا تدل على أني من تلك المدينة. قلت:

- لا، لست من هنا.

تساءل مجدداً:

- لا بد أنك من القرى البعيدة في الجنوب؟

- القرى البعيدة ؟ نعم أنا من القرى البعيدة جداً.

قدم لي الشاب سيجارة ثم أشعلها:

- هل ترغب في أن تروّح عن نفسك؟

بدت قسمات وجهي حائرة بعض الشيء فيما لم أفهم. قلت متسائلاً :

- ماذا تقصد؟

تلكأ الشاب قليلا ثم تلعثم وهو يتدارك موقفه:

- لدينا فتيات من مختلف البلدان، أتود أن تذهب معي ولن يكلفك ثمناً باهظاً.

تركت المقعد والشاب ينادي بصوت متقطع وحزين:

- لن يكلفك كثيراً.

تابعت مسيري نحو موقف الحافلات المتجهة إلى القرية، ثم انتظرت هناك وبمرور دقائق وصلت الحافلة فركبتها. عندما أعلنت الحافلة طريقها المؤدية إلى القرية، كنت أفكر بشأني متسائلاً:

هل أفقدتني السنوات التي سكن المعتقل عبرها دمي، أي رغبة بامرأة!

راحت نتف الظلام تنهمر ببطء على خصلات الشمس التي تقبل نوافذ البيوت، وكأنها تودعها. ثم ما لبثت الحافلة أن صارت كفلاح عائد من حقله يتعربش بثيابه التعب، تتلمس دربها ببطء، وهي تنهي آخر رحلة من لحظات المدينة الباحثة عن صوتها إلى قرية،ما زال أطفالها يتراكضون إلى قرص الشمس الأحمر، يحلمون بالطريقة التي يمسكونه بها. خضّب صوت أم كلثوم المكان المسافر بلوعة تستمطر الحنين، بينما ركاب الحافلة يغرقون بإغفاءاتهم. كنت ما أزال غارقاً في اندهاشي، وفي لملمة الصور التي تتماوج في البال، أفكر بلوعة بينما الحافلة تخلف المدينة وراءها، والأشجار التي أصطفت على جنبات الطريق تركض إلى الوراء:

(هذه الأشجار ما زالت تفض بكارة التراب، وتشيع جذورها في كل الاتجاهات، كصوت يسري في مساء مقمر حد الدهشة، أما هرمت ذاكراتها التي مرّ عليها مسافر ودع الطلول بحبات الدمع؟ وعاشق خبأ في حضن أغصانها شهيق الكلام ولعثمة البوح، وخائف استجار بكل ملاذات الدروب، وتائه نقش على أوراقها كل خرائطه، وحدوده الميممة صوب المجهول. يا لهذه الأشجار، يا لهذه الأمكنة يا (باشلار)!

تذكرت يوم كان جدي يجبُّ أشجار الكرمة إذا ما هرمت، وتذكرت عندما كنت أحتج على ذلك. كان يهدهدني بصوته الرخيم قائلا:

- عندما أجبها يا ولدي، لا يعني هذا أني أحرمها من حياتها؛ إني أترك لها جذوراً في التراب، لتعود إلينا من جديد، إني أستنطقها.

أقنعني بذلك، ولكنني عندما كنت أذهب إليها،أتأملها أرى سائلاً شفافاً يشبه الدموع ينهمر منها فأذهب إليه وأصرخ بوجهه:

- أما قلت لك أن هذا حرام؛ تعال وانظر إن أشجار الكرمة تبكي.

فيضحك بصوته الجهوري ويقول:

- إنها دموع الفرح يا ولدي.

* * *

بينما الذئب ينظر إليّ، أُسندت بدني بكوعي وأرخيت رأسي على أخمس يدي متسائلاً: ماذا لو جببنا القلب دونما رقّة عين قبالة

الغياب كما يفعل المزارعون بأشجار الكرمة؟ هل سينمو من جديد كما تترعرع الأغصان بعدما يختزل الساطور جذعها القديم؟

ازداد هطل المطر، وراح الرعد يقصف في المدى أعداء مفترضين. تحولت الدنيا بأكملها إلى مطر خالص، وأنا أراها خلال ذلك الملاذ الذي يلفني بمعية ذئب يشكو عبر عينيه جبلاً من الوقت يجثم على روحه التي أتلمس حزنها.

كم أنا وحيد يا سعاد. ! رغم ضربات يديك التي لم تكف عن التجديف سباحة في نهر دمي، إلا أنني أحس بأنني وحيد، وحيد جداً. لا أدري ما الذي حدث، لتتبدل الدنيا التي ابتكرتها بيديك أنت في دواخلي؟ كنت كمن يشرع ببناء عمارة، ويَعِدُ من لا بيوت لهم بدفء الملاذ. ثم يغيب فجأة بينما الحالمون يقفون قُبالة لغةِ الإسمنت التي لم تكتمل باللون وبالأَسرّة، والوسائد، والموسيقى، وزجاج النوافذ، والضوء، والماء. لا أدري ما الذي حدث. تتراجعين فجأة دون مقدمات تعين قلبي على الصعقات التي يمكن أن تقتله.

ألم أقل لك أنني أحبك إلى الدرجة التي أسامحك فيها على أي شيء؟ إذن لماذا كل هذا الغياب!

وحيد جداً، أقبع في الملاذ، أكتب لك. لا أدري بالضبط ما الذي يحدث لي. بعد أن خرجت من المعتقل الذي لف روحي بأسلاك شائكة، بأداة الصبر، والكتابة، رحت أقص تلك الأسلاك سلكاً، سلكاً، أحاول أن أحرر روحي من سجنها الذي أحمله معي ويحملني معه. عندما عرفتك عبر هذا الواقع الافتراضي، شعرت

كأن تلك الأسلاك تلاشت مرة واحدة، وروحي طائر يحلق في سماوات لا تعترف بالجاذبية التي تحيل التحليق إلى جهة في الأرض، حيث الأقدام تطبع شهوتها في الطيران على صدر التراب. عندما عرفتك، رأيتني كمن استعاد سنيناً اختطفتها يد الليل الصحراوي الموحش ببرده وصفير ريحه.

يا الله هل تحب الضحية قاتلها إلى هذه الدرجة!

أتذكر عندما كتبتِ لي رسالة، أتت كشرط أول في عقد عاطفي:

(عدني أن تحافظ علي. اجعلني ككلمات تخبئها في قلبك فلا يسمعها أحد. كنت أقول دائما أن الكلام هو المفتاح وليس أي شيء آخر. هل تفهمني؟)

كنت أعتقد بسذاجة العاشق أن الصدفة وحدها يا سعاد هي التي فعلت بي كل ما فعلت، فالصدفة في الحب اكتشافٌ للجاذبية من بُعدٍ جديد. كأن يرتطم نجمٌ بقلب فيُضاء الجبينُ لنعرفَ معنى آخر للنهار. حينها سنعاتبُ حاستنا السادسة التي أخفتْ بطيبة، ما سيحدث لنا من ابتهاجات ومسرات كثيرة.

كنت أنثر في صفحة «الفيس بوك»، ما يوجع القلب، وما يحزُّ لحم الروح. أقتطف بعض مقاطع من كتبي، وبعض فقرات من قصائدي، وألقي بها في فناء الصفحة. لم نكن في ذلك الوقت سوى شخصين يهيمان على وجهيهما في بحر افتراضي، ولم أكن أعلم أن وجعاً مثل وجعي سيكون شرارة أولى في هشيم عشق حارق. عندما

سمعت صوتك للمرة الأولى، بعد كل تلك الحوارات التي وقعت بيننا، عبر فضاء الكلام، شعرتُ أن مطراً هطل مرة واحدة على حقل تشققت تربته، وبات مرتعاً للأفاعي. فتآلفت شقوق التراب مرة واحدة، وشهقت روح الطين بالنغم.

أحبك، فلماذا تمنحيني المعتقل مرة أخرى بكل هذا السخاء؟ وأنت التي اختزلت من فناء روحي قسوة القضبان.

كيف لم ألحظ أن رائحة الحب في رسائلَ مكتوبةٍ تركتِها لي يوماً على باب غرفتي حين كنتُ طالباً جامعياً، هي الرائحة ذاتها التي حَمَلَتْها رسائلُ إلكترونية أرسلتِها عبر «الفيس بوك»؟

كيف لي أن أغفل عن حبِ امرأةٍ بدأ برسالةٍ مكتوبةٍ في طورِ عمري الأول؟ ليمرّ مُلفّقاً لي تهمة أودت بعشرين عام في طور عمري الثاني، ليعود طالباً مغفرتي في طور عمري الثالث ويغيب كل الغياب في طور عمري الأخير!

هل جئت لأجل هذه المهمة! أما اكتفيت من كل ذلك الذي حدث يا سحابة، أما اكتفيت يا سعاد!

هل أناديكِ يا سعاد أم يا سحابة؟

ذات يوم قابلت صديقة ستينية اقتربت مني وقالت، وهي تثبط وجعاً بي لم أقو على مداراته:

- عرفت مئة رجل أو يزيد، مئة بلد أو أكثر، آلاف الكتب، والقصائد، والروايات، والقصص والحكايات. لا تترك قلبك رهناً لامرأة واحدة.

قالت ذلك، بعد أن أشرعت لها كتاب القلب، وكتاب الحياة، فبقيت لساعات تستمع إليّ، وهي تدخن، وترمقني ساخرة مُشفقة:

- أن ترهن قلبك الذي لا تملك غيره، كأن ترهن بيتك الذي لا تملك غيره في مجازفةٍ يمكنُها أن تُبقيك بلا بيت.

كانت تصلح من هيئة (مكياجها)، وهي تتحدث إلي، ثم حشرتْ مرآتها الصغيرة في حقيبتها، ثم أتت على ما تبقى من فنجان قهوتها، وقبلتني على خدي المتعب، وهي تهم بالتوجه نحو رجل ستيني ينتظرها على ناصية الشارع، وهمست بأذني:

- أيها البدوي. المرأة سرّ عصيّ على الفهم. لا تتعب نفسك أكثر مما أتعبتها.

من رزمة كتب معها، ناولتني كتاباً، قالت وهي تنظر من وراء نظارتها: «اقرأه جيداً. ماركيز سيريحك من قلقك هذا (ذاكرة غانياتي الحزينات) ، وهي تصفق باب المقهى وراءها قالت بفرح:

- حين ألتقيك في المرة القادمة أريد أن تكون بصحبة امرأة غير التي بكيت بسببها أمامي اليوم

ثمة رجل خمسيني على طاولة قريبة يقرأ كتاباً ويدخن بهوادة، ويتمايل بفعل رثم موسيقي حزين يأتي من مسجلة في المقهى، رمقني بنظرة تشوبها ابتسامة ما، أعقبها بهمسة:

- ليتني التقيتها قبل ثلاثين عاماً، لكنت تفاديت ما يحدث لي. امتثل لنصائحها.

* * *

أخذ المطر والثلج يرسمان في الجبل صورة للشتاء. رحت أتفقد خانة الرسائل في حاسوبي، لا رسالة تجيب على توسلاتي حيال غياب سعاد المفاجىء.فرحت أتساءل:

أتراك يا سعاد تتعمدين بث هذا الشك، كما فعلتِ من قبل ؟ بهذا الغياب الذي ليته أتى بعد حدث يستحق كل هذه القطيعة. أم تراني مجرد مرحلة في حياتك ؟آن أن تنتهي لتحتفظي بذكريات جميلة، حدثت لنا في الجبل شاهد رعشتنا الأولى. في شوارع المدينة، موسيقى التمهل في الحديث الخفيف. في صفحات «الفيس بوك»، حضن المكابدات الليلة الحرى. في رسائل الهاتف، ناقلة الحنين المجنّح. في السرير، موقدة حطب اشتعالاتنا. وفي المنامات، شرفات أمنياتنا التي لم تحدث بعد.

قبل أن أعرفك، كان لدي مفهوم آخر للحب.

إذ صار عندي الحب يتجلى عبر رؤية هي في الأصل خليط من الشعر، ونبض الواقع، وجنون الموسيقى في التعاطي مع الأشياء خارج صحو اللحظة.

صار مفهوم الحب عندي، مختلفاً تماماً، ومغايراً لما عشت فيه وعليه. فبتُّ لا أفكر فيك إلا عبر فضاءات القصيدة، وأعلم أن ذلك ضرب من الجنون. وأعلم أيضاً أن لك حياتك، أخطاءك، خطاياك، غضبك، فرحك، نزقك، حزنك، وتفاصيل يومك العادية.

العالم يغلي، صدقيني يغلي. قتلٌ في كل مكان، دمٌ في كل لحظة، كأن هناك شيء يعيد ترتيب الأمور وفق شهوته الدموية. وأنا لا

أفكر إلا بك، لأنك الشيء الوحيد في حياتي القادر على إحداث التوازن حيال كل ذلك الخراب. أعلم ذلك جيداً، وأعلم أن امرأة جميلة مثلك، أنيقة وشهيّة ، تعرف كيف تسوس خيل الكلام وسط مئات من الرجال، أمرأة بكل تلك المواصفات، تتطلب صبراً جميلاً من رجل مثلي كان يعتقد أن نافذة قلبه قد أغلقت تماماً أمام قَرعة يدٍ لأنثى من جديد. أعلم أنني حيال معركة ضارية، لكي أحافظ عليك عبر كل تلك الخسارات.

أتعلمين كم مرة في اليوم أقول أينكِ؟

كلما تبعت نبضة في القلب أختها، تخرج الكلمة وراء مثيلتها:

أينكِ؟

مصير نذيره الحب

لا يمكننا تمزيق ولو صفحة واحدة من صفحات حياتنا، لكن بإمكاننا إلقاء الكتاب بكامله في النار

«جورج صاند»

اللقاء الأخير

ككل المرات في ليلة وقفت فيها أمام نفسي، لأراني واضحاً أكثر من ذي قبل؛ فتشتُ جعبة الحاسوب عن رسالة من سعاد. ليس هناك سوى إشارة تفيد بأنها قرأت الرسائل فتجنبت كتابة أي رد. فتيقنت أنها ذلك النوع من النساء اللائي ينسحبن على مهل دون تصريح علنيّ بقرار يُنهي كل شيء. شعور بالاختناق داهمني بكل أسلحته. فتحت صفحة في الحاسوب ورحت أكتب وجسدي يرتعش من أخمص القدمين حتى الرأس:

«لقد صدقت نبوءتك يا جدتي. ها هي الأحلام تهشم صاحبها»

أقول ذلك، وأنا أتذكر مدينة تلوح لي عبر القرية ككهل حزين. مدينة غبتُ عنها في المعتقل كل تلك السنين. ثم رأيتُني كحي ابن يقظان أزج في عالم غريب عليّ وليس لي. أقول ذلك، بعد أن رأيت علم إسرائيل يرفرف على بناية في عمان. هذه المدينة التي لا يختلف على حبها اثنان. في تلك اللحظة،رأيت أبي الذي سقط شهيداً على أسوار القدس؛عندها بقي رفاقه لوقت يحاولون تحرير بندقيته من بين يديه وهو يمسك بها بشدة، رأيته يطل عليّ من بين الوجوه، يبصق في وجهي، ثم يغيب كأنه مات في تلك اللحظة لا منذ زمن.

«لقد صدقت نبوءتك يا جدتي»

أقول ذلك، وأنا أتلمس ما فعلته بي امرأة وُجدتْ في حياتي لكي تصبح ذات يوم محض سراب. وكأني أكتشف أن إيماني بأن المرأة وطن، أضحى هرطقة. امرأة في داخلها ثلاث نساء. واحدة شيعتني لعشرين عاماً من السجن، وواحدة جاءت تداوي الجرح فدلقت به ملحاً جعله يتسع. وأخرى جعلت الدنيا كلها سجن كبير، وهي تضع رأسها على وسادتها وهي خالية الوفاض من أي رجل من أولئك الرجال الذين يحومون حولها كما تحوم الوحوش حول الطريدة. ثلاث نساء في امرأة واحدة.

«لقد صدقت نبوءتك»

النبوءة التي بحتِ لي بها ذات يوم، وأنا أقعي في القرية، عند لحظة الغروب، على التلة الصغيرة المطلة على المدينة، يوم كان الحلم بالمدينة ساطع كشمس ربيعية، رغم سنين الطفولة التي تولد الأحلام فيها متطرفة. أتذكر أنك كنت قد ناديتِ عليّ لمرات متتالية. اقتربت مني، وأنت تدركين أنني لم أسمعك. كنتُ هائماً في فضاءات لا حدود لها. أحلم بطيور تحملني على ظهورها، وتأخذني نحو المدن البعيدة المتوجة ببريقها، ونحو الأحلام. عندما سمعتِ مني ما أحلم به؛ جلستِ بيني وبين الشمس التي كانت تمسح جسدك وجسد المدينة بالذهب، وأمسكتِ وجهي بكفيكِ الموشيين بخطوط، وعلامات خضراء كأنها تمائم بدوية، لا مجرد وشم. وكوعيك يتكآن على ركبتيك بجسدك النحيل. نظرتِ في وجهي:

- علامك يا جديدتي؟

كنت كمن سُرق لسانه؛ لم أستطع حينها أن أقول شيئاً غير ما قلته. ضممتني إلى صدركِ، وأنا أشهق بعمق، وعيناي تركضان صوب المدينة، كطائر يهوي نحو النهر:

– هل تسمعين صوت الموسيقى الذي أسمعه الآن يا جدتي؟

مسحتِ عيني برؤوس أناملك، وضجّت من وجهك ابتسامة تشبه ضحكة النهر لظل يعانقه باهتمام:

– أسمعه يا جديدتي أسمعه زين.

لم تقولي لي في تلك اللحظة أنني أسمع ذلك الرثم الموسيقي وحدي، وأن ما من أحد هناك يسمعه غيري، لأنك أدركت في تلك اللحظة ما بي. التفتنا نحو المدينة التي بدت من بعيد كحرّاس يمسكون مشاعلهم ، جلسنا متجاورين، وأنت تعقدين يديك على ركبتيك، وكانت الشمس قد سقطت للتو في جحر المغيب. رأيتُ علامات حزن طفت على وجهك مرة واحدة. ثم استدرتِ بعد زمن قصير من التأمل العميق وأمسكت وجهي بكفيك كما فعلتِ من قبل:

– المدينة يا جديدتي بيوم من الأيام تَبْلَعَك مثل حوَّامة الميَّه. إما على إيْد وحده من بنات حوّا وإما على يد حلم من أحلامك، وإما بسبب الثنتين مع بعض. بنت حوّا وحلمك.

تفرستِ أكثر في وجهي، كأنك تفتشين عن إشارات أخرى تجعلك تستشرفين أياماً قادمة تحمل لي كثيراً من المفاجآت، والصُّدف، والإنكسارات، والهزائم. قلت قبل أن تغادري:

– إذا حلمت متت.

بعد سنين طويلة، ضجت في بالي تلك المقولة الشهيرة في التراث عن قبيلة (عُذْرَة) عندما سُئل عن أحدهم فقال:

- إنه من قوم إذا أحبوا ماتوا.

صدقت نبوءتك يا جدتي.

أكلني الحلم ببلاد حلمت بأن تحقق لي صباحاً دون قلق، فأهدتني بكل سخاء عشرين عاماً في معتقل يقف وسط قسوة الصحراء.

وأكلتني امرأة بمعيتها حلمت بالحياة، امرأة تأتي كحمامة بيضاء تتقن الهديل. فأهدتني شكلاً جديداً من أشكال الوجع في زمن يتقن منح هكذا هدايا. سجن جديد يتحالف مع المعتقل الذي أهداه لي زمن المعتقل الشوكي. صدقت نبوءتك يا جدتي، فما عدت أرى المدينة، ولا تلك الفضاءات التي أهيم بها وأنا أجلس على نفس التلة عند الغروب. أذوي، رويداً، رويداً وأنا أجلس عند نفس التلة. لكني أجلس وفي دفتر العمر خمسة وأربعين عاماً بلا حدث يبث الحياة في قلب يتوق للحياة أيما توق. على نفس التلة، وشيب في الشَّعر، وسجن في الصدر، وقلب صار كخرقة بالية أتعبتها الشموس والرياح، فتلاشى لونها، واهترأت خيوطها. جلست وقد فقدت كل ملامحي، فلم أعد ذلك الطفل الذي يحلم بالطيور، وهي تحمله على ظهورها، وتعبر به صوب المدن البعيدة وصوب الأحلام. طفل يحلم بالأيائل وهي تهبط من أعالي الجبال. ولم تعودي أنت التي كانت، كي تنادي علي وأنا على ذات التلة:

- خالد، خالد، خالد، يا خويلد يا جديدتي.

خسرتُ كل شيء يا جدتي؛ العائلة التي كانت تؤثث المكان بحياة استثنائية، حلمي ببلاد تحبني، حبيبتي التي خلقت عندي موقفاً مرّاً من النساء.

خسرت كل شيء، وربحت الكتابة. الكتابة التي أسير في دربها سعياً للكمال دون نقصان. لأراني، لأتخيلني، حتى لو أن ما أراه مجرد سراب خادع لا يحمل في طياته سوى البريق المرشح للتلاشي. نحن يا جدتي نكذب على الجميع، فلا ضير لو كذبنا على أنفسنا وصدقنا تلك الكذبة، إلى أن نلفظ أنفاسنا الأخيرة، وينداح البياض.

* * *

وقفت بباب الملاذ وأنا أشعر بأن كل شيء حولي يتهاوى، في وقت توجّب عليّ فيه أن أتماسكَ كي أقتنص شيئاً من توازني، كما يقتنص رفيقي الذئب طرائده؛ ليمتلك طاقة يجوب بفعلها الصحارى عبر غريزة فيها من القسوة والبطش، بقدر ما فيها من أنفة.

وأنت تتلاشين يا سعاد نبضة، نبضة من صفحة يومي؛ راودني تساؤل أن؛ لماذا تمنحني هذه الحياة رمحاً في الظهر، وأنا الذي لم أدر لها ظهري يوماً.؟ ذات الإحساس الذي راودني يوم زارني رفاق قدامى لي في الحزب بعد مغادرتي المعتقل، كان يوماً موجعاً رغم حجم المساحيق التي اعتلت وجه الكلمات. كانت الأرجوحة تروح وتجيء بجسدي، وهي معلقة بالغصن الكبير لشجرة ما زالت تحتفي بنبض دقائق مضت، وكأن طائرا أسطوريا اجترحها ليفر بها

بعيداً خلف التلال، التي يحلم الصبية باجتيازها لعلهم يقبضون على قرص الشمس الخاثر باحمرار الشفق.

ثمة صور عبرت درباً في حقل ذاكرتي عندما اختلط صوت جدتي بتلك الموسيقى التي عادة ما تضج بروح الذاكرة عندما تجيء التفاصيل:

- خالد؟ في ناس يسألوا عنك. يقولوا إنهم أصحابك من عَمان. قاعدين بالمضافة.

عندما رأيتهم أدركت دون عناء أنهم منشقون عن الحزب. لكنه الحنين الذي انفجر في البال مرة واحدة دفعني إلى معانقتهم دون إرادة. كنت أجفف بقايا دموعي بباطن يدي حين صعد صوت داخلي يشير إلى أنني ذرفت الدموع، لأني أردت ذلك. هممت بمسحها بحزم.

- لقد تأخرنا عليك. أليس كذلك؟

قال عبدالمعطي، ومسحة من الخجل كست وجهه. وقد مال إلى شيء من الاتزان، ناصعاً بالشيب، ذابل العينين خلف نظارة تومىء بتعب حل باكراً.

- لا، لم تتأخروا، لا بد أنكم معذورون.

ساد جسد اللحظة صمت جاف. كان كل واحد منا يغرق بما يجري، بعضهم كان يفكر أن ما حدث حالة منطقية قالها التاريخ أكثر من مرة. وبعضهم كان يبرر لنفسه بأن الظروف الموضوعية اقتضت ذلك. لكن عبدالمعطي كان يدرك أنني الآن لست خالداً

الذي كان. في المساء الذي سبق ذلك اليوم، كان عبدالمعطي يقرأ عن حيّ بن يقظان. وكنت على حد قول عبدالمعطي قد خيّلت له أتعربش السطور، إذ كان يدرك أن ما يجري ما هو إلا المنطق بحد ذاته، فهو لم يستسغ ما قاله بعضهم بأن التجربة لا بد أن تخلق مني إنساناً أقوى، ولكن التربة التي عدت إليها ما أنبتت إلا شوكاً، وألواناً اجترحت من بحار الزيف.

- كيف رأيت البلاد بعد غيبتك الطويلة يا أستاذ خالد؟

كان جالساً إلى يميني، لم أره من قبل. قال شاكر:

- أعرفك بجميل. قدم إلينا في غيابك.

قلت، وأنا أحاول القفز عما يجب أن أقوله:

- البلاد عامرة بأهلها يا أخ جميل.

كان عبدالمعطي يتفحصني، وقد انسدلت نظارته أسفل عينيه قليلاً، وهو ينفث دخان سيجارته، متلمساً حزناً لا يمكن مداراته. استؤنف الكلام بعد لحظات من الصمت الذي اعترى المكان. الانهيارات الكبيرة، الأشواك التي تنمو بعد أن وجدت نفسها وحيدة في تربة واسعة وكبيرة، الهزائم، الانتصارات، الاخفاقات، وحال البلاد بعد موجات التسوية، والتصافح، والحروب التي أتت على آخر أنفاس الأمة، بينما كنت أبتلع دخان سيجارتي، وأنفث معه زفرات كانت هي الكلام.

- أليس صحيحا يا خالد؟

- صحيح.

- لقد حدث ذلك صدقني يا خالد.

- أصدقك.

- أن ما حدث ما هو إلا فاجعة.

- نعم فاجعة.

- لم تكن الخطوات محسوبة يا خالد.

- صحيح.

كان عبدالمعطي غارقاً في مكانه، وكأنه وجد في الصمت شاردته. كانت عيناه تقولان أشياء كثيرة لي، ويده التي كانت تحتضن جبهته تومىء بما وراء الكلام.

قال سلامة محاولاً تبديد سطوة الصمت الذي عاد مرة أخرى:

- في الحقيقة لا أدري يا خالد ماذا أقول لك. لكنني أعتقد بأنك على علم بما جرى، ولقد علمنا بأنهم أتوا إليك هنا، ولا أشك في أنك أدركت حجم خيانتهم.

توقف عن الكلام، وكأنه ينتظر أحداً آخر ليكمل عنه ما كان يقول. قال نعيم بعد أن تململ في مكانه، وقد لمعت في عينيه الزرقاوين ملامح الجدية:

- أدركنا أن عدم رضوخك لهم هو اعتراف بأنك تريدنا نحن، نحن نقدر ما عانيته، وهذا وسام نضعه على صدرك ونحن نلتمس فيك الصلابة التي أكسبتك إياها السنين.

مسحت عيني بإصبعي كأنني عائد من رحلة صيد خائبة.
قلت:

- السنين لم تكسبني سوى نوافذ تطل على مشاهد الخيبة، وكل ما أستطيع قوله لكم أن تعتبروني تاريخاً مضى، يمكن أن تستغلوه في الكراسات. أتركوني بحالي. أنا طلقّت كل شيء. كان عبدالمعطي آخر من صافحتهم. عانقني وقد نمت في صدره حشرجة تنم عن خيبة كبيرة.

❋ ❋ ❋

كأن جدران الملاذ اشتهت عظامي؛ شعرت بها تتحرك نحوي. فجثوت على ركبتي قرب الذئب، وهو يستسلم لكسله، أصرخ بوجهه، وأنا أراوح ما بين شعور بالخوف، وشعور بالاختناق:

- ألست أيها الذئب سليل البراري! والبراري وطن الرعد، والبرق، والمطر، والريح، والعواصف. وطن الوحشة، والغربة، والقسوة، والبرد، والهجير. وطن الصراخ، والجوح، والصعلكة. وطن السؤال، والإجابات. البراري تلك الأوطان التي بسببها شكل الإنسان أسئلته الأولى وصاغ لها الإجابات.

قم أيها الذئب، النار لن تنطفئ في حفرتها هذه، ولن تنطفئ في صدورنا. سنتركها هنا تربي لغتها كما ينبغي للغة النار أن تربي اشتعالها. هيا يا صديقي خذ بيدي إلى حيث كنت تجوح قبل أن تلوذ بي وبملاذي. تعال أيها الهارب من صحارى الصحارى. أنا أنت، وأنت أنا.

كأنه استفاق من إغفاءة طويلة، ارتعش فجأة، ووقف على قدميه مرة واحدة، ثم انتفض فلاح تحت ألسنة النار التي كانت تتراقص، كبدائيين حول شهوة النار في الخشب، بفعل هبات الرياح، التي أصبحت تتدفق من وراء الجبال، وهي تنتصب وراء البحر الميت، بقوة نحو الملاذ، حاملة على متنها جسد الماء الذي عمّد نيبو في تلك الليلة بطقوس الماء الكونية.

اقتربت منه، وقد غشت وجهي ملامح ذئبية، أنجزها إحساس غريزي، يجيء من صحارى تقبع داخلي منذ أمد بعيد، صحارى مليئة بالوحشة والانكسار الخفي.

منحت صوتي، وملامحي، وامتداد الأعصاب في جسدي كل ما يمكن للذئاب أن تفعله. وبدوره بادلني لغته، التي جاءت من طبيعة على جبينها لغة القسوة والهجير. تلك اللغة التي كنت أحس بها، تماماً كإحساسنا بأغنية لا نفهم كلماتها، ولغتها، لكنها تغور إلى تجاويف النفس، وتخلق صرخة تنم عن دهشة متطرفة.

كان الرعد، والبرق، والمطر؛ ثلاثة يتكاتفون في تلك اللحظة على خلق رتم يستهدف الجبل، فبدا مشوباً بعناصر الوحشة، والرعب، والخوف، والفرح، والخصب، والنماء والوحدة، والدهشة، والنغم.

اقتربت بوجهي أكثر فأكثر من وجه الذئب، وقد عادت إليه ملامحه التي عهدتها سليلة صحارٍ تعترف بلغة الطرائد، والسمو، والبطش والأنفة. تعترف بكل تلك التناقضات مرة واحدة. ورحت أتقمص لغته، ثم أرخي العنان للغتي الآدمية لتهوي عبر سماء لغته كشهاب شبق يشق بطن المدى:

- منذ أن وطئت قدماي تراب الجبل في هذه الليلة التي تختلف عن كل ليالي عمري الذي فقد بوصلته منذ نبضه الأول، وأنت تعوي وتجوح أيها القادم من مقامات البطش، تتقدمها مخالبك التي حفرت بها تهمتك الأولى على أجساد طرائدك.

قم لنعتلي رأس الجبل. تعال لنركض في الشعاب والوديان. تعال نتسلق درج الريح، ثمة مسافات لا تنتظر.

كأن الريح طوع يدي وخطواتي. كنت أركض، أركض، غير آبهٍ بالمسافة وهي تجري نحو رأس الجبل، مسافة تلبستها الطريق المليئة بالحجارة والشوك الحولي، والأعشاب الغضة التي تسبب الانزلاقات. كان الذئب يعب المسافة بيديه، وقدميه، كأنه سفينة تمخر عباب الماء. وكانت الدنيا مطر ورعود وبروق، ومني تنسلّ سنون لطخ المعتقل بها جدراني الداخلية كما تلطخ ألسنة النار جدران الكهوف. تفاصيل كثيرة كنت أحس بها تتناثر مني، وأنا أعدو مثل ذلك الذئب الذي كلما اشتدت خطواته، تشتد خطواتي. هبطنا إلى الوادي الذي يهدر بسيل ماء يجرف معه أغصان الأشجار والحجارة والحصى. رمى الذئب ببدنه في الماء دون تلكؤ، فتبعته كأن قامة الخوف قد جز عنقها سيفُ المسافات. أخذت أعوم بمعية الذئب فصرنا شيئاً واحداً. كان الماء يأخذنا باتجاه الأسفل، حيث يركض الماء إلى وادٍ سحيق. نحو الضفة الأخرى للوادي قفز الذئب سريعاً وتبعته بوثبة سريعة.

راح يعب خطاه وتبعته أنا بخطاي، نحو صخرة ضخمة اعتلت واستقرت على رأس الجبل. كانت المسافة كأنها الريح بلا جهات. والتفاصيل تتناثر مني كصوف على قميص تأخذه قوة الرياح.

على رأس الصخرة الضخمة، التي استقرت على رأس الجبل، وقف الذئب رافعاً رأسه نحو السماء، وأنا رفعت رأسي نحو المدى الغربي الذي أثثه العتم، والمطر، والبرق، والرعد، وأضواء فلسطين، وعيناك يا سعاد. وكان الجوح، والعواء وسط جنون الطبيعة، التي منحت كل مؤونتها. إذ ركض جوح الذئب في المدى متخللاً حبات المطر الغزيرة، وكهرباء البروق، وهدير الرعد، كمن يسرد سيرته. وكنت بدوري أسرد سيرتي، فاغراً فمي ومطلقاً آهة كادت تعلو عواء الذئب.

بينما صور كثيرة، ومشاهد، وأصوات، كانت تختلط ببعضها في مخيلتي، طوال اللحظات التي بقينا فيها نشيّع أصواتنا للسماء.

* * *

عندما عدنا للملاذ، وأقعينا قرب النار نطرد البرد الذي ألم بنا، لم يقبل الذئب على رغيف الخبز المحمص على جمر النار، وعلى وجبة الخضار والجبن والشاي كما فعل في المرة السابقة. من حقيبتي أخرجت علبة لحم بعد فتحتها وفاحت رائحتها، تبدلت ملامح الذئب، فراح يفتعل أصواتاً، دلت على شهوته الأبدية للحم. وضعتها أمامه كاملة. وأنا أدرك كم يستحق ذلك الرفيق أكثر مما كنت أمتلك في تلك الليلة. راح يلتهم اللحم إلى أن أتى عليه كله، ثم زحف قليلاً باتجاه النار. مد يديه أماماً وأرخى برأسه عليها وغفى نصف إغفاءة.

سكبت كأساً من الشاي، وأشعلت سيجارة، رحت أنفث دخانها في هواء الملاذ، الذي يطلُّ على الغور الذي اختفى تحت عباءة جنون الشتاء.

وجاء من خبايا الذاكرة وجهك واضحاً في تلك اللحظة، وجهك الذي كان أول ما رأيته في الصورة الفوتوغرافية، التي جعلتني أنهر مخيلتي بأن تبني باقي الزوايا. وجهك في تلك الصورة، كان يجيء من زاوية واحدة، وأنا أريدك كاملة، كاملة يا سعاد. شعرك الغزير الذي تناثر على كتفيك كليل يهجم على قرية بكل وحشية، وجهك الذي طفقت به ابتسامة أشبه ما تكون بصورة شعرية، قفزت على سطح النفس كما يقول باشلار. فمك الذي كان كفم طفلة ساهمة في غمامة تغذ خطاها في السماء.

ثم جاء صوتك؛ مخملياً، حنوناً، دافئاً، رقيقاً، وهلامياً، وأنت تنطقين اسمي عبر الهاتف:

- خالد

كأنكِ كنت تخلطين غيمة مع كل حرف، فرأيت اسمي كأنه أحد مقاطع أغنية موغلة بالشجن.

أتأمل إيقاع المطر على مسمع الجبل، وأغرق بالذكريات. فتبدو لحظات الغياب كجمر يحرق بطن البال. حينها سيتداعى كامل التكوين بالوجع والقلق، وستبدو الحياة ضرباً من الوهم. حيث تولد الأسئلة وحيدة دون إجابات، وتصير الروح كجسد داهمه وباء. إنه الحب ذلك المقاتل الذي ما انفك يذود عن جهاز الروح المناعي. الحب وحده هو المضاد لانهيار الروح في مواجهة فيروسات الخذلان.

* * *

كنت أعي، والليل يتكتاف مع قسوة الشتاء عليّ، أن الآدمي في العزلة يستشيط حنيناً، وتصبح الحياة رهن صدر نضع عليه الرأس كأننا نرتد إلى عوالم الأمومة الأولى. أسندت رأسي على جدار الملاذ كأنني أرخي رأسي على صدر سعاد. ورحت اتذكر كلمات رسالتها قبل أن تغادر عمان بيومين:

(مشتاقة أن تكون قربي، إلى جانبي تحديداً، رأسك على صدري. بحاجة لك، أنا بحاجة لك. هل تدرك إحساس الشخص المليء بالعطش؟ وقد مضى عليه أسابيع في الصحراء بلا ماء، يفتش عنه بكل نهم. يريد أن يشرب، وأن يرتوي. هل لك أن تتخيل كيف ستكون حالته عندما يجد الماء؟ هل لك أن تتخيل؟ هذا أنا يا حبيبي. أحبك، أريدك، أشتهيك، وأعشقك. أنا كل هذه الأشياء. تعال أرجوك)

كانت تلك الكلمات قد أتت في رسالة قصيرة على هاتفي النقال، وأنا أعود من عملي، بعد يوم شاق في صحراء بينها وبين الشمس صداقة أزلية لا تموت. ثيابي لا تسمح لي إلا أن أبقى متجها إلى صنبور الماء؛ لأتخلص من العرق والأتربة، والتعب الذي يشوش حتى رؤيتي أثناء المسير في طريق مزدحمة جداً. بعد أن فرغت من قراءة تلك الرسالة قُرع هاتفي، وجاءني صوتها يمتلىء باشتياق جعلني أركن سيارتي على جانب الطريق:

- أهلاً حبيبتي؟

جاءت ضحكتها التي عهدتها، مزيجاً من الفرح والدلال والرصانة:

- صوتك يأخذني مني؟

تبدلت نبرة صوتها فصارت أكثر أنوثة ما كان يمكنني مقاومتها:

- تعال لنتماهى إذن.

قالت ذلك، وأنا أراقب هيئتي التي لم أتخيل أنها تصلح لهكذا لقاء. فقلت وأنا أبتكر صحواً يأخذني من سطوتها المعتادة:

- لا. في هذا الوقت. هيئتي لا تسمح لي.

تسلل صوتها الناعم، عبر سماعة الهاتف يستحثني:

- وهل يحتفي الحب بهذه التفاصيل يا حبيبي. أريدك كما أنت هكذا. فأنا أشتهيك جداً.

شيء ما داخلي صرخ فرحاً. كأن ألعاب نارية فجأة لعلعت في سماء معتمة.

عند باب البيت، كنتُ ألملم بعضي، كأنني استحلت إلى شظايا مصابة بالرعاش، دون أن يخطر ببالي أن تلك الليلة ستشهد اللقاء الأخير. امتدت يدي إلى جرس الباب، الذي أنَّ أنيناً لذيذاً في الداخل، عندما تناهت إلى مسامعي إيقاعات صوت نقرات حذائها على أرضية البيت. ثمة سحابة من العطر سبقت وجهها، والباب ينفتح أمامي كما اللحظة التي يطل فيها طفل على الحياة. الابتسامة التي تعربشت وجهها في تلك اللحظة عصية على النسيان. تلك الابتسامة التي أتت خليطاً من الدهشة، والحب، والارتباك. بعد

برهة من الصمت، امتدت يدها وسحبتني للداخل. بعد أن أغلقت الباب، غبنا في عناق طويل كاد يجعل جسدينا يتلاحمان دون فكاك، ونحن نحوش الكلمات التي أتت من جهة الشوق غزيرة بالحب. مرة أخرى، أخذتني من يدي جهة صنبور الماء في الحمام. تخلع عني ملابسي كما لو أنني طفل عاد من لعب في أزقة الحارة لساعات طويلة، تغمر جسدي بالماء والصابون، وأنا أعيش لحظة تتقاطع مع لحظة ضجت في مخيلتي، وأنا أقف في المعتقل قبالة الجدار أمسك بالريشة والأصباغ بيدي، أنوي رسم صورة لوجه على غرار الوجه الذي رسمه عبدالغفار.

عندما ارتميت في حضن الصوفة، كنت أستعطف قوة خرافية لكي تعيد ترتيب الأشياء جوّاي.

جلست ملتصقة بي:

- حبيبي سأغادر بعد غد. غداً لن أتمكن من لقائك.

- لكنك قلت أنك ستمكثين أكثر.

أرخت رأسها على كتفي وبدا صوتها حزيناً:

- هنالك بعض العقبات في العمل. لهذا السبب سأعود.

لامست وجي بأصابعها، وقالت بصوت متهدج:

- لا تقلق حبيبي ربما أعود في الشهور القليلة القادمة.

وضعت رأسها على ساقي وسحبت جسدها إلى الأمام بحيث استلقت في الصوفة. قالت وهي تقضم أظفر إصبعها:

- خالد ماذا لو أتت إليك تلك المرأة التي التي حدثتني عنها. أقصد خطيبتك يوم كنت طالباً في الجامعة، واعترفت لك بأنها خانتك. هل ستسامحها؟

قالت ذلك ثم نهضت وقد وضعت يدها على فمي:

- أرجوك لا تقل شيئاً. هو مجرد سؤال خطر ببالي. كنت أريد فقط أن أعرف إلى مدى يمكن أن يسامح الرجل الشرقي.

لحظتها تيقنت أن سعاد تريد الاعتراف بشيء يؤرقها. وتطلب مني أن أسامحها مسبقاً على ما اقترفته. بدت مضطربة وهي تسكب كأسيّ نبيذ. يداها ترتعشان، وهما يحملان الكأسين. ما إن جلست على طرف الصوفة حتى انحسر ثوبها عن فخذيها وقد وضعت ساقاً على ساق، فبدى الأبيض متناغماً مع الأزرق، كأنما كونشيرتو يسرد سيرة المدى الذي طفقت به غيمة ناصعة.

بضع قطرات نبيذ تعلقت بشفتيها فرحتُ أطوي المسافة بيني وبينها، كأنني أطوي مسافة من زمن الغياب. عندما لثمت فمها انداحت قطرات النبيذ في مهوى العطش، حينها كانت تشهق كقصيدة فرغ شاعرها من كتابتها وشيعها للبروق، كانت تشهق والنفس يصير واحداً، واحداً لا غير. صار السحاب الخفيف وسادة الشهيق، بينما خطواتنا تتقاطع ببعضها، ونحن نتجه إلى السرير. عندما وقفت أمامها، رأيت القلب يحرك يدي إلى زر فستانها، وحررته من سلطة العروة، فمنحني حمامتين تسردان سيرة الأبيض، ورأيت حبة عنب تذوب في فمي. في السرير كانت أبلغ من أنثى، وكنتُ أكثر من رجل، وأنا أرى فمي يقرأ كتاب جسدها الذي

امتلك أسرار كتابة لا نجرؤ على البوح بها. كانت تشهق ونحن نصير جسداً واحداً، بقي يصعد دربه نحو قمة في جبال الشهيق، حتى انداح السائل وهو يمنح اللحظة جهة خامسة.

وهي تضع رأسها على صدري، بينما يدي تمسد شعرها رحت أقرأ لها قصيدة كتبتها بعد لقائنا الأول:

«كنتِ معي

شمعة تمحو عتمة الكلمات على حافّة في المجاز

وتكتب من جديد كلاماً في الشّجن

كنتِ معي، أعصر التوت في سهْو الشفتين

وأدلقه في كأس قلبي لنحظى بالثمالة

كنت معي، أدسُّ رأسي في كلامك

تماماً كطفل

وأغفو خفيفاً إلا من رذاذ على زجاج وراء الحنين

لم يكن ليل البارحة يا حبيبتي

إلا كرة تتدحْرج على سفوح في الغَمام»

- خالد لماذا تحبني إلى الدرجة التي تسامحني فيها على أي شيء؟

قالت ذلك، وهي تقف عند طرف نافذة الشرفة التي تطلّ على «عَمّان»، وقد اشعلت الكهرباء هشيم العتمة في ذلك المساء،

تلفُّ جسدها، الذي حاور في تلك الليلة العطش في جسدي كما لا يمكنني أن أحلم، تلفه بملاءة السرير البيضاء، التي انحسرت عن ظهرها وفخذيها، وهي تدخن بهدوء سجائر المالبورو الخفيف. بقيت أراقبها بصمت، وكأنني أريد للذاكرة أن تتأثث بما يعينها أوقات الغياب. دون أن أجيب على سؤالها.

امتدت يدها، وهي ما تزال تقف قرب النافذة حيث عبثت نسمة هواء بستارتها التي تهتز، إلى علبة السجائر على طاولة حفلت بحاجياتها، واشعلت سيجارة ثانية، فشهقت دخان التبغ وزفرته بعمق. حينها قالت وصوتها يتخذ نبرة ألفتها عليها حينما ترغب بالبوح:

- أتعلم يا خالد. وأنا أراقب عمان هذه اللحظة، أحلم بأن أتحرر حتى من عقد عمل يستعبدني. أحلم بأن يكون الواقع هيناً، وأن يكون خوفي الذي يتشكل حيال الأشياء، خوفاً طبيعياً، مثل خوف أي امرأة في أيامها السلسة، وأن أمحو من بالي أن أعيش في بلاد لا تعترف سوى بالساعات التي أبدو فيها كآلة ما إن تتوقف عن العمل حتى تستبدل بغيرها، بلاد ناشفة. أحلم بذلك المكان الذي مارست فيه حياة ما زالت تروق لي، وتجعلني أمام نفسي واضحة تماماً. هو الشوق للمكان والزمان، الشوق الذي يحسه واحدنا، ليس لأنه ضروري بل لأن غيابه يمس الغلالة الشفيفة التي تحيط بالروح.

اقتربت منها، وما أزال عارياً، إلا من غيمة فرح كانت تخفق في سماء البال. احتضنتها من الخلف، فبدا لي جسدها أكثر سخونة، من تلك السخونة التي عهدتها قبل تلك اللحظة الأكثر جنوناً في

السرير. طوّقت يديّ حول عنقها، ثم سحبت نفساً عميقاً من سيجارتها عبر يدها التي امتدت إلى فمي، وهي بأناملها الأخرى تتحسس شفتيّ. حينها قالت وصوتها اعترته تلك الحشرجة الأنثوية التي من شأنها أن تشرع ستائر نافذة القلب:

- عندما أرسلت لي ما كتبته عني وعنكَ، أقصد ذلك النص الذي جاء مترعاً بتفاصيل تخصني وتخصك، اشتهائي، نزواتي، خيباتي، خساراتي، أحلامي، حتى أحلامي السرية. شعرت أن عالمي الخاص انهار مرة واحدة، وما عدت أملكه. أقصد ذلك العالم الذي نتجول عبره، ونحن نضع رؤوسنا على الوسادة قبل النوم، ونحن على يقين بأن لا أحد يعلم بتفاصيله إلا نحن.

شهقت نفساً عميقاً من السيجارة، ثم قالت وأصابع يدها تغور في شعري الذي لاح لي كثاً وهو ينعكس على زجاج النافذة:

- لكن يا حبيبي هذا لا يسبب لي أي وجع يمكنك أن تتخيله. أتعلم لماذا؟. لأنك بت ملاذي الوحيد. فهل من المنطقي أن نلوذ بشيء ونبقى مجرد كائنات غامضة حيال عالم هذا الملاذ.

استدارت بحركة مفاجئة، فسقطت الملاءة، فبدا جسدها كاملاً ونضراً كأنه خلق للتو. أمسكت بيدي وسرنا بضع خطوات نحو السرير، فقلت ونحن نجلس:

- أؤمن الآن أن ما يحدث بيننا ليس مجرد شيء وليد الصدفة. كلماتك التي عرفتني بك، كانت منذ البدء قد خلقت بي إحساساً إن فقدته الأنثى، ستبدأ تحس بضربات يد الموت على باب تكوينها. إنه

الإحساس الذي يأتي مزيجاً من الحب والشهوة. قبل أن أعرفك اعتقدت أن ذلك الإحساس في أيامه الأخيرة، وأنني هالكة لا محالة. لذلك قلت لك «أنت رائع يا رجل» وأنت تنتشلني دون أن تعي من واد لا يؤدي إلا إلى الفناء. فقد أحببتك واشتهيتك في لحظة أقبع فيها وراء حاسوبي، أتجول في العالم الافتراضي كأي امرأة يغيب زوجها لأحضان امرأة أخرى، بعدما أدرك أنها ما عادت تصلح إلا للطهو وتنظيف البيت. لذلك أمسكت بهاتفي بعدما حصلت على رقم هاتفك المدرج في معلومات صفحتك، وهاتفتك. كان قلبي، مع كل رنة جرس على جهة الاستقبال في هاتفك، يهوي من مسافة شاهقة ثم يرتفع. حينها جاء صوتك: (ألو، ألو، ألو)

شعرت لحظتها بشيء علق بحنجرتي، منعني من الكلام، فأقفلت الهاتف، وعدت لكلماتك، التي كتبتها في صفحتك في الفيس بوك. حجم الحب والإشتهاء الذي تفاعل في جسدي كان أكبر من أن أقمعه، لذلك بعد عدد من الأحاديث الإلكترونية بيني وبينك، أصبحت مصابة بحب واشتهاء، جعلاني مريضة وطريحة الفراش. فهل كان ثمة خيار واحد للحفاظ على عالمي الخاص. عالمي الخاص الذي بدأ يتشظى عبر تلك اللقاءات الحميمة التي تحدث بيني وبينك عن بعد. كنتُ وأنا أمسك بالهاتف عارية في السرير، مغمضة العينين، أراك في عالمي، تقرأ خارطة جسدي كما لا يمكن لأحد أن يتقن قراءتها. تقبلني، تلوك لساني بلسانك، تطبع على رقبتي علامات قبلات حارة. تفك أزرار قميصي وتشيحه عن نهدين يتحفزان حين أفكر بك. بأناملك تحررني من ملابسي، ليصير

جسدي معلقاً بكلمات منك تركض في دمي كأنها نحل مصاب بالجنون، تقبل بطني كأنك تسترد عافيتك التي تغيب بفعل المعتقل، تباعد ما بين فخذي، ثم تطبع هناك في مهوى الرعشة قبلات خفيفة، لنتعانق بعدها وقد التحم الجسدان، عبر عراك موسيقي، يجعلني كلما علت وتيرته أشهق مع شهيقك، لأضمك إلى صدري، وجسدي ينتفض كطائر من فرط الرعشة.

توقفت عن الكلام، وراحت تراقبني بملامح من يود قول شيءٍ لكنه خائف من عواقبه. نهضت ، ثم قلتِ بتلكؤ:

- ماذا لو اكتشفت يا خالد أنني...

توقفت مرة أخرى عن كلامك الذي جاء متلعثماً. فاقتربت منك متسائلاً:

- ما الذي يحدث يا سعاد.؟

كان عليّ في ذلك الوقت أن أكمل تساؤلها فأحظى بإجابة أرّقني غيابها زمناً أكثر مما أرقتني سنين المعتقل. لكنها تعذرت بضرورة ذهابها للحمام. عندما عادت همست لي بحنو:

- ها أنا يا حبيبي، لست امرأة افتراضية كما كنت تقول لي وكلماتك تنزّ وجعاً.

ارتمت بحضني، ورحنا في تمثل الحالة بين تائه في الصحراء بلا ماء، وبين الماء حينما بدا قريباً من فمه.

ونحن نمنح جسدينا حق الاشتباك، كما اشتبك القلبان، همست في أذني وأنفاسك تجيء حارة تبتكر الشبق:

- هل تتذكر عندما قلت لكَ أنني سأحتلك واستهلكك إلى درجة تصبح فيها غير صالح لأي امرأة أخرى؟

نهضنا في السرير، فجثونا على ركبتينا، منتصبين متقابلين، ليلتصق جسدانا في حركة تشبه حركة الأرجوحة، فقلت لك وشفتاي تقضمان على مهل شفتك السفلى التي بدا طعمها أكثر حلاوة:

- ما شرعتُ لك نوافذ القلب إلا لأمنحك احتلالي كاملاً. أو لأقل لك أن تحررني من احتلال المعتقل، فأزالت يداك قضبانه من داخلي.

رعشة زائدة، سرت في أنحاء جسدي، وهي تستلقي تحتي، ثم طوقت جسدي بيديها، وهي تضغطني نحو جسدها الذي بدا ليّناً كالسحاب، فبدا في عينيها أن مهر الشهوة يرفع الراية على قمة جبال الشهيق، امتدت يدها إلى طاولة قرب السرير، فالتقطت ورقة وقلماً، وهمست لي:

- أكتب الآن يا حبيبي. أكتب. أريد أن أحتفظ بكلماتك التي تولد في لحظة كهذه. لحظة خارج سياق الوعي الاعتيادي.

وهي تئنُّ من فرط اللذة، ويئن في داخلي حصانُ الشهيق، وضعت القلم في رأس الصفحة، تماماً كما يضع طبيب عالم أنبوب الإختبار، وهو على مشارف استنساخ كائن حي، فجاءت الكلمات وجها آخر لما وراء اللحظة:

(ونحن نقرأ خارطة الشهوة أراني كاملاً

روحي؛

طائر من البلور يمسح شواطىء العطش بالصدى

قلبي؛

غيمة توزع قطوف الحنين على مرآى من الغياب.

جسدي؛

يخشع في محراب الماء، وهو يمسح وجه الطين بأنامل الإمتنان.

ونحن نقرأ خارطة الشهوة أراكِ كاملةً

روحك

نوتة موسيقى لا يفهمها إلا الاخضرار

قلبكِ

قصائدَ «إنخيدو أنّا» وهي تمتدح الآلهة

جسدكِ

تراب مائيَ الذي يهوي إليه من غور قصيّ في الاشتهاء

ونحن نغرق في فكرة واحدة

جسداً واحداً

قلباً واحداً

روحاً واحدة

أرانا كاملين

كاملين دون نقصان)

عند باب البيت احتضنتها بشدة، لأنني كنت أعي أن الطائرة سوف تختطفها مني إلى مسافات بعيدة ستبقى الكلمات وحدها هي القادرة على هزيمتها المؤقتة.

قالت وهي تحتضن وجهي بكفيها، بينما في عينيها يلوح طيف لدموع غزيرة:

- خالد. ليس من حقنا أحياناً أن نعترف بما يوجع القلب. لأن اعترافاً من هذا النوع ربما يقوض عرش حياة لم نكن نتخيل أننا قادرون على ابتكارها.

لم أفهم لحظتها ما كانت ترمي إليه. إذ وضعت يدها على فمي وقد منعتني من التساؤل على مسمعها:

- حبيبي. أرجوك لا تقل شيئاً. قبل أن ألتقيك كنت أدرب نفسي على تلك الصياغة التي يمكنني عبرها أن اقول لك ما اشتهيت قوله. لكنني عجزت.

- من المؤكد أنك تريدين قول شيء ما. ولن أجبرك على البوح به.

لامست بجبينها جبيني، وهمست بحنو:

- خالد أنت رائع يا حبيبي. تذكر هذه العبارة. مثل أشياء كثيرة سوف تذكرك بي.

- كأنني لن أراك مرة ثانية!

- بل سنلتقي.

* * *

بدا لي وأنا ألوذ بمعتزلي الجبلي، كأن صدى صوت ارتطام الماء بالكائنات، وصوت الريح وهي تجوب فضاء الجبل، والرعد الذي يتبختر في المدى كولد لا يأبه بشيء، كأن صدى كل تلك الأشياء، قد تبدلت إلى إيقاع آخر، بات مستساغاً أكثر من ذي قبل. ربما وتيرة الموسيقى، التي نشطت وراء صوت بوتشيللي، هي التي جعلت للأشياء مذاقاً خاصاً. ربما هو وجهك الذي يتخلل كل تلك الأشياء. فيمكن للبال أن يتذوقها، كأن يصبح لمنظر الليل، وهو يثور من الشعاب والوديان وسط شبق الطبيعة ذاك، طعم حبة بطاطا مشوية على جمر نار من أعواد حطب لها نكهة لذيذة. كالتي حشرتها بين كرات الجمر الملتهبة، ثم رحت أقشرها وأرشها بقليل من الملح، ثم أشطرها إلى نصفين، على مساحة رغيف خبز تحمص بفعل لظى الجمر، وهو يؤنس البال في ليلة مثل تلك الليلة. فالنار أنيس وفيّ في ليالي يشتد فيها الليل، وعتمته تزحف من كل الجهات، خصوصاً في ليلة عنوانها عاصفة لا تأبه بشيء حتى بذاكرة صارت عرضة لريح نهرت كل شيء دون هوادة.

هجمت دفقة برد على المكان مرة واحدة ، فسحبتُ البطانية على كتفيّ، ورميت بضعة أعواد من الحطب، لكي يأخذ الذئب المسترخي نصيبه من الدفء. ما أن ارتفعت ألسنة النار حتى بدت على ملامحه علامات التوجس والحذر، ثم عاد مسترخياً. أشعلت سيجارة، ورحت أرتشف من كأس الشاي، وأراقب الوادي الذي غابت ملامحه بفعل الليل، والعاصفة التي كانت على وشك أن تقتلع حتى الصخور الضخمة الجاثمة على بدن الجبل. كان الذئب يراقبني بعينين تشيران

إلى أسئلة داخله. أغمضت عينيّ مستسلماً لصفحات الذاكرة التي لاحت لي الحافلة منها، وهي تعود إلى القرية كأنها عجوز تغذ خطاها بتمهل، بينما كانت أم كلثوم ما تزال تتسلق شعاب اللوعة، كخاطر يقتاد الفرح والحزن معاً، وهي تردد تلك اللازمة:

(ويقصروك يا ليل ويقصروك يا ليل) إذ كانت الحافلة تمخر عباب ظلام هطل على امتداد التراب والأفق، فبدت إضاءات المنازل المتناثرة خارج تشنجات المدينة، كنجوم سقطت للتو على الأرض، ليتسلل إلى مخيلتي يقين يدلني على القرية، وأنا عائد من مدينة لم يتبدل منها سوى الملامح، وهي تقلد تلك المدن التي يمكنك أن تقول فيها ما تشاء.

شعرت برجفة قوية قد انداحت في قلبي، وانثالت في البال صورة لا يمكن أن تتلاشى بسهولة، الخطوات الأولى، الكلام الأول، الفرح الأول، الحزن الأول. القرية، حيث سقط الرأس، واندحرت إلى الرئتين أول دفقة هوائية، بعد فردوس الرحم والصراخ الأول.

صور وروائح شتى انداحت في مكمن الإحساس بالأشياء. رائحة الطوابين، ورائحة الشتاء، الذي يأتي بقبلته الأولى على خد التراب، حبات المطر العاشق المكابد عشقه الأزلي. من هناك؛ من البعيد الراكد في نورانية الفضاءات، يسقط كموسيقى على شكل نتف من الزهور، والتراب الأنثوي، سيدة العشق والخصب التي تعبت بطقوس الانتظار للحبيب ولتمرداته. عندما تلعج البروق في جبين المدى تكون الإشارة، للكرنفال، وعندما يسقط المطر على حبات التراب، يكون العناق حالة هلامية نورانية، فتشرق الشمس

على حياة جديدة، لتسري بعروق الأغصان، فينداح الأخضر، الابن الشرعي لطقوس ذلك العشق الشاهق.

كان الظلام قد استرخى، فطوح ستائره السوداء، ليلقي على القرية، الغارقة في امتدادها نحو مسافات تعلقت بها غيوم توقظ إلى جانب الإحساس ببرودة الطقس؛ إحساساً آخر بالوحشة.

ألقت بي الحافلة على أطراف القرية، وأنّت أنينا متقطعاً، وهي تبتعد لتتركني وحدي قبالة لحظة علي أن أستجمع كل طاقتي لأواجهها بعد كل هذا الغياب.

عندما توقف المطر عن هطله، راحت رائحة التراب تمنحني بهجة قروية عتيقة افتقدتها عشرين عاماً. هويت جالساً أفترشُ التراب، والنسمة الباردة تمر سريعاً قرب وجهي، الذي كان مسترخياً، أكثر من ذي قبل. قبضت حفنة من التراب المبتل، فضجت في صدري رغبة ما لأقبله، فشممته، وقد صعدت في أوردتي موسيقى خبرتها منذ سنين. موسيقى لا يعرفها إلا غائب عن ذكريات بقيت معلقة في عنق روحه كتميمة أبدية، فقبلتها بعمق.

مشيت في القرية التي حفلت بكثير من الطرق المتقاطعة، والممتدة شرقاً، وغرباً، جنوباً وشمالاً. وقد امتلأت بالمحال التجارية، وصراخ الكهرباء، ولوحات الإعلانات، وطراز عمراني جديد. تبدلات كبيرة جعلتني أتساءل: كيف حدث هذا بكل تلك السرعة؟

مررت قرب حانة كان فيها بعض سكارى يترنحون يميناً، وشمالاً، وهم يخرجون من بوابتها وقد قرفصت أعلاها عبارات

بالإنجليزية، ينوء في أحشائها ضوء أحمر معربد، فظننت للوهلة الأولى أنني في مكان غير المكان الذي قصدته. لكن بقايا بيوت قديمة متهدمة، غيرت ما طرأ في خاطري من تيه مفرط.

طفت مراراً في القرية التي ما عادت قرية، فلا بيادر، لا حصاد، لا حقول، ولا سهارى سوى متسكعين على أطراف حانة لا تبيع سوى غفلة الخمر.

أبراج اتصالات معدنية تنتصب بوقاحة، أطباق تأسر كل بيت وكأنها تنوي منح أرواحهم أرواحاً معدنية أخرى.

كنت أتساءل مذهولاً وقد رأيتها فاقدة لروحها، وكأنها صبية هرمت، فراحوا يغدقونها بالمساحيق، ليردموا مسافة ما، ما بين الصبا والشيخوخة:

- أية لعنة حلّت على هذه القرية؟ أين قريتي؟ من الذي سرقها؟ وأي لوثة عقلية عصفت بأهلها؟

شجيرات السرو الممتدة إلى الأعلى كخيوط دخان في مساء رائق، أكدت لي أن ذلك البيت الجاثم على كوع الطريق كأنشودة قديمة، هو البيت الكبير الذي نشأت فيه، البيت الذي بناه جدي، وقد لملم حجارته من كل أطراف القرية، ومن قرى مجاوره، كان يحملها على أكتافه تارة، وأخرى على ظهر الحمار. أول بيت في القرية، يشير إلى نهاية زمنية من التنقل في الصحارى طلباً للماء والعشب. «البيت الكبير» الذي كانت تسميه جدتي بهذا الاسم. هو نفسه البيت الجاثم في ذاكرتي، ببستان العنب والرمان والزيتون والتين

الذي يلتف حوله. وحظائر الأغنام والأبقار، والماعز الواقعة في باحته الخلفية. وأقنان الدجاج والحمام والبط التي شيدت تحت شجرة الفلفل الضخمة. بأصوات سكانه، وأغنياتهم وفرحهم وحزنهم وتعبهم اليومي.

ثمة فرح غامر ضج بصدري بغزارة، وأنا أتلمس خيوطاً ما زالت تؤثث خفق القرية وأنفاسها في البال عندما كانت خطواتي تنزلق إلى البيت الكبير، وأنا أتساءل:

- كيف صمد هذا البيت؟

أمام الباب الخشبي العتيق، وقفت أكابد أنفاساً تعلو وتهبط في صدري. ما إن أمسكت بناصية شيء من الهدوء حتى رفعت يدي لأقرع الباب الذي غبت عنه زمناً طويلاً، لكنها ارتدت وكأن صدر الباب اتسعت رحابته أكثر مما هو متسع في تلك اللحظة، فعادت أنفاسي لتختلط من جديد وكأني على مقربة من يباس أبديّ لفرط الحنين. رفعت يدي مرة أخرى، فتسلل إلى مسامعي صوت يحوم في الداخل، فقرعت الباب بضع قرعات مشتتة، وأنا أغالب دمعتين سقطتا عنوة، ليأتي من الداخل صوتها، وهو محمل بكل أناشيد الانكسارات:

- مين، مين عا الباب؟

قلت والكلمات تقصد مكانها من فمي مخنوقة ومرتعشة:

- أنا، أنا، أنا.

أطلت علي بوجهها الذي لم يتغير كثيراً، الأنف الجميل المدبب، العينان العسليتان اللتان يرقص بهما حداء السنين كلها،

والوشم البدوي الذي ينحدر إلى الذقن. لم تتغير كثيراً، سوى أنها باتت تتعكز على عصا من أغصان شجرة التين المعمرة في البستان الذي يحوم حول البيت.

كنت واقفاً دون حراك، وكأنني أكتم أنينا لا أود له أن يصعد إلى روحي مرة أخرى، بينما كانت تحاول أدراك ما يجري، وهي تردد:

- أنا بحلم ولا بعلم؟ هذي ليلة مباركة يا وليدي.

امتدت يدها المهورة بوشم عتيق لتلامس خدي الذي ابتل بدموع حارة حدّ الحرقة. ثم قالت وشفتاها ترتجفان وهي على أهبة بكاء مباغت:

- ما ني مصدقة إنك رجعت يا خويلد. الحمد إلك يا رب.

ارتميت في حضنها خائر القوى، حزيناً ومهزوماً، يحوم في صدري نشيج مر:

- غيبتك طوّلت يا جديتي، وأنا كنت خايفه أموت قبل ما أشوفك. ما مليت وأنا كل يوم أتحرى جيّتك. كنت أدري إنك جاي. بعدك خويلد اللي كان يتعربش على كتوفي مثل شمس إيدار. هاظا الشيب زلة يا جديتي. زلة الوكت. ما يهم. ما يهم يا خويلد.

نهضت من مكانها، وهي تسير ببطء، تتكئ على عصاها، باتجاه الباب، وهي تردد بعجالة:

- هالساع أجيك. ودي أجيب شوية حطب الدنيا صقعه.

كنت ما أزال أكابد أحاسيسَ متقاطعة، كانت تهاجمني بشراسة، حين رحت أتجول في أرجاء البيت الكبير غرفة غرفة. وقد

بدا لي خاويا لا يضم إلا أنا، وجدتي. قلت لها، وهي تهم بإغلاق الباب خلفها، حاملة كومة من الحطب:

- وين اخواني، وعمامي ماني شايفهم هان!

راحت تحشو الحطب في المدفأة ببطء، وهي تحاول أن تشيح بوجهها عني، فرأيتها ترتعش فجأة لينفجر بكاؤها الذي كانت تحاول أن تكتمه. استدرت لأقف قبالتها تماماً، فرأيت وجهها غارقا في حزن كبير لم تستطع مداراته:

- وش في يا جدة؟

جلست وكأنها فقدت كل قواها التي استجمعتها لتنهار في لحظة اللقاء تلك. قالت وهي تجفف عينيها بكم ثوبها عبر نشيج يشبه نشيج الأطفال:

- يا جديدي سوالف كثيره صارت. هو وشنهو اللي ما صار.

قلت لها وقد تملكتني رعشة كما لو أنني بت عارياً في ليلة من ليالي شباط:

- سولفيلي كل شي.

قالت:

- خواتك تجوزن وسافرن عبلاد برا. يقولو إنو هالبلاد ما بيها شغل.

- واخواني وينهم؟

– واخوانك سافروا يدورو على شغل. شايف يا خويلد شلون الدار صارت فاظيه.

حزن عميق غافل الفرحة التي اصطدمت بروحي عندما فتحت لي الباب الذي كان أنينه ما يزال يحبو في ذاكرتي وكأن آخر مرة لامسته البارحة.

قلت وشيء ما في أذني يسرد لي مرارة الإجابة مسبقاً:

– ول لهالدرجة!

ثم رحت أتساءل:

– أشوف دور عمامي ما بيها ظو!

اتكأت إلى الجدار تنشج كما الأطفال:

– العين الحاسدة صابت الدار يا وليدي. كان عمامك يمشو مع بعظهم. وكنت أقولهم إن اللي يساووه ما هو زين. عيون الناس فاظيه ما يملاها غير التراب. مرضوا الأربعة. وماتو واحد ورا الثاني. مر عالقرية سنه ما هي زينه، ومثل ما انت شايف يا خويلد ما ظل غيري أنا وياك.

بقي صوتي خافتاً مرتعشاً، وكانت هي الأخرى تتسلل في داخل مفكرة سنين خلفت لها كل أشكال الخسارات، تفتش عن إجابة تصلح لطفل داهم البياض شعره باكراً. قالت وهي تشنج بألم أعلنته دموع انحدرت بغزارة:

- كنت كل اللي ودياه تظلي هالدار صامده. كنت خايف عليها من هالدنيا اللي تغيرت. الدار هذي يا خويلد مر عليها زمن وناس كثار يا جديدتي.

قالت ذلك، وغرقت في نشيج مر وهي تردد:

- لكن ما ني داريه لمتى اقدر أظلي واقفه على رجلي.

شعرت، بصدى انهيار في داخلي، يشبه اللحظة التي ماتت بها أمي يوم كنت طالباً في الجامعة، فرأيتني طفلاً يقف في منتصف بنايات شاهقة انهارت دفعة واحدة، لأجدني واقفاً بكل حيرة وسط كل ذلك الركام.

عبرتُ بوابة البيت، ووقفت أسند قامتي المتعبة إلى جذع شجرة الفلفل الضخمة وهي تقف في منتصف البستان كإله أسطوري، والسماء في تلك اللحظة تغدق أمطارها وكأن شريانا قد بتر من صدرها فتدلى، كنت أحس في دواخلي ريحا سموماً كتلك التي كان تجوب امتدادات الصحراء لتعلن عن وحشتها، ويسبح في أوردتي ليل ضالع بالوحدة والانكسار.

جلست وقد أرخيت جسدي إلى جذع الشجرة، والمطر يفر من الأعلى كرصاص معركة ضارية يستبيح صدور الجند. رفعت رأسي عالياْ لتقتحم حبات المطر وجهي، كأني أغرق في حالة قاسية من العطش، ثم ارتميت على الطين، وأنا أتساءل:

(كيف لم يخطر ببالي أن عشرين عاماً من الغياب يمكنها أن تبدل الكون كله؟ هل كنت على يقين أن كل شيء سيبقى رهن صورة كانت سائدة آنذاك؟)

نهضت على عجل، وعبرت الباب وجسدي مغطى بالطين. قلت وأنا ألهث بينما جدتي متهالكة على نفسها وكأن قواها التي استجمعتها طوال كل تلك السنين قد نفدت للتو:

- أريد أن أذهب إلى قبورهم وقبر أمي؟

قالت وهي تتدارك لحظة كان من الممكن أن تودي بي إلى الجنون:

- روح يا جديدتي. تلاقيهم بحد بعظ. جدك، وأمك، وابوك، وعمامك. روح يا خويلد. وابكي مثل ما ودك. الدموع يا خويلد تغسل قليبك من الحزن.

ما إن خرجت من البيت؛ حتى صعدت الطريق الذي يقودني إلى القرية، والمطر ما يزال يفتش عن وجه قديم لها. كانت ذاكرتي تتجه نحو قارعة الطفولة التي مضت دونما نية بالإياب، بينما وجوههم تخرج لي مبتسمة كأنهم لم يموتوا.

رحت أعدو مسرعا أفر إلى المقبرة التي حينما عبرت بوابتها واتجهت إلى الشمال، رأيت الزيتونة هناك تتمطى أعلى قبورهم. أسرعت بخطواتي، فوصلت ثم جثوت عند شاهدة القبر منهك القوى.

(لقد فعلتموها ورحلتم. استسلمتم للموت. لم يتسن لي، وأنا صريع تهمة لم أقترفها، أن أسلم عليكم واحداً واحداً. لقد رحلتم تباعاً، كأنكم تفعلون ذلك نكاية بغيابي. ما الذي تبقى لي. الذكريات؟ ماذا أفعل بها، إزاء كل هذا الخواء. أيها الموت أما كان لك أن تكون أخف وطأة مما كنت عليه.؟)

عند قبر أمي جثوت منقوصاً من كل شيء سوى حزن يفتك بي:

ها أنا عدت يا أمي. عاد طفلك الشقي. هل ترين كيف مضت تلك الأعوام وأنا أغيب قبل رحيلك في مدينة أكلت لحمي لما منحته لي من أحلامٍ كبيرة. لم تفارقيني لحظة من لحظات كنت أحارب فيها غول الإعتقال بسيوف الذاكرة. لقد كنت معي دائماً؟ وكانت جبهاتي تسقط واحدة تلو الأخرى، والضوء أمامي ينوس، ينوس ويخفت. ثم أشعله من جديد بأمل بالنهارات لم ينقطع. كيف لي أن أعيد النظر بكل تفاصيل حياتي، وكيف لي أن أملك ذلك. لعلي أنجح بأن أرممني من جديد؟ كل شيء دونك يغدو كصفق أجنحة أنهكها رصاص الصيادين. وأجنحتي بلا ريش، وبلا تلك الأهزوجة التي تقرب لي المدى. أتذكرين عندما كنت أقول لك، والشمس تنسحب من صفحة النهار لتختبئ خلف الجبل:

- إلى أين تذهب كل تلك العصافير التي تتجه نحو الشمس تصغر وتصغر إلى أن تصير في مسافات لا حيلة لنا على رؤيتها.

كنت حينها بوقارك المعهود تقولين:

- أنها تذهب إلى مسافرين طالت بهم الغيبة، أنها تحمل لهم أخبار البلاد، فرحها، حزنها، موتها، ولادتها، شتاءها، وقحطها.

ترى هل كنت تدركين في قرارة قلبك الدافئ أن ما حل بي سوف يحدث لا محالة؟

عند شاهدة القبر كنت جاثماً مبللاً بالماء، والوحل، كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن اقتلعوا الرصاصة من فؤاده، وبات

يضخ دماً حاراً. كانت السماء تزخ أمطارها، والرعود تجوب المساحات كلها، عندما أطلقت تلك الصرخة التي ركضت في سماء القرية الفسيحة، وأنا أفتش الريح عن أمي، وعن من غابوا.

* * *

شرع الرعد يركض في سماء الجبل، وهو يقتاد البروق بجنون لم أعهده من قبل. وعاد المطر يضمخ الكائنات بلغته، ويمنحني إحساساً بالوحدة. وأنا، كأي شيء بلا بوصلة، أقبع في تجويف ذلك الملاذ. وقد كنتِ، في سماء القلب، وفي أرض دمي. وأنا أحس باشتهاء غريب نحوك، إنه ذلك النوع من الإشتهاء الذي عادة ما يجيء في وقت الحزن، كأن الجسد يستخدم أسلحته في تلك اللحظة ليدافع عما أصاب القلب من وجع. نار تفوق ضرواة تلك النار التي أقعينا أنا والذئب قربها. مصفوعاً بأنفاسك وهي تلفح وجهي وتصيبني بالحياة. سنوات طويلة كدت أصدق أن اليباس طالني، وأنا أختبر ذكورتي بين أربعة جدران في صحراء جافة.

أشتهيك رغم ثقل الحزن في روحي التي تعلم أنه عندما كان يحل شبح الموت على القرية قديماً، ويحصد من أبنائها عدداً يترك حسرة في قلوب الناس، يسارعون بإقامة فرح ما، يبقون لأيام يغنون ويرقصون، كأنما شبح الموت لم يأت حاصداً أبناء هذه القرية من قبل. كانوا يا حبيبتي يطردون الموت بالفرح.

حين عرفتك، تسللت إلى البال مشاهد من تلك الليالي التي كانوا يشهرون بوجه الموت سيف الفرح ذاك. وعندما عبرتِ باب

القلب، راح شبح المعتقل ينسل من تكويني. كأن وجهك غيمة قرأت كل التعاويذ التي تمجد فكرة الحياة.

آه يا سعاد،

أنت تتغلغلين في دمي كما يتغلغل الماء في تراب محتل من قبل جنود العطش. وذاكرتي مليئة بك حدّ الطوفان. هل لذت تلك الليلة إلى ذلك الملاذ القصي في البرد والوحشة لكي أتذكر! لكي أعيش معك ما لن يعود.

أتذَّكرُ حديثكِ عن زمن كنت فيه تطاردين وهم إعادة ترميم الكون، عبر حزب يحلم بطريقة خاطئة. كنتِ كلما رأيتِ نفسك قد أوغلت في الحديث عن تلك التجربة، وأنا قبالتكِ، أقصد قبالة شاشة حاسوبي، عبر هذا الكون الافتراضي، تتلكئين وتسوقين الكلام إلى جهة أخرى، كحديثك عن الخادمة التي باتت مؤخراً تتدخل فيما لا يعنيها، أو عن مديرك الذي يوكل إليك ما لا يطاق من أعمال، أو عن هموم بيتية أخرى، فبت تشعرين بأنك محض آلة تعمل وفق برنامج إلكتروني معدّ لها مسبقاً. لكن أفق مخيلتي يبقى منفتحاً على زمن يخصك بمزاج طفل أحاول استيعابه كي أكون قربك منذ البداية. كأنني لا أريد أن أعترف بذلك الزمن الذي لم أعشه بمعيتك، فأكتب بلهفة:

- أكملي ماذا جرى.

فتأتيني تلك الوجوه الإلكترونية التي تعبر عن ابتسامة، يمكنني أن أتخيلها في مساحة وجهك، الذي لم أكن قد لمسته بعد بأناملي، كطفل يلامس كتابه المدرسي الأول بفرحة غامرة. تكتبين:

- حبيبي الحيطان إلها آذان.

فأعود أكتب بأنني طلقته ثلاثاً يا حبيبتي، وطلقت السياسة بالمليون. تلك السنوات التي أمضيتها معتقلاً في صحراء تعزف ألحان الوحشة جيداً، حوّلت دواخلي إلى ما يشبه كهفاً رطباً، لا تنبت على جدرانه سوى الأعشاب الضارة، التي بغضاضتها واخضرارها تمرر السم، عبر مشهد بصري يمتلك طاقة على الإغراء أكثر من امرأة تحتفي بردات فعل الرجال أمام أنوثتها الباذخة.

طلقته ثلاثاً، وأنا أرى حزباً أفنيت فيه -من أجل الوطن- زهرة عمري، يمنحني درعاً لا يساوي بضعة دنانير ثمن لزجاجة خمر رخيص.

يا الله كيف لم تتوصل ذاكرتي إلى أن لقاءنا كان هناك، حيث كنا نحلم. وأن لقاءنا في الفيس بوك ما هو إلا لقاء جاء بعد عشرين سنة من العذاب قدمتها لي يدك بجسارة العاشقة الموجوعة!

أتذكر أحاديثك عن أصدقاء مشتركين بيننا عملت بمعيتهم، قبل أن تأخذك المسافات بعيداً نحو كرة لا مستقر حقيقي لها في الهاجرات العربية. أتذكر أحاديثك عن زمن المدرسة يوم كنت تحتفين بمريولك الأخضر وهو يخفي نهدين نافرين.

ذات شوق جارف، قبل أن نلتقي في تلك الليالي التي بعدها سأبقى ناقصاً هواء لكي أتنفس، كان يعبث بي شوق كما يعبث كأس من النبيذ المعتق بمزاجي الحزين، ذهبت ووقفت بباب المدرسة التي كنت ذات زمن تعبرين بوابتها في اليوم مرتين. ركنت سيارتي قبالة

البوابة تماماً، كان الوقت ظهراً حين تنبعث فيه الفتيات كما تفر عصافير من بوابة كهف مليء بالأعشاش يطل على الشمس.

رأيتك هناك، قامتك الطويلة تشبه آهة عاشق في قصيدة صافية. جديلتك تلوح في هواء المكان كجملة موسيقية فرّت من بال عازفها. عيناك تمسحان الفضاء بما يمكن أن يخبئه اللؤلؤ في صندوق أسراره. نهداك يرتعشان كسحابتين قبالة طائر الريح. رأيتك هناك، فتقدمت خطوات بلهفة تذرع القلب بلا كلل، وناديتُ مصاباً بشهوة الوصال:

- سعاد.

كمن يصفع المخيلة بحقيقة مرة، أتاني الصوت صادماً:

- عمّو أنا مش سعاد أنا ميرفت.

أتذكر حديثك عن بيتك في عمّان، لون الستائر، رائحة الحشائش ونباتات الزينة، الشرفة التي تطل على الشارع، لون الباب الذي يقف قبالة لهفة اللقاء، اللوحات التي اخترتها بعناية فائقة، خزانة ملابسك، المكتبة التي أثثتها بروايات تقترب من روحك المتعبة، البيانو الذي اخترت له مكانا في صالة الجلوس أمام لوحة امرأة تطالع مرآتها. أتذكر كل تلك الأشياء.

يوم أتممت بناء بيتك وتأثيثه، وقفت مكللة بالتعب، والحزن، والألم تصرخين:

- لمن هذا كله؟ لأجل من أفنيت العمر دون رجل يعرف كيف يستمع لذلك الرتم الموسيقي الذي يجيء من داخلي كامرأة

تشتهي الحياة بكل ذلك الشغف. ليست امرأة تسند نفسها ضد عطور العاهرات الذي علق التي علقت حتى بملابس زوجها الداخلية. وهو في السرير يقسم على أنه يحبني بجنون. أنا محض رهينة لورقة تدعى عقد زواج.

أتذكر كل تلك الأشياء، وأتتبع العنوان شارعاً شارعاً إلى أن وصلت. بقيت جالساً في سيارتي، ومن المسجلة يخضب عازف مجنون فضاء اللحظة بعوده الذي كان يسيل مقاماً من الوله. إلى أن أكتشفت أنني غبت في إغفاءة امتدت لساعات منتصف الليل. فغادرت الحي، وأنا أدرك أن المفتاح ليس بيدي، لأطل على مباهج جديدة حلمت بها.

* * *

كان الجبل يتأوه من فرط هطل المطر على جسده الذي نمَت فيه الحشائش، كما ينمو الزغب على أجساد الأطفال. فأحس بتأوهاته مزيجاً من الأصوات المركبة من صوت هطل المطر، والرعد، وهدير الماء في الوديان. وقلبي من عميق عوالمه يتأوه بسبب غيابك الراديكالي الذي بدل الأشياء مرة واحدة. كنت أفتش الحاسوب عن رسالة واستعطفتكِ، ونحن كعائدين من سفر طويل، إلى مشارف الحب، أن أحبيني بقلب يشبه شقة مرتبة الأثاث؛ كل قطعة تأخذ مكانها الطبيعي لأتحرك في قلبك بلا أية عوائق. ولا تحبيني كما يحب المريض دواءه الذي ما إن يشفى حتى يركنه في درج مهمل مع قليل من الامتنان. لكنني كلما توسلتك، تتقدمين خطوة نحو مصير لا

يمكن أن أتصور شكله النهائي، كنت مأخوذاً بتلك المتعة التي أحس معها بأن هناك امرأة تعيد ترتيبي من جديد. فعبر سلطة الكلمات، الكلمات ذاتها التي جعلتنا نبني عالماً عنوانه العريض حب ساطع كنجم قصي. كنت أستشعر أن هناك أشياء تحدث ضد طبيعة رغبتي بأن أكون ما أريد.

كنت ذلك النوع من الدواء لنوع من داء لا يزول إلا بك؛ إنما يمكن لأي مصاب به أن يتعايش معه. كنت معي تتعايشين مع وخزات ألم لزمن تسربل من بين يديك كما تتسربل حفنة ماء من بين أصابعك. لكن ثمة لحظات تطغى عبرها سلطة على سلطة. سلطة البارحة على سلطة اليوم. فأراك تدفعين بي للوراء، كأنك تريدين أن لا يختلط الزمنان.

قرأت لك ذات يوم نصاً في صفحتك في الفيس بوك، يشير إلى أن غياباً مؤقتاً يجب أن أتوقعه، لأنني في ذلك اليوم؛ كنت بالنسبة لك ذلك الصديق الذي عليه أن يبقى يستمع ولا يبدي رأياً واحداً. صديق عليه أن يكون محايداً، وأن يغلف حبه الذي خلط عوالمه بشكل غريب، بورق التجميد، ويركنه في زاوية أكثر برودة في الثلاجة. لذلك ما أن طلبت منك أن تفرجي عن أوراقك القديمة، رأيتك تعيشين لحظة من غياب الوعي وأنت تتحدثين، كروائية تتقن سرد الأحداث بلغة شعرية، إزاء حكاية حب امتدت لسنوات طويلة مع رجل ما زلت ترينه استثنائياً وغير قابل للنسيان. لم يكن بمقدوري عندما نطقتيها أن أكون محايداً، ومتحرراً من سلطة العقدة الشرقية، التي تتبلور في علاقة رجل أحب امرأة لها ماض متميز.

حينها سمعتك تصرخين، وأنت تلمسين عبر الأثير الذي شهد مكالمتنا الطويلة، ذلك الوجع الذي تمطى في ذبذبات صوتي، وهو يروح نحو الاختناق ، وأنت تؤكدين بأنك تحبينني وحدي، وأن ما حدث مجرد شيء حدث وانتهى.

غفوت في تلك الليلة بعد قلق وعصفات ألم عميقة، وأنا أفكر إلى أي درجة يمكن أن أكون عادلاً في فهمي لما يحدث. وأنا أعلم جيداً أني أحبك إلى درجة يمكنني أن أسامحك بها على أي شيء.

* * *

همدت النار، فألقمتها بعضاً من أعواد الحطب. بينما الذئب ممداً قبالة النار التي عكست على شعره ظلالاً تقاطعت فيها الوحشة بالألفة. وفي ذاكرتي تقاطع هذا المشهد بسنين الاعتقال الصحراوية، التي بسببها صرخت بدهشة يوم أن همس لي القلب (أنت تحبها) وأنا أحس بأن قضبان المعتقل داخلي تسقط تباعاً.

المشاهد تتقاطع في البال، كأن يداً خلطتها مرة واحدة، لتصير حالة من العبثية، التي أجاهد كي أقتنص عبرها تلك النقطة من التركيز، التي تصير أمنية في هكذا لحظات، لكن مشهد جلوسها في المطار في قاعة المغادرين؛ فرّ من بين كل المشاهد، ووقف في البال يعلن عن نفسه.

كانت آخر الكلمات منها عبر الهاتف قبيل الفجر، عبارة عن عوالم محملة بالأسى:

- غداً يا حبيبي سأغادر، عند الرابعة عصراً.

كانت تجلس في حضن الكرسي، صامتة لا تفعل شيئاً. ساهمة عبر زجاج البوابة العريضة التي تطل على شارع يعجّ بالقادمين والمغادرين. لم تلاحظ عبوري البوابة مصاباً بالعجلة بسبب إحساس خفي أنبأني بأنني لن أراها مرة ثانية.

ثمة موسيقى كانت تجيء من ضجيج قاعة المطار الكبرى، موسيقى اختاروها لتهدهد قامة الحزن التي تتلبس كل مغادر، وهو ينتظر ذلك الوقت الذي يعلن فيه صوت أنثوي عن حلول وقت إقلاع الطائرة.

اقتربت، فأدركت أنها شاردة، فلم تنتبه لوجودي إلا عندما ناديتها بصوت خفيض لاهث:

- سعاد.

ارتفع وجهها، الذي كان متعباً بعض الشيء. تبدلت ملامحه عندما اكتشفت وجودي وقد بدا لها مفاجئاً:

- خالد!

كأن شيئاً منحني اليقين بأنني لن أراها مجدداً، كنت استثمر كل ثانية، لأؤثث الذاكرة بتفاصيلها، التي جعلت مني كائناً يعرف ما معنى أن تكون حراً وأنت تكابد زمن سجنك الداخلي. وكانت هي بدورك تفعل ما كنت أفعله. كأن عينيها أنامل تتحسس وجهي، وهي تمسحه بنظرة فيها من الأسى ما يمكنه أن يتوازى مع الشوق.

الصمت بيننا لحظتها لم يكن صمتاً عادياً؛ بل كان صمتاً مليئاً بضجيج خلقته الرغبة بالتشبث بحياة مهما خذلتنا إلا أننا نواجه خذلانها بالأمل. هي امرأة تشبهني في أشياء كثيرة، وتختلف عني بأشياء كثيرة أيضاً لم يكن بمقدوري أن أكتشفها بعد أن اشتعل القلب بها حباً، طالما تلمست حاجتي له، وأنا أعيش زمن المعتقل الداخلي وزمن اللايقين، في وقت تضيع به المسلمات وتذوب به الحقائق تحت كم هائل من مساحيق الإخفاء.

كأن ضجيج القاعة الكبرى قد تلاشى مرة واحدة، وساد بيننا صمت يشبه صمت المرايا في بيت فارغ إلا من أثاث أخرس، فراح يخضبه صوت عزف على آلة «فيولين» بكل شجن تمنح اللحظة ميزتها الحزينة. فرأيتنا نتذكر تاريخاً بيني وبينها، ابتدأ بكلمتين جاءتا عبر عالم ما زلت أقول بأنه عالم افتراضي نرتهن له، لنلهو بأحلامنا التي ستبقى حبيسة الصفحات الإلكترونية. تاريخاً ابتدأ بكلمتين وها هو ينتهي بصمت مليء بضجيج الأسى.

امتدت يدي ليدها، فدبت بها ارتعاشة خفيفة، تقاطعت بخيال دمعات تراقصت في عينيها الحزينتين. يداها باردتان كأنهما قطعتا جليد. ثمة كلمات كانت تود أن تعبر الفم، لكن شيئاً ما كان يصدها، احتفاء بصمت يمكنه أن يقول كل شيء بلا كلمات. لكنها راحت تكسر سطوة الصمت وهي تغالب كلمات كانت ترتجف في فمها، كأنها تريد الاعتراف بشيء تخافين نتائج الاعتراف به:

- خالد هنالك خطايا نفعلها، ما إن نرى فداحتها حتى نكتشف غرابة إنسانيتنا. عليك أن تسامحني يا حبيبي. أعرف أنه ليس

من السهل أن أعتذر عن خطيئة سببت لك وجعاً استمر لعشرين عاماً، بكلمة واحدة. بل أن كل الكلام لا يمكنه أن يفعل ذلك.

من بوابة مخصصة لطاقم طائرة أخرى غير الطائرة التي كانت ستستقلها، خرج رداد متقدماً نحونا بخطوات حزينة، منفصلاً عن زملاءه. زملائه ما إن اقترب منا حتى توقف مصاباً بالحيرة. حينها رحت أراقب وجهيهما، متفاجئاً، أفتش عن إجابة لما يحدث. قال رداد بصوت مرتجف وهو يشيح ببصره عني:

- هنالك أحداث في حياتنا علينا أن ننساها كأنها لم تحدث يا خالد. كل ما فعلته أنني رأيت أملاً بينكما سوف يشيح في جسديكما الحياة.

من ردهة المطار نادى الصوت الأنثوي مكرراً نداءه الأخير، معلناً أن الطائرة على وشك الإقلاع فغادر رداد متعجلاً وهو ينضم لطاقم الطائرة التي سوف تيمم شطر باريس. ثم ماهي إلا لحظات حتى نادى الصوت الأنثوي على ركاب الطائرة التي أخذت سعاد مني دونما عودة، فنهضت من مقعدها وبقيت أنا جالساً فاقداً قدرتي على الوقوف. انسحبت على مهل، تماماً مثل يدي التي كانت تنسل من حضن يدها شيئاً فشيئاً، وهي تودع زمناً من حب عليه أن يحيى ليموت العتم في دمي ودمها. بينما صوت الدكتور ويلسون يهمس في دواخلي:

(يحدث يا خالد أن تحب الضحية قاتلها)

وهي تعبر بوابة المسافرين التي ابتلعتها باتجاه الطائرة، وابتلعت عمراً من الحلم بالحياة. نادت بصوت مختنف :

- وداعاً يا خالد.

لوحت بيدي، بينما ذاكرتي تستعيد ذخيرتها من الصور وهي تفتش صورة قديمة لها، وأنا غارق في الكرسي مصاباً بشيء يفوق جسارة الحزن على القلب:

- وداعاً يا سحابة.

خارج المطار بينما بوتشيللي يئن بصوته الحزين عبر مسجلة السيارة، التي ركنتها على جانب الطريق المخضب بشفق الغروب المشظى، أنّت الطائرة أنيناً موجعاً وهي تصعد درج السماء، وقد سرقتها راكضة نحو بلاد ،على حد قولها، ما هي إلا (معسكر عمل جماعي)، فبقيت أكابد زمن سجني الداخلي الذي بات أقسى من زمن سجن معتقل، أكل من عمري عشرين عاماً، ليس فقط لأنني كنت أحلم ببلاد يمكن أن أقول فيها أن الصباح لي كاملاً من دون نقصان. انما بسبب تهمة رغم بشاعتها إلا أنني رأيت قلبي يغرق بحب سعاد حدّ الشعور بالموت من دونها.

* * *

غفت ألسنة النار واستحالت إلى كرات من الجمر فتسلل الدفء إلى أطراف جسدي، ومنحتني ألفة خفية، كما منحت رفيقي الذئب تلك الألفة فغفا. كانت الأصوات في الخارج قد سكنت، إلا من صوت قطرات الماء الهابطة من أغصان شجر السرو والصنوبر، محدثة طقطقة موسيقية تستهدف الروح. داهمني النعاس في تلك

اللحظة على شكل مخدّر انساب في الوريد. فسحبت البطانية وصار جزءاً منها تحتي، والجزء الآخر يدثر جسدي وأنا أستشعر الإغفاءة تقترب مني. رأيت في المنام أني أجلس إلى طاولة وكرسي معدنيين، في غرفة معدنية. الطاولة في منتصف غرفة معتمة إلا من إضاءة دائرية تكشف عدداً من الجنود يتحلقون حول طاولتي، وهم يرتدون ملابس معدنية صدئة. أمامي على الطاولة صحن وملعقة من معدن صدىء أيضاً. تقدم أحد الجنود، وهو يحمل قدراً معدنياً تتصاعد منه أبخرة سوداء، مدّ يده في القدر، ثم راح يخرج قضباناً صدئة يتصاعد منها بخار أسود، ويضعها في الطبق الذي أمامي. تراجع إلى الوراء قليلاً ثم قال بصوت معدني:

- كل.

نظرت إلى الطبق، ثم إليه وإلى باقي الجنود. أتت منه صرخة بقي صداها يتردد في أرجاء الغرفة:

- كُل.

أصبت برعاش هستيري، وأنا أقول:

- هذه قضبان، قضبان قد تخنقني، وأنا أريد أن أعيش. أريد أن أعيش.

جاء صوت الجنود بوتيرة واحدة كأنه صوت جوقة:

- كُل.

امتدت يدي إلى الطبق، ثم وقفت مرة واحدة وأنا أردد بصوت هستيري:

- لا، لا، لا.

تقدم أضخمهم، ولف ذراعه المعدنية حول عنقي، وبأصابعه المعدنية فتح فمي وراح يدس القضبان واحداً تلو الآخر، والجنود يرددون:

- كُل.

من كوّة معدنية في الجدار، رأيتكِ تعبرين عارية، بينما كلماتي تعبر من بين القضبان في فمي مشظاة تستغيث بك:

- سعاد، سعاد، سعاد.

وقفت قرب الطاولة، تدسين القضيب المعدني الصدىء في حلقي، وأنت تصرخين:

- كُل، كُل، كُل.

* * *

عندما صحوت من اغفاءة قصيرة، كان ضياء الشمس وهي تشرق من وراء سلسلة الجبال، وقد تناثرت شرق جبل نيبو، يلفح وجهي الذي اعترته بضع حبات من العرق، بعد ذلك الكابوس. أمضيت دقائق أحاول استيعاب وجودي في ذلك الملاذ الصخري، كأن الليلة التي مضت لم تحدث لي. لا أصوات تتلقفها مسامعي سوى، صوت زقزقة عصافير الدوري.

إذ أدركت أن المطر الذي ظل في تلك الليلة يجيء عبر جنون الطبيعة، كأنه احتجاج على شيء ما، أكثر مما هو أنشودة للخصب

والنماء، قد توقف عن الهطل، كما توقفت الرعود، والبروق عن هديرها وزعيقها، فساد المكان ذلك الصمت الآسر، وهو يشبه صمت جوقة موسيقية يجيء عند الانتقال من مقطوعة إلى أخرى، عبر مسافة زمنية موسيقية يتخللها أنين آلة «فيولين».

بضع جمرات تبقت في حفرة النار، التي أكلت كماً هائلاً من أغصان الأشجار وجذوعها، في ليلة رحت أشك أنها حدثت لي في الأصل، وأنا أتمطى في ملاذي الذي بدا كومضة نهنهة في صدر عتيق.

بدت المسجلة الصغيرة التي بقيت تنطق بصوت بوتشيللي في ليلة مظلمة جعلتني قبالة نفسي كأني إزاء مرآة بحجم المجرة، غافية في مكانها. حيث استراح ذلك الملاك الضرير من غناء منح اللحظات رهاماً شتائياً، عبر مطر صفع بدن الأرض بصخبه المجنون بكل ضراوة.

سكبت كأس شاي، واشعلت سيجارة ورحت أتأمل الليلة التي رأيتها كطاولة تشريح استلقى عليها عمري كله. تفقدت خانة الرسائل في الحاسوب، وكانت فارغة من أي حرف. في صفحتي في الفيس بوك الذي غبت عنه لشهور، كتبت:

«عندما نحب فإننا نخرج على سلطة السجن، الذي أتت صرخة الخروج من الرحم بسببه. لتصبح حياتنا بكاملها خروجاً على أي سلطة تهدد فكرة الحياة. نحب، نحتج، نتظاهر، نكتب، نخطىء، ونصيب. حتى لا نصبح فرائس لحقيقة أن الحياة سجن

كبير. فالوجع الحقيقي ليس خسارتنا لحبيبة تمنحك فضاء يتجاوز الفضاء. الوجع الحقيقي هو أن نبقى نراقب الشمعة من بعيد ونحن نهش طيور العتمة من حولنا دون نتيجة تفضي إلى النور. تماماً مثل رافض يكتفي بمراقبة متظاهرين يهطبون للشارع ويندوون بتنامي سلطة القهر. حين نشذب الشجرة فإننا نحب. حينما نقف قبالة أنفسنا عراة إلا من مجابهة الحقيقة، فإننا نحب. حينما نرفع أصواتنا ونقول لا، فإننا نحب. حينما نحلم بأن يضع آدمي رأسه على صدر ذئب فإننا نحب. حينما يخسر الواحد منا حب امرأة ويبقى قلبه يشيعها بحب، كمن يحرس طفلاً في طريق معتمة، فإننا نحب. نحن نحلم حتى لو راحت الطريق تقودنا خلسة نحو المقصلة»

نهضت من مكاني وجمعت حاجياتي، ثم حشرتها في حقيبتي، التي تعربشت ظهري كولد متعجل للرحيل. عندما عبرت بوابة الملاذ، أهم بمغادرته؛ هجم علي بياض الثلج الذي كان في تلك الليلة يصارع المطر ليعلم الكائنات لغته البيضاء، فأطلت من ورائه ملامح اخضرار عشب، امتزج بذهب الشمس الصباحية، وهي تنعكس من صفحة البياض، على عينيّ مرة واحدة.

وقفت على مفترق طرق؛ واحدة تأخذني حيث تقف «مادبا»، وأخرى تهبط إلى الوديان، والشعاب التي تجاور البحر الميت، وثالثة تركض نحو الجنوب، حيث الصحراء التي تمتد مدّ الظن في البصر.

من الأفق الشرقي، صعدت طائرة درج الهواء، وهي تئن أنين الرحيل، بقيت أتتبعها باهتمام، وكأنك تستقلينها، حتى تلاشت في

الأفق الصباحي الذي خلا من الغيوم كما لو أن ليلة ماطرة مجنونة لم تحدث البارحة.

عندما تأهبت للرحيل، رأيت الذئب يتفرس وجهي بحزن، تقاطع مع حزن مماثل داخلي. ولاذ بصمت وراءه صخب واضح. لأعانقه جثوت على ركبتي اللتين غارتا في الثلج، فتسللت البرودة إلى جسدي مرة أخرى. بدت يداي في تلك اللحظة تحتضنان الهواء، وأنا أهم باحتضان الذئب. ففركت عينيّ بباطن كفيّ متفاجئاً بعدم وجود أي ذئب. حينها درت حول نفسي، ثم التفت إلى الملاذ الذي رأيته قد خلا من أي شيء.

وأنا أهم بالرحيل ثمة إشارة صوتية ضجت من الحاسوب الذي لم أكن قد أغلقته بعد، دلت على أن هنالك رسالة جديدة عليّ أن أقرأها. فرحت بلهفة شديدة أنقر زر المؤشر، لكن الشاشة اختفت معلنة نفاد الكهرباء، فاستحالت إلى سواد خالص.

تمّت

جلال برجس الغليلات

شاعر وكاتب أردني، ولد في 3-6-1970 في قرية حنينا التابعة لمحافظة مادبا. تخرج في مدارسها، ثم درس هندسة الطيران وعمل في هذا المجال لعشرين عاماً. انتقل بعدها للعمل في الصحافة الأردنية كمحرر في صحيفة الأنباط، ومن ثم مراسلاً لصحيفة الدستور. ثم عاد للعمل في مهنته الأولى. بدأ في نشر نتاجه الأدبي في أواخر التسعينات في الدوريات والملاحق الثقافية العربية. إضافة إلى عضويته في رابطة الكتاب الأردنيين، واتحاد الكتاب العرب، واتحاد كتاب الانترنت، وحركة شعراء العالم فهو يشغل موقع أمين سر رابطة الكتاب الأردنيين فرع مادبا، ورئيساً سابقاً لعدد من الملتقيات الأدبية، مثل ملتقى مادبا الثقافي وملتقي أطفال مادبا الثقافي،الذي أسسهما بمعية عدد من الأدباء والناشطين في العمل الثقافي، وترأس هيئتيهما لدورتين متتاليتين . يعمل مدير تحرير لعدد من المجلات الثقافية مثل مجلة مادبا، و مجلة الرواد،ومجلة أدب وفكر. إضافة إلى ترأسه هيئة تحرير مجلة أمكنة الأردنية الإلكترونية التي تهتم بأدبيات المكان، قبل توقف صدورها. كتب الشعر، والقصة، والمقالات النقدية والأدبية، ونصوص المكان، والرواية. اهتم اهتماماً ملحوظاً بالمكان الذي تطرق له عبر عين ثالثة أقصت التاريخ، والجغرافيا لصالح القيمة الجمالية من خلال رؤية شعرية لما وراء المكان. إذ نشر كتابه (رذاذ على زجاج الذاكرة/ حكايات

مكانية) في ملحق الدستور الثقافي في حلقات شهدت متابعة ملحوظة من القارئين الأردني، والعربي. كما أصدر في هذا المجال بالتعاون مع رواق البلقاء كتابه الذي ترجم لسبع لغات حية (شبابيك مادبا تحرس القدس) عبر تداخل ما بين عدد من اللوحات الفنية لفنانين أردنيين وعرباً.

فازت مجموعته القصصية (الزلزال) بجائزة روكس بن زائد العزيزي للإبداع 2013

صدر له في الشعر:

كأي غصن على شجر 2008 البيروني للنشر والتزويع.

قمر بلا مَنازل 2011 دار فضاءات للنشر والتوزيع

صدر له في أدب المكان:

رذاذ على زجاج الذاكرة 2011 وزارة الثقافة الأردنية

(القدس مادبا) شبابيك تحرس القدس 2012 رواق البلقاء

صدر له في القصة:

الزلزال 2012 وزارة الثقافة الأردنية

صدر له في الرواية:

مقصلة الحالم 2013 الأهلية للنشر والتوزيع

الهاتف:0776528648

البريد الألكتروني: jalalghlelat@yahoo.com

DREAMER GUILLOTINE

ليتني كنت أمتلك القدرة على استشراف ما يمكن أن يحدث لي في لحظة كانت شحنات ذلك العالم الإلكتروني، تهيئني لمصير جديد. مصير فيه من المتعة ما يجعل الواحد منا يصاب بجنون عاطفي من شأنه أن يهشم كل شيء، وهو يمضي بكل قواه نحو حب يأتي مصادفة في الغالب. لأدرك فيما بعد أن أجمل لحظات الحب هي التي تأتي صادمة، مفاجئة، وغريبة. تأتيك وأنت لم تفكر ولو للحظة واحدة بشأنها. كأن تكون في طريقك نحو موعد مع امرأة، فتلتقي بامرأة أخرى ليهيء لكما سرير اللغة عبر كلمة وحيدة، برقاً أول. فتلوذان بشجرة تطل على البحر، وهناك يحدث لكما ما لم تتوقعاه. فاللحظات الاستثنائية المفاجئة دوماً هي التي تصنع الحياة، بمعزل عما تعمل من أجل الحصول عليه.

(من طقس الرواية)

ISBN 978-6589-09-134-9

9 786589 091349

الأردن، عمان، وسط البلد، بناية 12 وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 © منشورات 2013